جنوباً: ما وراء السّافانا

إهداء

إلى : فاطمة أحمد طاهر.. أمي

المقدمة:

ترى ما حقيقة الحكايات والأوهام المروية عن الشعوب والدول في أفريقيا؟، ومالذي يحدث وراء الغابات والسافانا ومناطق لم تصلها كاميرات القنوات وأقلام الكتاب والباحثيين إلا نادرا؟ ولماذا يركزون على الجوانب المظلمة المأساة والفقر والحروب؟ ولم جعل المرض والمعاناة يرسخان في عقولهم ويترسبان على وجدانهم حتى باتت صورة نمطية؟، علما بأن القارة وإن لم تستفد بعد تعتبر قارة المستقبل وخزينة مليئة بالخيرات والتاريخ؟ كان في بالي استفهامات عميقة تحتاج إلى حل وأنا أعزف أوتار الرحيل بين الصحارى والغابات الماطرة والإجابة عنها كانت تقودني إلى مجاهيل القارة وإلى أعماق المدن والقرى.

لم أكن رحالا يدوّن يومياته بانتظام، ولم أكن عالما يبحث مجد الكلمات وتخليد التاريخ، ولكن كنت مسافرا يبحث متعته عن السفر في ربوع إفريقيا عموما وشرقها خصوصا تلك المنطقة التي شهدت حضارات سادت قرونا وعرف شعوبها أنماط الحكم وألوان الحياة وأسسوا الممالك والسلطنات والحضارات القديمة التي كانت أقدم من الحضارات الأوروبية والأسيوية حتى سيطرت عليها أوروبا التي خرجت من مستنقعها الآسن في العصور الوسطى، وفرضت رأيها على الشعوب وصورت أفريقيا وكأنها بقعة مجهولة تماما ولايوجد فيها سوى الشعوذة والسحر والأوبئة وآكلي اللحوم.

إفريقيا عند التدفق الأوروبي إلى أجزائها كانت معروفة لسكانها يسافرون عبرها ويعرفونها حق المعرفة، وما فعلته أوروبا هي أنها وصلت إلى المناطق الأفريقية وأطلقت عليها الأسامي الأوروبية وكان ستعمارا ثقافيا ممنهجا. وهذا من أكبر الجرآئم التي ارتكبتها اوروبا التي طمست المعالم الحضارية والثقافية الافريقية وأرسلت الكشوفات الجغرافية نحوها، بل وأسست من أجل هذه المهمة جمعيات ومنظمات قصدها الاستعمار والتبشير وإن تسترت بالبحث العلمي والرحلات الاستكشافية والسياحية.

منذ صغري كانت الرحلات والمغامرات بشتى أنواعها تنام بين ضلوعي وتجبرني على ممارسة هوايتي رغم الظروف الصعبة المحيطة بالإنسان الصومالي منذ بداية العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي بعد انهيار دولته وما صاحبها من التعقيدات وفقدان الكرامة وضياع الهوية حتى أصبح التنقل بأريحية ودون أضرار نوعا من أمنيات الخيال لجيلي الذي قُدّر أن يعيش بين أنياب الحروب وبين الآمال التي هرمت وشاخت.

دار الزمن وتوالت الأيام وبعد أن كان التجوال أمنية كامنة في وجداني أصبح دأبي وهوايتي بأسباب جغرافية ومعرفية، وفي غضون رحلاتي المتعددة إلى الشرق الإفريقي استفزتني الطبيعة، ومنحتني المدن والأيام التي قضيت بين سمرة الشعب وضفاف الأغاني وسحر الفلكور حسا إنسانيا، ودغدغ الجمال مشاعري وأنا مسافر إلى الأماكن النابضة حيث وميض التنوع العرقي والثقافي وبريق عيون المسنين وضحكات الأطفال وتغريد الطيور تشكل لوحة بانورامية باذخة.

كما آلمني البؤس والفقر المدقع لبعض المدن والقرى، وأرعبتني خريطة الجهل المنتشرة على طول القارة وعرضها، وتقدر بعض الجهات أن نسبة الأمية في المشرق الأفريقي تفوق50% وهذا رقم مخيف وكارثة بكل المقاييس.

في رحلتي وقفت بين سطور التاريخ وتضاريس الجغرافيا أتأمل على حياة الشعوب وتفاصيلها الصانعة لخيوطها الدقيقة، ورسمت منحنى مسار كتابي يمر على جبين الوطن المعفر بالمحسوبية واستغلال القوى والقيود المكبلة، وزرت الأماكن الأثرية وتعرفت معظم مدنها وقبائلها وتفردها الطبيعي ومميزاتها الحضارية، وسبرت غور المنطقة التي تعد من الأماكن الحيوية في العالم من حيث الأهمية الجغرافية والتنوع العرقي والتراث الفني والثقافي والإنثربولوجي، ومن حيث الثروات الموجودة فيه وإن بدت في الآونة الأخيرة وكأنها منطقة لا تهدأ بل تتجدد الحروب وتتشكل الأفكار المتضادة في ربوع أوطانها مما أثار حولها زوبعة حولتها إلى صحراء جرداء ودُول فاشلة تعاني من الفقر والفساد في نظر الكثيرين.

وبعد أن تجولت في المنطقة الجغرافية الجميلة بسمرة شعبها وعراقة تاريخها التي اشتهرت قديما بأنها أرض البخور والعطور والتوابل وبلاد الهجرة ومن أكثر مناطق العالم ثراء أدركت حجم المسؤلية، ومما أجبرني على كتابة مشاهداتي وانطباعاتي لتلك البلدان، هو كوني أدرك أنني أكتب نيابة عن أمم غارقة في الوسائل البدائية وتستخدم المشافهة والتلقي كوسائل رئيسة للاتصال اليومي، شعوب كانت .ومازالت . تحفظ ثقافتها وأساطيرها وماضيها وعاداتها بالمشافهة والأشعار والأغاني، إضافة إلى أنني لم أقتنع يوما أن منطقتي مجرد عدة دول وقبائل فقيرة يسودها الاختلاف والتشظي، وكنت أسعى دوما أن أكتب عن نبض المدن وعبق البوادي وأريج الأزقات التاريخية والسمراوات الطوال، ولم يستهوني يوما . رغم وجودها. المجاعات والدموع والمراثي والدمار الذي يقدمه الإعلام العالمي،ومن الغريب .وحتى بعد أن أصبح العالم قرية صغيرة .أن يسود الإعلام النمطي على أذهان الشعوب ويصور أفريقيا وكأنها منطقة لا تعرف السلام!

ولكن وبعيون أبنائها الصورة .وبغض النظر عن الاحتكاكات الطبيعية وإرث الاستعمار الذي زرع بؤر الخلاف والتوتر .ليست بهذه القتامة والسوء، وما يبرزه الإعلام الغربي والعربي على السواء ليست صورة مكتملة الأبعاد، لذا أردت أن أبرز الجوانب المشرقة لتلك الدول وأن أقدم للقارئ العربي الجوانب المغيبة إعلاميا، الجوانب البديعة من المرح المطبوع، الرقصات الجميلة على شواطئ المحيط وفي سحيق الأدغال، الثقافات الضاربة في جذور التاريخ والحضارات القديمة التي نشأت في أحضان القرى والشوارع الترابية والمساجد الشامخة وطيبة المتصوفة وفكر الفلاسفة وجرس الكنائس.

أردت أن أبرز بطريقتي الخاصة الوجه المشرق والمدن المنسية لأمتي الصومالية التي جعلها التبعثر الجغرافي أمة ممزقة الأوصال متقطعة الأركان قرن اسمها بالقرصنة والحروب والمجاعات، حتى أصبحت "صوملة" كلمة ترعب الجميع، أردت أن أسلط الضوء على الأبعاد المخفية على الخريطة الإعلانية والجوانب البعيدة عن عيون العالم، عزمت على كتابة التراث الصومالي القابع في طي النسيان رغم جماله ورونقه، وأن أروى قصص الشعب وتجاربه وتصوراته للحياة بعيون محلية تستطيع أن تقدم للعالم تاريخه الطويل وكفاحه ضد الكولونيالية الغربية والاستبداد المحلي، وعن الإنسان نفسه الذي يواجه الحياة وفي وجهه ابتسامة عريضة وفي قلبه شجاعة تتكسر سهام الصعاب دونها، دون أن ينسى العفوية والتلقائية المطلقة التي يعتبر أنها ملح لحياتنا المعاصرة التي أصبح عنوانها النكد والتذمر.

وأخيرا وبعدما نظرت الفراسخ التي قطعتها رأيت عبر شرفات الذاكرة الكتابية حكايات مدن ساحرة، وغابات زادها المطر ألقا وورفا، ووجوهاً قمحية تحاكي القصيدة وسامة وسمرة، وتذكرت الليالي الإفريقية الخانقة بالبرآءة والقصص والحكاوي المليئة بالمعتقدات الروحية، كما تحضر في ذهني الأحداث التي مرت على حياة الشعوب الساكنة تلك الأوطان طيلة تلك السنوات ما شجعني أن أضع بين القارئ العربي هذا الكتاب الذي هو عصارة أفكاري وما جادت به قريحتي طيلة تلك السنوات التي كنت فيها أمسك عصا الترحال وحاولت فيه أن أبدي البعد المهمل من حياة شعبي وتاريخ وطني وثقافة أجدادي وحضارة إسلامي وتعريف أمتي التي طوتها الحروب وأبتلعها التشريد.

وفي الختام أقدم شكري وامتناني لأولئك الشموع النيرة التي نورت دربي وأمدتني بالنصيحة والتشجيع وساعدتني على إخراج الكتاب بهذه الصورة، وأخص بالشكر أسرتي وأصدقائي الذين سهرا من أجلي.

من شرفات الذاكرة

جئت من أقصى بلاد الشِعر "الصومال" نحيف البنية أسمر الجبين، وبجذور ضاربة في أعماق الزمن وصفحات التاريخ، وأحلام ممتدة بامتداد المآسي في ربوع وطني المنهك بسبب تجار الحروب وسماسرة الدماء وغباء القادة، وبقايا آمال تحطمت على أعتاب البندقية والتشريد وقتامة الماضي الكئيب.

وصلت الخرطوم ليلاً، الأرض غارقة بموجات العتمة والظلام، والأنوار القرمزية تبعث نورا خافتا في كل مكان، والنيل يداعب المدينة برقة ورومانسية، هالتني المربعات المتجاورة والشوارع المضئية وأنا أحلق فوق سماء الخرطوم على متن الكينية للطيران، خرق أزيز الطائرة صمت الليل وسال شوقي للمدينة الحالمة على كتف ملتقى النيلين الأزرق والأبيض.

بعض ركاب الطائرة كان صوت المضيفة الصادح من المايكرفون "أهلا بكم في "الخرطوم السلام" قناديل مشعة من أوْبة منتظرة للديار، وبعض منا كان صوتا يأتي من عالم مجهول ينتظرنا، وفي صالة الوصول تظهر بساطة المطار وحشمة الفتيات، وفي مطار الخرطوم رأيت دفء الأخوة والوجوه النيرة والابتسامة العريضة لأهل الدار.

الأجواء في المطار الذي بني عقب الانتهاء من الحرب العالمية الثانية كانت ساخنة وملبدة بغيوم الغبار والذرات الترابية التي علمت لاحقا أنها بمثابة المطر في صيف الخرطوم الساخن، لأنها تبرد الأرض وتهب نسائم منعشة من سهوب النيل بعد انقشاع سحائبه، كنت جديدا في السودان أو بالأحرى الوطن العربي بأكمله غير دولتي العربية اسما والعجمية واقعا، وكشاب عشق لغة الضاد منذ سنى عمره الأولى كانت الحروف العربية المكتوبة على اللافتات وعلى جنبات المطار تجذبني وتدخلني بحرا من السرور وأنهارا من الابتسامات.

ركبت الطائرة المتوجهة إلى العاصمة المثلثة "الخرطوم" من مطار نيروبي (جومو كينياتا) الذي يعد تاسع مطار في أفريقيا من حيث الزحمة وحركة الركاب الذي افتتحه آخر حكام الكولونيالية الإنجليزية في كينيا اللورد كرومر في ضاحية أمبكاسي عام 1958م، كان الشوق يحدوني وغزت الابتسامة الواسعة على ملامحي وأنا في عتبة الكينية للطيران بعد تأخير كاد أن يغتال أحلامي ورحلتي المعرفية إلى السودان أو بلاد المليون كم[2].

في صالات المطار الكيني وأسواقه كنت غريبا وحيدا كسيرا يدخل البرد مسامات جسمه، ولا يعرف من لغة القوم إلا النزر القليل، وكل ما في حوزتي من لغتهم كلمات متباعدة بل متنافرة وغير متسقة لا تجعلني أقول بطلاقة ما يجيش في خاطري ومايدور من حولي من الرهبة والاستعباد والسرقة المقننة، وعندما أراد

ضابط مخابرات في دولة عشعش فيها الفساد ووصلت الرشوة إلى مستويات رهيبة وصنفت منظمات الشفافية ومحاربة الفساد من بين الدول الأكثر فسادا على مستوى العالم أن يأخذ الأموال التي كانت معي بالقوة والتهديد لم أجد سوى بعض الكلمات السواحلية المكسورة والممزوجة ببعض الكلمات الإنجليزية لتخرج من فمي غريبة ركيكة وغير مفهومة بالنسبة لضابط يريد أن يسرق الضحية بلمح البصر دون أن يراه الآخرون، أما في مطار الخرطوم فرغم اختلاف اللهجة السودانية عن الفصحى التي أجيدها إلا أنه كان بمثابة بيتي ووطني لسهولة التواصل والتفاهم.

وبعد انتهاء الإجراءات الروتينية عبرت ممرا ضيقا أفضى بي إلى باحة المطار، وفي طريقي إلى الخروج مررت بكشك الجرائد السودانية الصادرة صباح ذاك اليوم، فعرجت إليه لا إراديا يقودني الوَلَهُ نحو هذه الصحف، قرأتها بنهم وشوق شديدين، ومن الممكن ألا تعرف أيها القارئ ماذا تعني اللغة العربية لإنسان ينتمي إليها ثقافة وعقلا وفكرا وأدبا، ورغم ذلك لايجد جريدة أو صحيفة أو كتابا عربياً في وطنه إلا نادرا.

كانت جريدة "آخر لحظة" أول جريدة سودانية أتعرف عليها وأتصفحها، كان عنوان المانشيتات مكتوبا بخط أحمر عريض، مقالات أدبية، وتحليلات سياسية تنظر للمستقبل بعيون واعية. تأثيرات النشوة سرت في داخلي بطريقة ديناميكية سريعة.. إلهي ما هذا الشعور المتدفق في عروقي وشراييني! إنها الصلة المتينة بيني وبين هذه اللغة التي أحببتها منذ الصغر، رغم أنها انحصرت في زوايا المساجد وصهوة المنابر في المناسبات الخاصة كخطب الجمعة والأعياد في بلدي.

اللغة العربية في الصومال تواجه تحديات جمة وعقبات كثيرة قد تزيحها عن مكانها الطبيعي في الخارطة اللغوية الصومالية إذا استمر الوضع على ماهو عليه الآن من الضعف والوهن وعدم وجود جهة رسمية تهتم بها في ظل الدول والشعوب المتدفقة على الصومال لنشر لغتها وثقافتها أو أيديولجيتها ومذاهبها الدينية، ومن الممكن أن تفقد اللغة العربية موقعها المتميز ومكانها الرائد في نفوس الصوماليين الذي حفظوا اللغة العربية وحفظتهم طيلة وجود العنصر الصومالي في القرن الإفريقي، وكانت اللغة الأولى إلى جانب الصومالية دائما في التواصل والتخاطب وتوثيق العهود والعقود وصيانة التاريخ والتراث وبث روح الوطنية والحماسة في قلوب الشعب لكونها مخزونا دينيا وثقافيا حوت أدب المقاومة الصومالية ضد الاستعمار الأوروبي والأفريقي منذ أن استنجدت الحبشة ملوك البرتغال في القرن السادس عشر الميلادي، وما تبعها من التدفق الأوروبي المسيحي إلى السواحل الشرقية لأفريقيا الذي كان موطنا للصوماليين منذ آلاف السنين.

وبعد مجئ الاستعمار الأوروبي الرباعي (البرتغال، الإنجليز، إيطاليا، فرنسا) إلى الأراضي التاريخية للقومية الصومالية (الصومالي الكبير) بدأ بمحاربة اللغة العربية وحاول إبعادها عن السياسة والثقافة والتأثير والساحة الصومالية مدركا بأنها ترتبط بالمعتقدات والمقدسات وأنها الوقود الأساسي لهذا الشعب لكونها لغة القرآن والعقيدة، إضافة إلى أن الشعوب العربية كانت السند الحقيقي للصوماليين في نضالهم إلى استعادة المجد والكرامة، ولكن الشعب الصومالي الذي أصبحت اللغة العربية من مكوناته الثقافية والعرقية والتاريخية والدينية لم يقبل هذه المساعي الإمبريالية والغزو الثقافي المشين، بل حارب الاستعمار ودحر المحتل وحفظت اللغة العربية مكانتها الطبيعية مقرونة بالقرآن والإسلام الذي يحمل الصوماليون لواءه في القرن الأفريقي منذ أن تمازجت القوميات والأعراق والأديان في هذه البقعة الملتهبة بسبب الحروب الدينية والبحث عن السيادة، والتنافس الشرس بين الصوماليين ونصارى الحبشة على سيطرت المقدرات وزعامة المنطقة مما أدى إلى الحروب والصراعات بدءاً من المجاهد البطل أحمد جري (الغازي) مرورا بثورة الدروايش على قائدها الرحمة والمغفرة إلى الحرب الشاملة بين الصومال وإثيوبيا عام1964م و1977م بسبب سيطرة الأخيرة على إقليم أوغادين الصومالي الغني بالتراث والموارد الطبيعية والبشرية.

كانت كتابة اللغة الصومالية بالحرف اللاتيني ضربة موجعة بل مميتة في الحراك الثقافي العربي في الصومال، فقبل كتابة اللغة الصومالية كانت الصحف والمجلات ومعظم المنشورات تصدر باللغة العربية فيما كان الشعب الصومالي عربي اللسان والثقافة، ولكن بعد كتابة اللغة الصومالية بالحرف اللاتيني وابتعاد تيار العروبة عن الساحة الثقافية وانتصار الإرادة الغربية نسبيا بسبب العساكر الذين تأثروا بلغات الإمبريالية والشعارات السوفيتية اللينينية الفارغة وانشغال العرب بشؤنهم الداخلية بعيدا عن الدول والأمم المؤثرة بهم وبواقعهم سياسيا واقتصاديا كالصومال، إضافة إلى ترؤس كاتب بولندي في اللجان الرسمية لكتابة اللغة الصومالية الصومالية تغير كل شيء! وانجرفنا بعيدا عن اللغة العربية إلى اللغات المهيمنة كالإيطالية والإنجليزية والفرنسية وانحسر تأثيرها في دوائر ضيقة وهامشية.

وبعد انهيار الحكومة الصومالية المركزية انتعشت العربية من جديد وباتت لغة الدراسة والعلم والمعرفة في عموم البلاد طيلة عقدين من الزمن كانت الصومال غارقة بالحروب والصراعات فتصدرت سياسيا وإداريا واقتصاديا وتربعت على عرش اللغات كتابة وتأليفا. والآن وبعد هيمنة مجموعة من المغتربين ولدوا أو ترعروا أو عاشوا وشربوا الثقافة الغربية من مناهلها بعد الحروب الأهلية، إضافة إلى الضعف العربي العام وعدم اهتمامه بالأطراف بدأت موجة أخرى من إبعاد اللغة العربية في الدوائر

الرسمية فعليا وإن بقيت مظهريا وكثر التململ وتتعالى الأصوات المنادية بإلغاء اللغة العربية من مكانها الطبيعي دستوريا وإن كان صوتهم ضعيفا يخاف من ردة الفعل الشعبي.

ولكن الثقافة العربية ولغة القرآن التي ترسخت في الأذهان وامتزجت بالمبادئ والتوجهات والأعراف والوجدان الصومالي منذ أن وصل الإسلام إلى السواحل الصومالية قبل أن يصل إلى معظم الجزيرة العربية ستكون باقية بإذن الله، وكما كانت موجودة في الماضي بسبب العلماء والمفكرين وعبر الطرق الصوفية وأصحاب الزوايا والمدارس والمعاهد الدينية المنتشرة في كل ربوع الصومال ستكون موجودة بسبب كوكبة من ألمع مثقفي الصومال يحملون هم هذه اللغة وأصبحوا يتصدرون في كل المجالس والمراكز مما جعل اللغة العربية تتبوأ مكانة عالية في المجتمع الصومالي من جديد رغم حملات التشويه والازدراء بعد أن أصبحت العرب أضحوكة العالم بسبب مواقفهم وتناحرهم وصراعاتهم العبثية واستبدادهم وتخلفهم في شتى المجالات رغم أنهم يملكون كل مقومات الحضارة والزعامة والاقتصاد والتاريخ والتصدر في المجالس والمنظمات العالمية.

الخرطوم التي كانت مأهولة بالسكان منذ أن سكنت القبائل السودانية على ضفاف النيل وجزيرة توتي في القرن السادس عشر حسب بعض المصادر، مدينة تخبرك عن أحقاب وجودها، وتشي الأزقة بحكايات غابرة، وتوحي أجوائها بأمجاد الأجداد وبطولات الماضي المرصعة بالثورة المهدية والنقابات العمالية والحركات الإسلامية، وبساطة الإنسان السوداني المتصارع مع أعباء الحياة، وفي كل الشوارع والمسارح تواجهك الأغاني الإفريقية والعربية المشحونة بالألحان والجمال.

قضيت تلك الليلة ساهرا أشاهد عبر شرفات الماضي صورا بانورامية لأزمنة مضت وأناسا غيبهم سراب الأفق، وأتعرض لأصوات تخترق أجواء الليل، في الوهلة الأولى كنت أعتقد أنها تأثيرات الطائرة وصخبها، ولكني أدركت أخيرا أنها أصوات غير تقليدية للمشاعر، وكلما حاولت الخلود إلى الكرى أجدني أتبحر في صفحة الأحلام العازفة على مزامير النوى.

عطبرة.. بلد الحديد والنار

على وقع الرحيل نحو الشمال والولاية المجاورة للخرطوم (نهر النيل) تجولت في أرجاء المدينة، الخرطوم تاريخ حافل بالأنفة والإباء منذ أن جعل الحاكم التركي المصري ألاي عثمان عاصمة للسودان عام1924م تقريبا.متاحف تاريخية حفظت الماضي بكل ألوانه وصنوفه، وذاكرة حية للمكتبات العامة، والزوايا الدينية، والمقاهي الأدبية، والحراك الشعبي، والمنظمات المدنية، والجامعات العريقة، لم أندهش من تقارب السحنة والملامح بين الشعب السوداني والشعب الصومالي، ولكن ما أدهشني حقا هو الفسيفساء الجميلة للشعب السوداني،ومع هذا الاختلاف العرقي واللوني والديني يعيش هذا الشعب بتسامح وتعايش سلمي كبير.

وبعد يومين وليلة مكثتها في الخرطوم ذهبت الى الشمال السوداني عبر طريق التحدي الذي يربط الخرطوم بالمناطق الشمالية السودانية وبنته شركة "الهجرة للإنشاءات والطرق" التابعة لشركات وأملاك زعيم تنظيم القاعدة السابق أسامة بن لادن رحمه الله الذي قدم إلى السودان عام 1994م، وفي هذا الطريق الذي أطلق عليه شعبيا شارع الموت لكثرة حوادثه وإصاباته سماه الرئيس السوداني المشير عمر حسن البشير"بشارع التحدي" تحديا للدول والهئيات الأممية التي أحجمت عن المساعدة من أجل رصف الطريق وربط الخرطوم بدار الجعل والمناطق الشمالية ومنها إلى الشرق نحو بورتسودان والميناء السوداني الوحيد سواكن إلا أن جاءت هذه الشركة العربية في منتصف التسعينات فنفذت المهمة الصعبة.

قطار عتيق يجر عربات ممتدة نحو الأفق، وقرى متناثرة حول الواحات والجزر، وخضرة على جنبات النيل، وصحراء قاحلة، وهضاب رملية على مد البصر، ووجوه تختزل الحياة في أكبر قطر إفريقي قبل أن يصل إليه التبعثر الجغرافي وينقسم إلى شطرين يتقاسمان الحروب والصراعات والوجدان والتاريخ.

في البداية وفي عطبرة (دار جعل) أو بلد الحديد والنار كانت الحياة تشبه مصيدة للعابرين في مدينة مليئة بأخبار الأيام وتقلبات السنين وأرشيف الذكريات، وممن تركوا بصماتهم على جبين تلك المدينة الناعسة على حضن النيل. اشتهرت المدينة بنهريها العملاقين (نهر عطبرة ونهر النيل) والسكك الحديدية، وكونها مقرا للأحزاب المناهضة للاستعمار والوجود الإمبريالي، كما كانت مهدا للحركات النقابية السودانية منذ أن دخلت منظمات المجتمع المدني في حياة السودانيين.

جولة متأنية على أرجاء مدينة عطبرة تُظهر مصانع مهترئة تركها الاستعمار وتوقف نبضها بعد رحيله، وبنايات عتيقة من الطراز القديم، ومآذن تصدح عندالصلوات بصوت التوحيد والإيمان، وأسواق مكتظة بالباعة والبسطاء، وقطارات وبقايا عمارات أثرية قائمة في وسط الصحراء والإهمال، قيل لنا هي ما تبقي من العهد القديم، والعهد القديم ضوء لا متناه يأتي من عالم الخيال عند السوداني المترع بنشوة التاريخ ورونق الجغرافيا، وأشجار التمر الباسقات على ضفاف النيل، ومدارس متنوعة تلقم الصبيان دروسا كلاسيكية، وجامعات عريقة أخرجت نبلاء وقادة، ونيلا يفيض خيرا وجمالا في كل المواسم.

وقفت في وجه المدينة وحيدا لا أحمل سوى هم العلم وهيام التحصيل، وأنا لم أتعود سوى التغني بأشعار الرعاة وأخبار السيول والجفاف، والمؤتمرات العبثية بين الفرقاء الصوماليين، والأسلحة وأنواعها، ولم أكن أعرف خبايا الترحال وصنوف التنقل، فأصبحت المدينة بالنسبة لي شبحا يبتلع الأشخاص بنهم شديد، وغولا يبعد النوم عن الجفون.

تتابعت الأيام على وقع أناشيد الوحدة الموحشة، وزحفت الشهور خلف روابي المعاناة، فأصبحت الحياة من حولى مظلمة وقاتمة، وكان أنيسي الوحيد الأشواق الشجية إلى مرفأ الذاكرة، وزرائب الأماني الغاربة نحو مرسالها، ولم تخلو الحياة من غيمة خفية لمسرات مشوبة بتيارات الحنين في الأمسيات المغبرة في عطبرة.

في هذه الفترة المترعة بالنوستالجيا لازمت المسجد الجامع والتنقل في أحياء المدينة أراقب الحياة عن كثب وأتعرف على الملامح وأنماط الحياة، كان الوجود المصري في المدينة واضحا حيث يقابلك المصريون في كل مكان وربما الحدود المفتوحة وقرب الجغرافيا ساهمت هذا التداخل الكبير.

على غير المعهود كنت أتأمل على خيوط الأفق، وأستمتع بالأجواء المبللة بالضحكات وأمسيات السمر، وشاى العشيات وقهوة الصباح، وكانت أغاني الليل والأصوات الرخيمة موجة من الشجن في فلق الصباح.

العودة إلى الخرطوم

في عطبرة تعبت وتحملت البرد القارس الذي من أجله أصابني الرعاف وتشققات في الشفاه وألم في الأطراف، كما تحملت الغبار الذي يتصاعد إلى الأعلى بكميات كبيرة لينزل كالمطر على البيوت وليفرش الأرض ترابا وغبارا يشوه منظر المدينة ويقطع التيار الكهربائي ويعرقل حركة السير والملاحة الجوية، ولم يدم شجو الاغتراب طويلا، بل بدأت الغربة تبتسم وتغني لي أعذب الكلمات وأجمل الألحان، وتحولت الأيام بالنسبة لي فرحا وضحكا عندما عدت إلى الخرطوم ومركز القوة والسلطة والنفوذ ومنارة الثقافة السودانية، والخرطوم هي الرئة التي يتنفس بها السودان وقلبها النابض، كما هي الحاضنة الرسمية للمبدعين الذين عمّ ذكرهم المشرقين وتناقلت أخبارهم السمار، مبدعين في الأدب والكتابة والعلم والدين والحكمة.

كيف لا وهي التي انتجت القامات الأدبية أمثال الراحل المقيم محمد الفيتوري، وأستاذ اللغة والفصاحة عبدالله الطيب، وأمير البيان الطيب صالح الذي وضع الثقافة السودانية موضع الإعجاب والتقدير، وأجبر الناس عبر حروفه المشعة أدبا وسلاسة على معرفة الأريارف والمدن وقرى السودان، ورائعته الشهيرة (موسم الهجرة إلى الشمال) تكفي للسودان فخرا وتشارك بها المحافل الدولية والمراكز الأدبية العالمية، وبركة ساكن الذي دأب التغريد على خارج سرب السلطة والأعراف الشرقية بحس مرهف وأدب جزيل يكشف المستور، والأديب الدبلوماسي جمال محمد أحمد صاحب الكتاب الشائق: (سالي فوحمر وحكايات أخرى من أفريقيا) هذا الكتاب الذي يعد من عيون كتب أدب الحكايات الأفريقية المكتوبة باللغة العربية.

في الخرطوم عشت وكأنني سوداني ومارست ألوان الحياة وفصول الحكاوى، ولم أشعر أو أحس بالغربة إلا نادرا، ولو لم تكن الغربة أن تعيش على شرفات الحنين وذكريات الماضي والبقايا الحاضرة على عناق السمراوات، لم أكن لأطلق على تلك السنوات سنوات الغربة والترحال، لأني لا أتذكر موقفا كشرت فيه الغربة لي عن أنيابها.

في وحشة الشجن ورحلة المعرفة كانت الوجوه التي تشبه القصائد وتخمة الصباح أنيسي وملجئي، وكنت أتأمل غروب ضفائر الشمس المرتحلة صوب النيل وفي سهوب الخلاء، وكانت ترانيم العبّاد في ظلمة الفجر، والنيل الذي يكسو على الملامح العربية الممزوجة بالدم الإفريقي النابض في قُطْر تلتقي فوق

جسره الجغرافي الحضارات العربية الإسلامية بالحضارة الإفريقية التي أثَّرت وتأثَّرت بالحضارات القديمة تترك في نفسي ومضات من الطمأنينة.

عشت في الخرطوم حياة ثقافية باذخة المعاني، خيوط حكاياتها مازالت في ظلال ذاكرتي المعلقة بسحر الأمكنة ومسارح الجمال، كان الليل مقدسا بالنسبة لي أو بالأحرى كان خليلي في الحل والترحال، ففيه يتضوع الهواء بأريج العشق وعبق الصبا، وعلى ضوء قمره كنت أناجي السهر وأبعث أشواقي إلى أحبة لم أصادفهم في دروب العمر وتفرقت بنا سبل الحياة، وأنا أتقلب في غرف الغربة التي رمت بى في الممرات البعيدة للحياة، وفي عتمته كنت أبث أفكاري وأنشر قصصي، وشكّل صرير القلم وحفيف الأوراق متعة تتصل بالوجدان، حتى أصبحا نديميّ في سكناتي وهمساتي ومن أقرب الأصدقاء في رحلة الأمل والألم، وكانت الإشارة التي تاتي من المدن الصومالية المطلة على المحيط الهندي تجعل ساعات الليل شبه أسطورية خالدة في وجداني.

الجامعة .. والنقاش الطّلابي العقيم

في النهار كنت أذوب في الفصول الدراسية والأجواء الطلابية المتوترة للغاية، في تلك الفترة كان الطلاب الصوماليون بالسودان يصنعون من الحبة قبّة، ويضخمون الأمور الصغيرة ويدافعون عن جهويتهم وكانتوناتهم الصغيرة باستماتة عجيبة، التجمعات الطلابية تحولت إلى أوكار للقبلية وتحزبات ضيقة غير منفتحة على محيطها الصومالي ناهيك عن الكيانات الطلابية الأخرى، وكانت الردهات والنقاشات المغلقة والمفتوحة تشهد حوارا حادا واستقطابا كبيرا بين الكيانات الجهوية في معظمها، وفي أغلب الأحوال كانت النقاشات تتحول إلى تشابك بالأيدي وصراعا بدنيا عنيفا وبذآءة لفظية!.

في تلك الحقبة كانت معظم النقاشات تدور حول النظام الفيدرالي الذي تبنته الحكومة الصومالية منذ عام2004م في المؤتمر الذي عقد في منتجع إمبكاسي في نيروبي كينيا، وكان الطلاب منقسمين إلى فسطاطين، فسطاط يتبنى ويدافع بكل ما أوتي من قوة عن النظام الفيدرالي بعجره وبجره وينادي إلى تطبيقه وفرضه على الجميع لأنه الحل الوحيد الذي بإمكانه أن يرجع الصومال إلى سابق عهدها، وفسطاط آخر يري النظام الفيدرالي تجزئة للمجزأ وبداية لدويلات الطوائف وتقسيم الصومال وتسليمها إلى الدول المجاورة ذات الأطماع التوسعية والأجندات الاستعمارية.

وبين مدّ المؤيدين وجزر الرافضين كانت الآراء تدور حول ماهية الفيدرالية وكيفية تطبيقها في ظل ظروف أمنية صعبة للغاية، وأحوال معيشية متردية جدا، إضافة إلى الجهل المحيط بالعملية السياسية وعدم وضوح الرؤية الفيدرالية وماهيتها لدى الشعب الصومالي، ولم تكن النقاشات والحوار والآراء الفكرية تنتهي إلى نقطة معينة، بل كانت تتمدد وتتشعب ويتواصل صخبها ساعات وساعات قبل أن تنتهي إلى لا شيء، وربما لاتنتهي إلّا في خضم استفهامات ومساجلات فكرية وأيديولوجية ووطنية اخرى أكثر تعقيدا وتشعبا. كان وجها آخراً من الوجوه الصومالية المأزومة في داخل وطن أصبح مشاعا بعد أن تعمق في أوحال الحروب وقادة إبتلاهم الله بقصر التفكير والهمّة، همهم جمع المال والتشبث في الكراسي والمناصب والمنافع.

ومنذ أن تركت السودان وفارقت تلك الديار مابرحت الأشواق تعبث بي وترسلني إلى حياة موغلة في البساطة والتعليم، عندما كنت في الصباح الباكر أجهز نفسي وأغدو إلى محاضرات الجامعة أو إلى ندوة علمية مع القامات السودانية، أو إلى مهرجان ثقافي يضم معظم الثقافات والعادات الإفريقية المزدانة

بأغاني أفريقيا وطبولها، أو إلى سهرة أدبية في المقاهي والصالونات مع كوكبة تفتحت مداركهم في حقول الأدب والقافية.

موقف مؤثر

الإنسان عواطف ومشاعر وأحاسيس، وفي كنهه الإنساني خلق الشوق، والأنس، والبكاء، والضحك وجميع ثنائيات الحياة ومن طبيعة البشرية الحنين إلى الرفيق أو الحبيب أو الصديق، وخاصة إذا رجع إلى دفء الوطن بعدما ابتلعته الغربة ولازم عصى الترحال ردحا من الزمن.

وتظهر العاطفة الجياشة على سجية بعض البشر فيما تختفي تلك العاطفة عند بعض الشعوب، ومن المجتمعات التي تظهر فيها تلك العاطفة الإنسانية التي لا يستطيع المرء إخفاءها المجتمع السوداني. قبل أن أتعرف على الشعب السوداني عن كثب، كنت أتعجب لبعض المواقف والمشاهد، لما أجد فيها من الاختلاف والغرابة، ولكن بعدما عشت معهم سنوات وتعرفت على نمط حياتهم وسلوكهم وجدت أنهم شعب راقي، سهل الطباع، كريم السجايا، وذات أسلوب حياتي مفعم بالحب والمشاعر الدافئة. ومن المشاهد اللافتة للنظر لصومالي مثلي عاش في مجتمع يغلب عليه الطابع البدوي الخشن والحياة الرسمية التي لاتعرف المجاملات ولا ترى الدموع إلا عند موت عزيز وفقدان حبيب "مشهد البكاء عند الوداع والاستقبال".

كنت في مطار الخرطوم الدولي وفي انتظار شخصية مهمة قادمة، كل شئ هنا أنيق ورائع، هدوء مطبق يتخلله صوت الاستعلامات ودبدبة وهمسات المنتظرين وبعض الضحكات ورنات الهواتف. تهوئة جيدة للصالة يزدانها فتيات في عمر الزهور جدائلهن متدليات على جيدهن ينتظرن الحبيب القادم مع أسرهن. دقة في التنظيم ولكن قد يؤثر في مزاجك ويصيب الغريب في مقتل عويل الباكين ونحيبهم الذي يوجع نياط القلوب، وارتفاع موجات البكاء الجماعية بعض المرات الذي يحول الصالة إلى مهرجان للبكاء وكأنها خيمة مأتم لا قاعة انتظار.

فالقادم يبكي بحرقة ويذرف الدموع، والمستقبل ينتحب بمرارة ويبكي!، ويصير المنظر تراجيديا حزينا حينما يكون القادم والمستقبل من الجنس الناعم يتقابلن بحضن يعطل الحركات قد يرجعهن إلي الزمن الغابر والأيام الخوالي في زمن الطفولة والمراهقة وثرثرتها، وقد يتطلب الموقف دخول الشرطة لفضهن وفتح الطريق للمارة!

قارنت هذا الموقف الإنساني الرائع بعادتنا الصومالية الخشنة، وثقافتنا البدوية التي نادرا ما يظهر المرء مشاعره الإنسانية في المحافل، ولاتقابل المرأة زوجها بوجه طلق ناهيك عن الأحضان أو الزغاريد، بل تتوارى خلف الأشخاص وفي عقر البيوت وكأن الشوق وحرارة الاستقبال جرمان عظيمان.

ولكن من الأقرب إلى الصواب هم أم نحن؟ ونظريتنا الجافة التي قد يكون مثل هذه الأفعال مضحكا وملهاويا أوتصنعا ساذجا قد تصل الشخص إلى إتهام بضعف الشحصية وميوعة الطبع؟

ستات الشاي

رغم كل الأشياء المذكورة تبقى جلسات الأرصفة ورشفة القهوة أجمل شئ أتذكره وأشتاق إليه، كيف لي أن أنسى ستات الشاي اللاتي كن يجلسن أمام جامعة أفريقيا، أو تقاطع الصحافة شرق، أو لفة جوبا (التسامح)، أو حتى لفة صنقعت في الكلاكلات، بريق فوانيس بائعات الشاي ورائحة القهوة الزكية تركت في مخيلتي بصمات واضحة من الحب، ولا غرو فقديما قيل: القهوة عجوز معمرة لها أحفاد بررة، وأنا حفيد بار من تلك السلالة التي تبدأ طقوس حياتها بفنجان قهوة يدخل الحيوية في الجسم.

حبي للقهوة ومجالسها فاق كل التصورات، كم جلست فوق مقاعدها المتكئة على تراث وطن جميل بشعبه وماضيه، وكم تحدثت فوق مقاعدها الشعبية مع رفقاء الدراسة وأصدقاء الغربة والمنافي على وقع اللهجة السودانية المحببة والأغاني الكلاسيكية.

هنا ألحان موسيقى لعلها إثيوبية أو إرترية لا أدري ولكن راقتني النغمة المشرقية المميزة وأعجبني الأداء والحبال الصوتية المتألقة! وهناك مجموعة من الشباب العاطل يتقاسمون أطراف الحديث وحكايات البطالة، همس وضحكة، صيحة وصمت، نظرات غير برئية للعابرات على الرصيف الآخر للطريق، وهناك وتحت شجرة وارفة الظلال فئة توغلت في القهقهة المسائية الجميلة في حين تدور الأكواب والطرائف بينهم ، وفي الجانب الأيمن من الشجرة الوارفة شلة من الأصدقاء يتحدثون عن الساحرة المستديرة، يحللون المباريات وكأنهم عباقرتها يتيهون في دروبها ويتخاصمون حول هوسهم باللعبة الأكثر شعبية في العالم وحب المستطيل الأخضر.

وهناك وفي الزاوية البعيدة أربعيني طويل كث الشوارب متقلب المزاج يدخن كثيرا ويصمت طويلا ويقرأ الجرائد ويتصفح بنهم وتناغم شديدين، يمعن النظرفي الصحف ويتنهد فيقول: عليّ الطلاق الحدث دا بق ماسورة عديل! شف عليك الله المجهر كاتب شنو؟ وبرضو حكاية السوداني ما نافع كلو كلو، والإنتباهة ماسورة وجوطة ساي!، وأمامه مباشرة شاب أتعبه الحب وأرغمه على دخول حياة مترعة الشحوب، تقاسيم وجهه المشرق تنسيك أعباء الحياة ومشاكل الغلاء والتضخم، يلهي نفسه بحل ألغاز الصحف وتوصيل الكلمات المتقطعة وفك شفرات الرموز أو بالأحرى شفرات الحياة الصعبة وفهم ألغاز العشق ومتاهاته القاتلة.

جو منعش بديع وجبنة تصفى المزاج أو زي ما بيقولو (من الفم للرأس)، من يتذكر ماسورة صاحبة الشاي المميز، لَكْنة جلية وسمرة مشوبة بلون إفريقي خلاب.

حفظ الله الطيبين أينما حلوا.

الخرطوم عروس النيلين

الخرطوم العاصمة المثلثة والذاكرة الحية لحضارة مروي والحضن الدافئ للثقافات الأفريقية والعربية المتعاقبة والممتدة ما بين النهر والصحراء تستقبلك ليلا بابتسامة قلّما تجدها في المدن الأفريقية والعربية القابعة في ذكريات الجراحة والألم منذ السنين. على ضفاف النيل وفي وسط الروابي تضعك المدينة وجها لوجه أمام احد أكثر الشعوب كرما وتواضعا مع الأنفة، ومضة صوفية عميقة تنبعث وراء محاجر العيون وسمرة تنزل تدريجيا عبر الجغرافيا حتى خلت أنهم ألوان زاهية في لوحة القارة السمراء مستودع الشعوب ومخزن الحكايات والميثولوجيا التي تجسدالأحداث والفنون والألغاز.

الإطلالة الرومانسية للنيل المبهر بتاريخه وحضوره القوي في الأدب والشعر والفكر والسياسة، ورائحة المكان وعبق التاريخ لها مدلول عميق في قطر نشأت فيه حضارة عالمية عريقة إبداعا وتاريخا وإن لم تجد رواجا ودراسة يليق بعظمتها وتراثها وثرائها الإنساني العميق، كنت قابضا على أحلامي عندما غادرت مدينة نائمة تحت الأمواج في جناح أفريقيا الشرقي حيث العطور والبخور والمحيطات إلى مدينة ظلت مركزا للعلم والمسارح الأدبية والثقافية واللاءات الثلاث، وعاصمة لأكبر وطن أفريقي من حيث المساحة قبل أن يناله التشظي الجغرافي حين سقطت القارة البكر ضحية للإرهاب الأورروبي سابقا والأمريكي لاحقا.

المدينة الحاضنة أكثر من خمسة ملايين نسمة تتربع على مساحة تقدر بـ 22.732 كلم مربع، وأسّست عام1691م تقريبا، وأصبحت عاصمة السودان عام1830م، واختلف الناس في أصل اسمها ما بين من يدّعي أن الاسم مستمد من شكل الأرض والبقعة التي تقع الخرطومُ فوقها والتي تشبه خرطوم الفيل، وما بين من ذهب إلى أن أصلها جاء من شجرة البرقم التي كانت تزرع في المدينة وبكثرة في الحقبة القديمة.

التفاصيل الدقيقة للمدينة تصنع الفارق، في الخريف تعذبك الخرطوم بجمالها ونسماتها، وتسهرك بوقع الحفلات وليالى السمر في وسط الحدائق، وتحيطك الفخامة في الليالي، وتلفحك الشمس في النهار ويخجلك الكرم في كل حين، وتغتالك الحاتمية في الأزقات والطرق وتأسرك البسمة على وجوه الراضية رغم صعوبة الحياة، وتختطفك الغربة ويتحرش بك المنفى ويدغدغ مشاعرك الجياشة؛ فتناجي الدجى وتخاطب الأطياف المتجهة نحو الشرق البعيد... نحو مسارح الإبل وميادين القوافي.

لاشيء يشبه جمالية الخرطوم وتفاصيلها الصغيرة التي تصنع الفارق والتي تضيف إلى ملاحة الخرطوم نكهة خاصة، فشعبها مضياف إلى أبعد الحدود، وودود بشكل يفوق الخيال، ومتواضع يقبلك بصدر مفتوح ويدبر بدفء واضح، ومهووس بالكرة ويتنفس التعليم كما هو عاشق للفن والحياة، ومتيّم

بالسياسة وتلوناتها، ويعرف جيّدا دهاليزها ويقرأ مطباتها ومآلاتها، وهذا مما أعطى الإنسان السوداني حسا سياسيا وعمرا افتراضيا أطول لحكومة الإنقاذ التي يرى الشعب أن الشيخوخة دبّت في أوصالها، ورغم ذلك يتغاضى عنها لعدم جاهزية البديل المناسب وضعف الأحزاب السياسية وقلة قواعده البشرية مقارنة مع الحزب الحاكم المؤتمر الوطني.

تشتهر المدينة بكثرة منائرها الثقافية والدينية، وكثرة المسارح ومراكز الإشعاع الأدبي والفكري، وبزحمتها المعرفية والصحافية، حتى أصبحت من أهم المدن التي تفتخر بها القارة السمراء، والجسر الذي فوقه تلتقي الثقافات وتتلاحم العادات وتمتزج الأعراق والأعراف المختلفة، كما أنها تعج بمتناقضات ثقافية وأدبية ومعيشية وفكرية وحتى دينية.

وهذا ماجعل الخرطوم سرّة المدن السودانية ثقافة وجمالا، وجعل الشعر والأدب والفنون ومجالس السياسة عنوانها الأبرز، وصناعة الصحف رائجة، حيث وصلت عدد الصحف التي تصدر من الخرطوم يوميا عام2012م 59صحيفة منها 38صحيفة سياسية و17 اجتماعية و11رياضية حسب المجلس القومي للصحافة والمطبوعات.

مساجد تضاهي عدد المباني

تتميز الخرطوم بكونها منارة للدين الإسلامي ومركزا يرسل إشعاع الإيمان إلى بقية القارة، وهي قبلة لطلاب العلم الذي يأتون من كل فج عميق من أدغال القارة السمراء وأحراش آسيا، ومن صقيع أوروباوغابات اللاتين؛ لذا الأجواء الروحانية حاضرة في كل الميادين، ولاغرو فالشعب السوداني المتدين بطبعه والمتصوف بأصله دائما ما كان يجتهد في تقوية الصلة بينه وبين الله؛ وبالتالي بات التدين السمة الرئيسة للشعب.

منائر المساجد تصدح بالتوحيد وتجلجل جنبات المدينة بوحدانية الله جل وعلا، وتبث موجات من الإيمان الذي يسري في القلوب والوجدان، وتأثيراته الكبيرة لا تخطؤه العين، وله وقع خاص في مدينة تضاهي مساجدها عدد المباني! والمآذن تسابق أعمدة الكهرباء كثرة وشموخا، هنا فالمساجد رابضة بعظمة، وتتنوع المساجد بكثرة تنوع النسيج السوداني الجميل، وتعدد أعراقه وإثنياته التي تفاعلت وامتزجت وتصاهرت وأخرجت هذه النخبة، وهذا الشعب الطيب.

تتغير الاتجاهات والأمزجة حسب الفكر والانتماء والحركية، فأقدم المساجد شاهد في السودان على الإرث التاريخي والحضاري للطرق الصوفية والمشائخ الذين تأثروا بسبب الاحتكاك والتدافع الثقافي للطقوسات القديمة للقارة، ومزجوا الأوراد الدينية بالفلكور الشعبي والعادات الخالدة للقبائل الأصلية، مما كوّن لوحة بديعة ومتناغمة رغم انحرافاتها عن الجادة الصحيحة عقديا في بعض المرات، وميزتهم البساطة والنقاء الروحي وجمالية الأوراد الدينية.

وبعض المساجد يتنعم بجناب الحركة الإسلامية الواجهة الدعوية والامتداد الطبيعي للإخوان المسلمين في السودان، وحقيقة تتجلى عبقرية هذه الحركة بفكرتها وأطروحاتها الدعوية والاجتماعية والدينية ونظرتها الشاملة للأشياء ودهائها السياسي، وهذا ما جعلهم يمثلون الحلقة الأهم وهمزة الوصل بين الحركات الإسلامية المختلفة. ولا تخلو المدينة من المساجد المؤثرة للتيارات السلفية بكثرة تعددها وأقسامها المختلفة، وما يميز هذه المساجد هو العقيدة الصحيحة والتوحيد الأصيل الذي لم تشبه الشوائب ولم يتأثر بالاحتكاك الطبيعي للمعتقدات الوافدة أو الناتجة من الحضارة الأصلية في المنطقة والالتزام الديني الواضح في أفراده ورواده، وتشعر بنقاء القلب وصفاء السريرة وعذوبة الدين في اللحظات التي تجلس بين أيديهم وتتقرب إلى الله في مساجدهم.

ومن أهم المساجد في المدينة مجمع النور الإسلامي في الخرطوم الذي يشبه المساجد التاريخية في العواصم الإسلامية العريقة، ولا يستمد التميز في الزخم الإعلامي والعناية التي يتمتع بها المسجد فحسب، بل يستمد كونه بيتا من بيوت الله وتحفة معمارية، والمسجد يقع على بعد أمتار قليلة من ضفة النيل في ضاحية البحري إحدى المدن التي تتكون منها العاصمة المثلثة.

هندسة المسجد مستوحاة من التراث الإسلامي العريق، والطراز العثماني ذي اللمسات الجمالية، وخاصة مسجد أيا صوفيا في الإسطنبول، وحقيقة مجمع النور جمع عظمة الأصالة مع جمالية الحداثة، وتشعر لحظة دخولك المسجد بروحانية رهيبة وخشوع قوي، وكل شيء في المسجد له معنى ومدلول!، ووضع في مكانه بأناقة متناهية وتناسق عجيب، سواء كان الرخام المزركش بصبغة ذهبية منقوشة فيها آيات من الذكر الحكيم، أو أركان المسجد وشرفاته الخارجية أو المنارات الشامخة.

ولا أنسى روعة المربعات، ونضارة الكتابة التي تجسد فيها أسماء الله الحسنى، والمجسمات التي تدل على تاريخ الإسلام وعباقرة المسلمين، ويتمتع المسجد ببنية تحتية فاخرة ومتقدمة نظرا للسودان، ومرافق حيوية وأسواق تابعة له وبنوك ومحلات تجارية مهمة تجعل بيئة المسجد متكاملة دينيا ودنيويا.

وليست المساجد وحدها ما تشكل معالم المدينة، فالمدينة تعجّ بمئآت المواقع التاريخية، والمناطق الأثرية، والمراكز البحثية، والكليات التعليمية، والمعاهد الدراسية، والجامعات العريقة، التي تشعرك مدى حب هذا الشعب للعلم وشغفه به، والسوداني يموت من أجل تعليم أولاده وتثقيفهم، وهذا مما جعل معدلات التعليم عالية هنا مقارنة بالدول الإفريقية والعربية في المنطقة.

الفنُّ رئة الخرطوم

الخرطوم مدينة الشعر والمسارح والأمسيات الثقافية وليالي الأدب، وتُعدّ الخرطوم أم الفنون والقابلة الرسمية لعمالقة الفنّ والموسيقى في القارَّة السمراء والعالم العربي أمثال محمد وردي وسيد خليفة ومصطفي سيد أحمد، ومازالت الموسيقى السودانية الشجية تتصدر موسيقى القارة، وأهازيجها ترسل الجموع إلى التجليات الروحية والحنين المتناثر عبر القوافي والألحان .ومن الطبيعي جدًّا أن تكون مدينة ولد الفنّ فيها واحتضنت أساطير المسرح وبزغ فيها نجم عمالقة الكتابة والأدب منارة للفن وللحب، ومدينة تتوسد الأغاني والأوتار، وتنام على وقع الأناشيد وتصحو على شذى الأنغام.

جنون الساحرة المستديرة

تعلمت أشياء كثيرة في الخرطوم، وعشت مع سكانها جنبا إلى جنب، وسبرت غور أهلها، وبالتأكيد اختلاط الشعب السوداني ومعرفة مكنوناته النفسية، وتركيبته العرقية، وميله الوجداني، وتأثيراته البئيية والمكانية والزمانية، وما يشكل رأيه العام، ووطنيته الصادقة في جميع تياراته من أقصي اليمين إلى أبعد اليسار مرورا بكلّ الشرائح وألوان الطيف التي يتكون منها الشعب السوداني الجميل، وجذوة الوطنية التي لا تخبو رغم زوابع الحروب وشبح الحياة الصعبة هو الأهم على الإطلاق.

أدركتُ أن الشعب السوداني عامة "وناس العاصمة" على لسان أهلنا في السودان خاصة يعشق الكرة حتى النخاع ويجرى في عروقه حب الساحرة المستديرة، وقد يصلح أفراده محلّلين للكرة في الاستوديوهات العالمية لما يملكون من نظرة كروية عميقة وتحليل فني عجيب وحس كروي مرهف، وتوقعات جيدة للمبارات والكرة عموما.

وهذا ما جعل الشيخ والكهل والصغير تغضبهم الكرة ويفرحهم الجلد المنفوخ!،ويكون التشنّج واضحا وتنتفخ الأوداج، وعند لحظات الهزيمة وخاصة الهزآئم القارية وفي المباريات الكبيرة خاصة ديربي الغضب بين الهلال (سيد البلد أو الموج الأزرق) والمريخ (الزعيم أو الأحمر الوهاج) قد تذهب حمرة الخجل والهدوء المطبوع على الشعب السوداني.

ولكن يعيبهم كثرة التنظير وقلة التطبيق كجوارهم الإفريقي الكسول ومحيطهم العربي التائه، وعدم التنفيذ وتحويل النظريات الجميلة إلى تطبيق وواقع عملي معاش، والفرد السوداني يستميت في الدفاع عن فريقه، وتدرك تغلغل الكرة في أعماقهم حين تقرأ شعار مثل نادي الهلال. من أكثر الفرق جمهورا وحضورا في الساحة السودانية. (الله، الوطن، الهلال) ولا شيء يفصل بين الوطن وعشق الجمهور إلى ناديهم المفضل سوى الضمير ومن يقدمه في الترتيب أو يصل سريعا إلى عمق قلوبهم النابضة بالكرة بدل الدم.

والجمهور السوداني كرويا منقسم إلى نصفين في معظم الأحوال، سواء كانوا في المنفى أو في المدن أو الريف السوداني، من شرب كأس الأزرق، ومن مازال حب الأحمر نبض قلبه!، وعندما تجتاح عدوى الكرة العاصمة القومية تدرك ماهية الكرة ومعناها الحقيقي والنّدية المطلقة بأسمى معانيها!، وعندما تتوشح

نصف المدينة ردائها الفاقع ويرتدي النصف الآخر الأزرق الصافي في عرسها الكروي، فلا صوت يعلو صوت الجمهور الهادر والمشاعر الملتهبة والحماسة الطاغية، وركض اللاعبين داخل المستطيل الأخضر.

ومن لم يشارك درب الأمدرماني العظيم لم يشهد متعة الكرة ووفاء الجماهير التي لا تهدأ إلا بعد انتهاء المباراة وإطلاق الحكم الصافرة النهائية، واللاعبين الذين يقدمون آخر قطرة من عرق جسمهم عشقا للشعار ووفاء للنادي، وتقديرا للجماهير المبحوحة بكثرة الهتافات وألمّ التصفيق أكفّهم، والتشجيع المتواصل في طيلة اللقاء أنهك قوتهم.

عدوى الديربي حين تجتاح المدينة تولد حماسة كروية منقطعة النظير؛ حيث الأعلام الزرقاء والحمراء ترفرف فوق المباني والأسطح، وتتدلى الشعارات فوق العمارات والمباني، وتتزين السيارات بألوان الديربي، وتحول المدينة تحفة رياضية مزدانة بجمال الانتماء الرياضي وروعة التشجيع المهذب والصاخب أحيانا، وكأنها مدينة الضباب وعاصمة الصقيع مهد الكرة (لندن)، لا الخرطوم الشامخة على ضفاف النيل بنبل.

تمتاز مبارة القمة بين الهلال والمريخ بندّية عجيبة ووجبة كروية دسمة، ورتم عالي ومهارات وفنون كروية بديعة، تجعل الساحرة المستديرة المتنفس الوحيد لمن أثقلت كاهله صعوبة الحياة وغلاء الأسعار وتقلب السنين، والهلال والمريخ لمن لا يعرف هما قطبا الكرة السودانية والكلاسيكو الأشهر في الشرق وشمال أفريقيا بعد الأهلي المصري والزمالك، وهما أكثر الفرق السودانية تتويجا بالبطولات المحلية والألقاب القارية بأفضلية طفيفية للهلال.

جمالية الجمهور لا تقل أهمية من طراوة المبارة ونثر السحر الكروي فوق العشب الأخضر، المدرجات لا تهدأ طوال النزال، والزغاريد الجماعية تتشابك مع الهتافات لتكون أروع موسيقى في الكون!، والأهازيج الشعرية تمتزج مع قرع الطبول والرقصات الشعبية الإفريقية الصاخبة، فتزلزل الأستاد (الملعب) وتجعله شحنة كهربائية تثير الحماسة وتملأ الوجدان حبا أصيلا، وتكون المدرجات في ظل الهتافات وسمرة الحضور لوحة رسمتها ريشة فنان مبدع.

النيل .. نهر الحضارة والتاريخ

النيل نهر الحضارة والتاريخ، فعلى ضفاف أطول نهر في العالم (6695كم)والوحيد الذي يقهر أقسى الطبيعة وأصعب الجغرافيا ليجرى شمالا عكس الأنهار الكبيرة والمعروفة عالميا، بدأت أقدم الحضارات العالمية وأهمها على الإطلاق، حيث كان النيل إرتبط بطريقة خاصة نشأة الحضارات الأفريقية مثل الفراعنة وحضارة الكوش ومروي والممالك والسلطنات التي نشأت على ضفافه روافده في عشرة دول يمر بها النيل بطريقة أو بأخرى.

وكان النيل رديفا للحضارة والتمدن والتداخل الثقافي والعرقي والمعرفي منذ قديم الزمن، وفي عصر الكشوفات الجغرافية والغزو الأوروبي إلى أفريقيا كان الرحالة الأوروبيون يتوغلون في أفريقيا عبر النيل بدأ من مصر إلى السودان انتهاء بروافده ومنابعه في أدغال أفريقيا، ومن الكتاب الأورروبين الذين أغدقوا في وصف النيل والبلدان المطلة عليه جيمس بروس (James Bruce) الرحالة والطبيب الإسكتلندي الذي كتب مشاهداته وانطباعاته بعد أن زار معظم الأقطار الواقعة في المشرق الأفريقي. ووصف السودان وخاصة مملكة الفونج وسنار التي كانت رائدة في تلك الحقبة الظلامية لمعظم أمصار العالم الإسلامي التي كانت تئن تحت رحمة التدفق الإمبريالي من أجل نهب الثروة واستعباد الشعوب.

بعد أن غادر بريطانيا في عام1767م شمر ساعد الجد لاكتشاف منابع النيل والإبحار صوب أفريقيا وفك شفرات الأسرار وكتابة التاريخ من جديد حسب مستكشف أروبي لوثت عقله الأخبار المفبركة والنوادر الكاذبة عن أفريقيا وشعبها، وهذا في عقلية الأوروبي التي ترى أفريقيا أرض المرض والجهل، ولا أدري كيف يكون أوروبي غريب مكتشف الشعوب والمدن والثقافات والأنهار والجبال الأفريقية وكأنها كانت مناطق غير مأهولة أو لايعرفها أحد، فالمزارع والراعي الأفريقي البعيد عن التمدن والحضارة في المقياس الأورربي المجحف كان يعرف كل هذه المناطق وبأسماء محلية ذات دلالة وطنية عندما كانت أوروبا غارقة في الأوساخ والتناحر والتفوق الطبقي.

ولايتعدي دور الرحالة الغربي تمهيد الكولونيالية الغربية على سيطرة القارة وجمع المعلومات ومعرفة الطباع والبلاد كفاسكو دا غاما البرتغالي الذي مهد للبرتغال احتلال مومباسا ونهب خيراتها وتعذيب شعبها، وكتابة الخواطر والمشاهدات وطباعتها ليصل صدى هذه المناطق المجهولة .في نظرهم .إلى الجماهير العالمية التي كانت تتطلع في تلك الفترة إلى معرفة العالم والشعوب المختلفة وإيجاد كتب مقروءة عن أمم غامضة ظلت شفهية ملايين السنين، إضافة إلى تغيير الأسماء كما فعل الرحالة الإنجليزي سبيك

(Speke) عندما توغل في الشرق الأفريقي ووصل إلى بحيرة نيانزا فأطلقها بحيرة فكتوريا لتغير الاسم التاريخي العريق إلى اسم أجنبي غريب تزلفا للملكة وطمعا للمناصب، وكان سبيك يمني النفس أن تمنح الملكة والجمعية الجغرافية البريطانية عند عودته الألقاب والنياشين، وكان نشر المسيحية في أوساط البسطاء في أفريقيا وأسيا من الأجندات الرئيسة، ولاسيما الشعوب الأفريقية الوثنية التي كانت تتمسك بعقيدتها البدائية، ومن الرحالة الذين حملوا لواء التنصير ونشر المسيحية في أفريقيا ديفيد ليفنغستون (David Livingstone)الذي جعل معظم كتبه تتحدث عن أفريقيا والتبشير وقصص المستشرقين والخدمة الجليلة للمسيحية العالمية.

جيمس بروس الذي سحرته الطبيعة وأعجبه الكرم الأفريقي والاستقبال الجماهيري الذي حظيه في بعض الدول ألف كتابه الغزير"رحلات الكشف عن منابع النيل" (Travels to Discover the Source Of the Nile) الذي تم تأليفه سنة 1790م وقبل أربع سنوات فقط من وفاته، ذكر جيمس رحلاته ومشاهداته في البلدان الإفريقية وكيف كانت الحياة في أرتريا والسودان وإثيوبيا وعموم البلدان التي زارها، ورغم النظرية الدونية المسيطرة للكتابات الأوروبية ومركزية حضارتهم وثقافتهم على أساس تهميش وتقزيم الحضارات الأخري إلا أن الكتابات والجهود المعرفية المبذولة من قبل الأوروبيين في تلك الفترة تركت لنا إرثا ثقافيا وحضاريا في غاية الأهمية، لاسيما ونحن كنا وما زلنا نعتمد على الحكاوي والألغاز والأشعار وجميع أنواع الشفهية لتناقل الأخبار وحفظ التاريخ والتراث .

وهكذا كان النيل نهرا للحضارة والسياسة والحياة والعلم، وللنيل رونقه الخاص في مدينة يلتقي النيلان في تربتها وضمت الشقيقين في حضنها إلى الأبد، لم أكن أفهم كنه كلمات الشاعر الكبير التيجاني حاج موسى ومغزاه الحقيقي حينما كان يمدح بشعره الأخاذ جمالية النيل وروعة الخرطوم برائعته:

يا جمال النيل والخرطوم بالليل

ياراضعة من نيلين حضنوك من أزمان

يا قبلة الزائرين يادرة السودان

ضمخ شذى الياسمين والورد والريحان

عشاق سمر بالليل سحرك جمال النيل

أجمل ليالي هنا لما القمر يظهر

والونسة تبقي غنا والغنوة تتنقل

وتفوت على أمدرمان وهناك تكون أجمل

لو بس تطول يا ليل وتزيد جمال النيل.

ولكن من يتأمل الأنوار الحالمة والضوء الذي ينعكسه النيل في الليل، وانسيابه وغزله للطبيعة، والشجن الذي يتحرك داخل أمواجه يدرك صدق كلمات الشاعر وصفاء الأحرف لحظة تدفقها عن قريحته بأريحية ودون تكلف، وليست انسيابية النيل وحدها ما يدغدغ مشاعر الشعراء والمحبين، بل لابد للمشتاق أن يتذكر المقاهي الناعسة على ضفاف النيل الذي يحدث مسارا نغميا ذا لذة خاصة تبدد رواسب الحزن والأسى.

يعيش المرء على ضفاف النيل وهو يزهو ويلعب، أو يستجمم تغريد الطيور على أفنان الأشجار أو تجديف الصيادين الغائدين إلى كسب أرزاقهم أو الزوارق الصغيرة على صفحة النيل، أو الهمسات الرومانسية للفتيات اللاتي قال فيهنّ كريم العراقي:

ونسيت دائي، حين جاء دوائي
من ذا يقاوم نظرةَ السمراءِ
صادتْ فؤادي والفؤاد ضعيفٌ
والآه أصل الآه، من حواءِ.

وعلى حافة الجمال يعذبك الصمت الإجباري للطبيعة والتأمل في الأصيل من بعيد، وهمس الشمس وهي مخضبة بحلتها الأرجوانية في زمن المغيب تعيدني إلى الذكريات المخزونة فيه عندما كان النيل الوجه الحضاري الأبرز ومصدر الرزق الوحيد للشعوب والأمم التي عاشت على ضفافه.

الصومال والسودان .. علاقة النضال والفن

العلاقة السودانية الصومالية علاقة تتعدى الأبعاد السياسية والدبلوماسية إلى الفن والوجدان والتاريخ، فنحن أمة من إنتاج الانسجام بين المواطنين الأصليين والهجرات الكثيرة من الجزيرة العربية وشمال أفريقيا نحو المشرق الأفريقي التي كانت بوتقة انصهرت فيها الأعراق والأجناس سواء كانت عربية أو فارسية أو زنجية أو بعض الشعوب التي رمتهم الهجرة بعيدا نحو الدفء وشمس أفريقيا الحنونة، والمتتبع على التشابه الكبير بين السودان والصومال شعبا وسحنة سيجد تشابها فريدا في العادات والتقاليد والسحنات والفنون والعلاقات الأخوية الدافئة، وليس غريبا أن تكون العلاقة بين الصومال والسودان اللذان يعتبران خزانتين كبيرتين للثقافة والحضارة والعلاقة الحميمة منذ الدولة الحديثة وما قبلها، علاقة تناصر وتنسيق تذلل الصعاب وتمهد أواصر من نوع آخر تحمل في طياتها علاقة ذات نكهة طبيعية مميزة، ورابطة تجاوزت المكون السياسي إلى الفكري والأدبي.

تاريخيا كانت العلاقة حاضرة بين الممالك القديمة التي حكمت البلدين مثل مملكة مروي في السودان ومملكة البونت التي حكمت معظم أجزاء المشرق الأفريقي. واليوم تشبه الحياة والسياسة بين البلدين إلي حد كبير، رغم البون الشاسع بين السمات الرئيسة لتلك الحياة بسبب تدهور حالة الصومال أمنيا واقتصاديا، ودخولها في أتون حرب لم تنقطع في عقدين من الزمن، فالسودان ورغم تنوع أهله عرقيا واختلاف عاداته إلا أن الثقافة السودانية متقاربة جدا وشبيه للثقافة الصومالية في تفاصيلها وملامحها، بدأ من الجغرافيا والملامح العامة للحياة إلى طقوس الزواج والفصل بين الخصوم والرقصات الشعبية إلى الألعاب الفلكورية وأدبيات الحروب والكفاح وخوض النضال ونمط العمارات وزخرفة المباني، إلى الملامح الرئيسة للشخصية حيث السحنة الدقيقة المتقاربة والبشرة السمراء المائلة إلى الانفتاح،مما يجعل البلدين لوحة متكاملة في ألواح القارة الزاهية.

الملامح السائدة في البلدين هي سمرة إفريقية يشوبها دم عربي امتزج بالعرق الزنجي، فكانت حصيلة التقاء حضارتين ودمج عرقين ملامح دقيقة وجمالا هو الأبرزفي أفريقيا وأصبح فيما بعد لونا حملتها التيارات الحضارية في كثير من الأحيان، وإذا أضفنا ذلك إلى الإدعاءات التاريخية التي تسردها القومية الصومالية، بأن قبائل صومالية نزحت في أوائل القرن السادس عشر الميلادي إلى السودان، بسبب الحروب والنزاعات التي كانت تسيطر في الصومال آنذاك، بسبب الجهاد المسلح الذي كان يقوده المجاهد والبطل أحمد ابراهيم الغازي، الذي كان يواصل كفاحه المسلح ضد المستعمر الحبشي والبرتغالي في

الصومال، وبسبب الاضطهاد الصليبي بدأت موجات نزوح وهجرات متتالية نحو الشمال، ووقوع السودان في جنوب الوادي سهل الأمر، حيث استقر بهم المطاف إلي كردفان الكبرى، وبمرور الزمن أصبحوا سودانيين بحكم السكن والمصاهرة والاختلاط الحتمي لبقية المواطنين، يكوّن لدينا قناعة راسخة وإيماناً عميق لصحة ما ذهبنا إليه.

والسودان في تاريخه الحافل بالإنجازات والتضحيات من أجل الإخوّة الإفريقية والعربية، كان يشكل رافدا معرفيا كبيرا للصومال، وحقل تعليم يضخ إلى الصومال عقول سليمة وسواعد متعلمة تساهم في تحريك عجلة الوطن إلي الأمام، ولاغرو فقادة السودان في اختلاف مشاربهم وأفكارهم كانوا دائما رواداً يبعثون الأمل في القلوب وينظرون إلي الدول المجاورة بعين الرحمة، والشعوب الصديقة بقلوب دافئة تتدفق منها الحب الذي يغرس روح الأخوة بين الشعوب، مما جعل السودان دولة حبيبة في كل القلوب وفي كل العصور.

والبعد المهمل والمهم في رأيي في العلاقة الصومالية السودانية، هو العلاقة القوية والتشابة المثير بين الحركات التحررية وقادة النضال بين البلدين، ومن الدلائل الواضحة في هذا الشأن أن المناضل الكبير والمجاهد النحرير السيد محمد عبد الله حسن الأب الروحي لاستقلال الصومال والمشعل الحقيقي للشرارة الأولي من المقاومة الصومالية التي واجهها الشعب الصومالي ضد المحتل الأوروبي والحبشي منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى في الربع الأول من القرن العشرين، زار السودان ونزل في ميناء سواكن شرقي السودان في طريقه إلى الصومال بعدما عاد من الحجاز، وتفقد على أحوال المرابطين هناك، ولقي الإمام المهدي أيقونة ورمز الإحياء الأخلاقي والديني والنضالي في السودان، وشرح نواياه لإقامة العدل في الصومال ودحر المحتل وأذنابه واستعادة المجد والأرض من المحتل، فكانت تجربة ثرية وزيارة ملهمة استفاد السيد والدرويش عنها كثيرا من تجارب المهدي وحنكته السياسية ورشده القيادي وحكمته وعلمه الغزير، ومن نافلة القول أن نعلم أن السيد محمد والإمام المهدي نهلا من معين الطريقة الصالحية وارتويا من علمها الصافي المدرار رغم اختلاف اسم الطريقة بين القطريين.

ولم يقتصر التشابه السوداني الصومالي في السياسية والنضال ضد الإنجليز والجرأة وعدم الخنوع والملامح والسحنات، بل شمل التقارب والتشابه جميع أنواع الحياة وشرائح المجتمع مثل الفن والفكر والأدب، حيث يجد المرء صعوبة كبيرة في التفرقة بين الفن الصومالي الذي يصف كل شيء، والفن السوداني الذي قدم للقارة الإفريقية وللعالم قامات فنية ذات إمكانيات صوتية مدهشة، والدليل على ذلك يصعب التفريق بين قيثارة الكابلي فنان السودان ونغمها الخالد وهو يغوص درر السودان وتراثه

الحضارية ويتبحر في العالم الفسيح في أغنيته الشهيرة "أنشودة أفريقيا وآسيا" وبين أورغن عمر طولي(OMar Dhuulle) وهو يعزف على عوده ويردد أغنيته الشهيرة (waa qaali)"غالي" لتشابه الإيقاع والنغمات وبما فيهما من مناجاة شجية ومشاعر ورومانسية تجعل فنهما بانورامة غنائية.

ونفس الشئ قد لا تفرق بين حنجرة محمد سليمان تبيع(Mohamed Suleiman Tubec) وأغانيه الكلاسيكية الرائعة التي تحمل دوما فيوض عامرة من المحبة والوفاء، وبين نغمات عندليب الفن في السودان وهو يردد أغنيته الشهيرة " صوت المساء".

وكلنا نعرف أن الفنان الإنسان سيد خليفة كان معشوق الجماهير الصومالية خاصة وسكان شرق أفريقيا عامة، وحبه للصومال وتراثها وتاريخها وغنائه للشعب الصومالي في المسرح الوطني في مقديشو، وحفلاته الفنية ونثره نسائم الحب في قلوب سامعية جعلته اسما لامعا، بل كان بمثابة همزة الوصل وحبال المحبة الذي يربط بين الشعبين والثقافتين، وكانت كلمات العشق في قلوب محبيه وسحر صوته الجهوري قوة دافقة إستحوذ على الأسماع والمشاعر وأذهان الجمهور، ولم يقتصر سيد خليفة في الغناء وإحياء الحفلات فحسب، بل واصل رحلته الجميلة لتآخي الشعوب وقدم الفنانة المبدعة حليمة مغول (magool)أو حليمة الصومالية كما يطلق عليها الإخوة السودانيون إلى الشعب السوداني، لتغني في المسرح الوطني في أمدرمان أغاني تنسج في كل صفحة قصة حب مليئة بالشجن، وقامت بقامتها الهيفاء في وسط المسرح واستقبل الجمهور بحفل ساهر واصلت مسراتها حتي ساعات الصباح الأولي وفاح طيب شذاها في نسمة السحر.

وكانت بامتياز صباح سودانية مطرزة بالموسيقى الصومالية الشجية، ولقد نالت أغنيتها رضي الجمهور، وألهب التصفيق أكف المتابعين، فأصبحت في السودان معشوقة الجماهير يردد كلماتها الصغير قبل الكبير، لتكون الأغنية جسر تواصل ويكون الفن رائد التقارب بين الشعبين.

من الخرطوم إلى أديس أبابا.. رحلة في الذاكرة

في صباح يوم حار من أيام الصيف غادرت الخرطوم صوب الجنوب بمزيد من التعلق والمحبة والعودة إليها في أقرب فرصة سانحة، المدينة العريقة بوقعها الثقافي وإرثها الحضاري والتاريخي يعتبر الوريث الشرعي لحضارة كوتش النوبية الإفريقية التي ظهرت من حوض نهر النيل وحكمتْ تلك المنطقة الثرية بالمظاهر الجغرافية العتيدة والأثرية ما يربو على 1500سنة كانت المنطقة رائدة في السياسة والاقتصاد والحروب.

سافرت عبر السفريات السياحية نحو إثيوبيا متحف القبائل الأفريقية والعادات المتنوعة، وبلاد القهوة والقات عبر الطريق الطويل الذي يربط السودان بالحبشة، كانت الأرض بقاعا مترية يسيطر عليها الغبار والشجيرات المتناثرة، وكان النيل بنبله يسقي الروابي ويجمل الرمال ليحول إلى واحات ومزارع مطلة على النيل.

أزيز الصحراء يمتزج بهدير الرحلة البرية بتنوعها الطبيعي والجغرافي، حيث تضاريس الجبال تحاذي الأشجار والأعشاب الموسمية وتتخللان مع أجواء الصحراء والرمال التي تهب بفعل الرياح، حتى وصلنا القضارف الخضراء بمزارعها وتربتها الخصبة وتاريخها العريق المتصلة بالنضال والاستقرار منذ أن استردت الحركة المهدية من الاحتلال البريطاني عام 1884م.

لم تكن مدينة القضارف جديدة عليّ بل كنت أعرف عنها كثيرا سواء في تاريخها وسكانها وأحيائها وملامحها الريفي من خلال كتابات السودانيين الذين تفننوا في جعلها مدينة عالمية ونقطة بارزة في السودان ثقافيا ومعرفيا في بطون كتبهم ورواياتهم، كانت المدينة واعدة مبتسمة ونال التطور البطئ من كل النواحي واشتهرت بمحصولها الزراعي وخاصة السمسم وسحناتها البشرية واللون الشرقي الخلاب.

غادرت المدينة التي ذكرتني بالمدن الإثيوبية لتشابه بعض الملامح والتراث والفلكور، اتجهت جنوبا الذي لازمني منذ أن كنت صبيا، حتى أصبح الجنوب والترحال نحوه من سماتي البارزة في حياتي، كان الطرق معبدا والمناطق الشاسعة حوله تبدو وكأنها ميادين فسيحة للمبارزة أو للساحرة المستديرة.

كانت القرى والمزارع مستطيلة على جنبات الشارع الذي يعتبر واجهة حضارية ومعبرا للتداخل الثقافي والعرقي والاقتصادي، ومن أبرز جسور التواصل بين الشعوب الإفريقية حيث يربط شمال القارة بشرقها وجنوبها عبر إثيوبيا وما ورائها من الدول والمدن والممالك، وكان هذا الطريق حسب بعض الخبراء الذين التقيتهم بالقضارف جزءا من طريق القاهرة كيب تاون الذي كان من أبرز المشاريع الإفريقية منذ قرون وإن لم ير النور بعد بسبب الإهمال والكسل الإفريقي والتجاهل الكبير الذي ضرب أطنابه على المشاريع

الوطنية وتقوية البنية التحتية للبلدان الإفريقية التي مازالت غارقة بالحروب والصراعات وشاكية من سياسيين إنتهازيين ينهبون الأموال ويدمرون البلدان بعنجهيتهم وقصر نظرهم وارتباطهم بالمحتل الأوروبي ثقافيا وفكريا.

عبر هذا الطريق الطويل الممتد أكثر من ألف كيلومتر ما بين الخرطوم شمالا وأديس أبابا جنوبا مرورا بمدن وقرى وأزقات وجبال شاهقة ووديان حادة تحدث مآسي وقصص ومعاناة تدمي النفس وترهق المشاعر وتعذب الأحاسيس، فمهربو البشر والمخدرات أو رواد العبودية الجديدة في القرن الواحد والعشرين ينشطون بين الجانبين السوداني والإثيوبي وأصبح البشر سلعة رخيصة .في عيونهم .لا تستحق الاحترام ولا الشفقة، وخاصة الصوماليين الذين مازالوا يتدفقون نحو أورروبا بعد أن انهارت دولتهم وزال سلطانهم وسيطرت الحركات الإجرامية على ربوع الوطن وتحولت الابتسامة السمراء العذبة إلى نحيب وبكاء وأصوات الرصاص ولهيب النار وتجزئة المجزأ، وبات الوطن كومة من الرماد والدمار والدموع.

وكذلك الإثيوبيون يكتون نار المزايدات والألم والقهر النفسي وهم على مرمى الحجر من بلادهم الغارق بالفقر والاستبداد رغم النمو الاقتصادي السريع حسب التقارير الصادرة من الأمم المتحدة، فموجات البشر من إثيوبيا المتدفقين نحو السودان أمر يدعو إلى الدهشة والغرابة، وحسب إحصائيات غير رسمية وصل عدد الإثيوبيين الذين يدخلون السودان يوميا بشتى الطرق ما يتجاوز 1500 نسمة، وهذا رقم كبير ومخيف جدا لدولة تعاني من الحروب والصراعات إضافة إلى الحظر الاقتصادي والعقوبات التجارية الجائرة من قبل الإمبريالية والاستعمار الحديث الذي عاد إلى أفريقيا تحت أسماء وأجندات وسياسات مختلفة وفي غاية المكر والدهاء، فبدل المدافع والمشانق والمصادرات العلنية يستخدم فرض العقوبات ونهب الخيرات وعبودية البشر عبر الهئيات الأممية والمنظمات العالمية والقرارات الأحادية الجانب والتكتلات الدولية والصناديق المالية التي هي بمثابة الوجه الناعم للاستعمار الجديد .

الإنسانية في هذه المدن معدومة ونزعت الرحمة والوازع من القلوب حتى أصبحت القلوب حجرا دينه المال ولغته الربح ومشاعره الكسب، البشر هنا أرقام وأرباح لامعنى ولاكرامة لها، وسماسرة الدماء يهمها المال وجني الملايين عبر التهريب والهجرات الغير شرعية، حيث خلايا المهربين تنتشر في كل المدن والقرى من مقديشو جنوبا إلى هرجيسا مرورا بجككجا وأديس أبابا عبر الحدود إلى الخرطوم ومنها إلى الصحراء الليبية أو القاهرة وصولا القارة العجوز والجنة المرتقبة في خيال الهاربين من جحيم الحروب إلى سياج التهريب وأسلاك الحدود وعطش الصحراء والموت جوعا في الفيافي الساخنة أو قهر القطاع أو تعذيب المهربين.

وصلت القلابات في الظهيرة وفي يوم حزيراني ساخن شارفت الحرارة في حدود الخمسينات المئوية حسب تقديري الشخصي، الواجهة البريّة السودانية نحو العمق الافريقي كانت مكتظة بالسكان والمسافرين والمهربين، العنوان الأبرز للمدينة هو الاقتصاد والتبادل الثقافي والحضاري وكونها ممرا لملايين المهاجرين من أفريقيا إلى أوروبا، القلابات المدينة النشطة اجتماعيا وبشريا تأسست في القرن الثامن عشر الميلادي وكانت ممرا مهما للتجارة والعساكر والأعراف والعادات الأفريقية والأطماع الأوروبية في عهد الكولونيالية الغربية مما جعل المدينة نقطة ساخنة بين القوى المسيطرة في المنطقة سواء كان التاج الفيكتوري أو النازية الإيطالية إضافة إلى الحكم المحلي في السودان وإثيوبيا.

مدينة واحدة شاسعة ومترامية على محاذاة خور أبو نخرة يسمى الجانب السوداني بالقلابات والجانب الإثيوبي بالمتمة، ورغم أن التاريخ يمنح السودان تأسيس الجانبين حيث كان ملوك القبائل الجعلية أول من أسسوا المتمّة التي يعيد المؤرخون اسمها أنه يعني نهاية حكم الجعليين وآخر نقطة لدولتهم الممتدة حتى الحدود الشمالية للسودان، إلا أن المتمة التي تفوح منها رائحة القهوة واللكنة الواضحة للغة الأمهرية تختلف عن الجانب السوداني مظهرا وثقافة ودينا، فالمدينة الحدودية التي تنتمي إلى إقليم الأمهرا حسب الدوائر السياسية الإثيوبية مات فيها الإمبراطور الحبشي يوهانس الرابع ملك ملوك إثيوبيا بدءا من 1872 إلى وفاته 1865م على أيدي المسلمين المناوئين له، إذ كان ملكا غاشما أجبر المسلمين على التنصر والتشريد، ونهب أموالهم وطرد آلافاً منهم ونفاهم إلى الخارج واعتمد على الإنجليز في تقوية سلطته وحارب السودان، وكتب التاريخ مواقفه وعنجهيته حينما أمر المسلمين في مقاطعة ولّو (Wollo Province) بالتنصير وتغيير دينهم الإسلامي في غضون 6 أشهر، وزادت نكايته عندما انتصر على عدة حملات مصرية كان الإثيوبيون يرون أنها تهدف إلى السيطرة على أحواض النيل وتستهدف العقيدة الإثيوبية وشهدت تغيرات كثيرة في تاريخها.

جلست مقهى مفتوحا للثقافة الإثيوبية الراقصة والأنغام الحالمة على وقع القات والضحكات السمراء أشرب قهوة فاخرة في جو أمهري بامتياز، الرقصات الفلكورية والرسومات التاريخية تعيد الحياة إلى ماقبل الكشوفات الجغرافية والثورة الصناعية. القات الذي يعتبر من المخدرات في الجانب السوداني يسود في المنطقة وتعم النشوة أرجاء المدينة بعد الواحدة ظهرا إلى ما بعد منتصف الليل والساعات الأولى للصباح، وأبواق السيارات المتنوعة التي تذهب جنوبا نحو أديس أبابا لاتتوقف.

الصراع مع أعباء الحياة محتدم هنا والأمنيات البسيطة للشعب لاتتحقق، والخيارات محدودة في ظل البطالة والفقر والعوز، المسافرون صوب العاصمة يجلسون على الأرصفة والمقاهي الشعبية المحاذية

للشارع في انتظار وسائل النقل وهم يحملون راديو صغير ويستمعون على النشرات الإخبارية والثقافية من الإذاعات المحلية أو عبر الإذاعات العالمية، ومن الجميل أن سكان الشريط الحدودي يتقنون أكثر من لغة مما انعكس على الإثراء الثقافي. في إقليم أمهرا وعموم إثيوبيا الراديو يعتبر رفيقا كالظل لاينفك أبدا.

قبل العصر بدقائق وحين بدت الشمس وكأنها تغمض أجفانها عن الأرض غادرت المدينة نحو العمق الإثيوبي الجبار، وعلى مشارف الأماكن التاريخية لملوك الحبشة أتذكر سير المستكشف الإنجليزي بيكر وكتابه(the Nile tributaries of Abyssinia) الرواد الأربيون الذين وصلوا إلى المنطقة سواء كانوا بعثات جغرافية ممولة من الحكومات أو من الجمعيات العلمية أو بمجهودهم الخاص كانوا جديين في عملهم ومخلصين لمهنتهم، واتسموا بالشغف وحبهم الجم لبلادهم ومبادئهم، وإتقانهم في الوصف والكتابة والملاحظات الدقيقة التي لاتخلوا عن المبالغات والتهويل كبهارات لكتبهم ونصوصهم عن أفريقيا التي كانت مركزا للاهتمام الأوروبي منذ أن دخلت أوروبا عصر الصناعة، الإنجليزي بيكر وصف المنطقة الممتدة ما بين سواكن وكسلا والقلابات إلى العمق الإثيوبي والاختلاف الحضاري والمعيشي بين بلده وبين أفريقيا المجهولة بالنسبة إليه.

وسط تيارات هائلة من البشر والطبيعة الآنسة اتجهنا صوب الأراضي التاريخية للإمبراطورية الحبشية، على تخوم قُوندرْ كان الصليب الخشبي المتدلى من أعناق السمر وواجهات المباني والمحلات الشعار الأبرز لمدينة كانت عاصمة السياسة ومركز الدين طيلة قرنين، ظلت المسيحية الهوية الأبرز لإثيوبيا بعدما باتت دين الحكام ومعتقد السلطة، واشتهرت المدينة بالقصور والكنائس والأديرة المرتبطة بالطقوس الروحية والعقائد الدينية وخاصة النصرانية التي دخلت إثيوبيا سنة 70م على يد رجل يهودي قيل أنه سافر إلى بيت المقدس ورجع إلى إثيوبيا بعد أن اعتنق المسيحية في رحاب الشام المنكوبة هذه الأيام بعنجهية المستبد وطمع الجار وطغيان القوى الإمبريالية.

القرى الأمهرية تصافح الجبال وتحاذى التلال الخضراء، المواقع الأثرية والدينية تسيطر على المشهد العام في تخوم بحيرة تانا التي كانت من أكبر معاقل يهود فلاشا "الغرباء" قبل رحيلهم إلى إسرائيل عبر صفقات سرية وعلنية وتفاهمات طبخت على نار هادئة. وصلت إلى بحر الدار العاصمة الإدارية لقومية أمهرا التي حكمت كقبضة من حديد قبل الإنقلاب الشيوعي لضباط الدرك عام1974م الذين حكموا بدورهم البلاد بالاستبداد والإرهاب الأحمر إلى أن أطاحتهم الجبهة الديمقراطية الثورية الشعبية عام1991م بقيادة الراحل مليس زيناوي ورفاقه.

المنطقة غنية بالموارد الطبيعية، اقتربت إلى نقطة ساخنة مازال العالم يترقب أحداثها ويرصد تحركاتها بعد أن أصبحت وجبة دسمة للصحافة والسياسة، تدفقت علي وقائع الحاضر وخسائر الحروب عندما وصلت إلى منابع النيل، النهر الأكثر حضورا في أروقة السياسية والمال والعسكر بعد بناء إثيوبيا سد الألفية على بحيرة تانا. السد أثار زوبعة كبيرة كادت في لحظة من اللحطات أن تتطور إلى حرب ضروس مسرحه القرن الأفريقي المنكوب تاريخيا بسبب السياسة، أوالحدود الوهمية التي صنعها الأورروبيون لصالحهم، أو أفكار القادة ونزواتهم، أو بسبب الحروب الأيديولوجية بين الإسلام الزاحف من السواحل الشرقية وبين النصرانية المتقوقعة فيما وراء الهضباب.

بعد رحلة برية مضنية دخلت إلى عمق بحر الدار المدهش، شهدت المدينة تحولات عميقة وجذرية من الناحية العمرانية والبنية التحتية، تماثيل متنوعة لشخصيات أسطورية وحقيقية، وحياة متناقضة مليئة بالإنكسارات يوازيها قفزات كبيرة للاقتصادحيث يعتبر اقتصاد إثيوبيا الأول إفريقيا و12 عالميا، المدينة شرقية آسرة وخزانة لتاريخ إثيوبيا التي أصبحت دولة محورية بعد القرن16م عندما وصل البرتغاليون إلى القرن الأفريقي كنجدة للإمبراطورية الحبشية الغارقة في التخلف والفقر والأمراض، وتعاني من الغارات المتواصلة من المسلمين الذين أنهكوا جسمها وقارعوها بالحديد والنار، وكان المسلمون بقيادة الأمراء والسلاطين بواسل يحملون شعلة التحدي والإصرار فمضوا يفتحون الأمصار ويعمرون الأقطار وينشرون الإسلام حتى وصلوا إلى حدود كسلا السودانية، كانوا كالشهاب يضيئون الطريق ويحرقون الجهل ويحاربون الظلامية فأسّسوا المدن المقرونة بالحضارة والثقافة.

كنت أحث الخطى على رصيف الشارع أبحث عن فندق قبل أن يستبد الليل ظلامه في مدينة تعتبر معقلا للسرقة والاستغلال، وجدت فندقا في الأحياء المتوسطة للمدينة الضائعة بين السمرة الأفريقية والأصول الحامية المترسبة كما يقولون، إذ يرجع بعض الجينيالوجيون أصول الحبشة إلى قبيلة حبشات اليمنية التي هاجرت إلى القرن الأفريقي بعد انهيار سد مأرب، في تلك الليلة الباردة والمليئة بالأمطار كان النوم مثل ذكريات مرت سريعة ولم أصحو إلا على أصوات السمراوات وهن يطبخن "أنجيرا" أو الطبق الإثيوبي الأشهر على الإطلاق.

كانت المدينة كغيرها من المدن الإثيوبية تحتفل بصخب على "تحرير أفريقيا" حسب المزاج المحلي الذي يفتخر بعدم احتلال إثيوبيا وهزيمة الكولونيالية في ساحات الوغى! رغم أن الاستعمار روّج تاريخ الحبشة حتى أصبحت في المخيلة العالمية الدولة الوحيدة التي تملك ماض مشرف في المشرق الأفريقي، ويعتبر هذا .

رغم عراقة إثيوبيا.تضليلا وإجحافا في حق الدول الواقعة في المنطقة والتي لها إرث ضارب في جذور الحضارة الإنسانية.

على بعد مئآت الأميال من بحر الدار وقع صراع مرير بين الفاشية الإيطالية وأباطرة أباسينيا، وانتصرت الحبشة على إيطاليا في معركة سجلها التاريخ وخلدت في الذاكرة. ففي1مارس1896م وقعت معركة عدوة التي ضربت الحلم الإيطالي في مقتل بعد أن هزمته دولة أفريقية ومنحت السلطة المطلقة للإنجليز على السيطرة البحر الأحمر وشمال الصومال، لقد انهار الحلم الأوروبي الذي كان يرى أفريقيا أرضا مشاعا ومليئة بالخيرات والثروات والملاريا، والشعوب الأفريقية مجموعة من السود الكسالي وحفنة من العبيد.

جرت وقائع المعركة التي أربكت الطليان وأدت إلى استقالة فرانشسكو كريسبي الوزير الأول للحكومة الفاشية في إقليم تجراي الحاضن لحضارة أكسوم العريقة، ويبدو أن الإقليم قدر له أن يشهد ألم الصراعات حيث مثلث بادْمي الذي سبب سلسلة من الحروب النازفة بين إرتريا وإثيوبيا والتي انتهت بوساطة أفريقية جزائرية لايبعد كثيرا عن تلك المنطقة الجبلية الوعرة.

في الصباح الباكر خرجت من الفندق نحو المقاهي الشعبية التي توزع الإبتسامات العذبة والقهوة الحبشية المعبقة بالبخور والأنوثة والجودة العالية، جلست أمام غانية سمراء ، كانت فاتنة المحيا قمحية اللون سريالية الملامح مشرقية الإبتسامة والصليب يتدلى من عنقها، وأمام التأمل على تضاريس جسمها وملامحها البرئية إحتسيت القهوة على عجل معزفا طبول الرحيل نحو التعمق في أدغال الحبشة.

غادرت المدينة الجميلة التي يشوهها فقر الأزقة وساكنو الشوارع من المشردين والمجانين والمتسولين، ابتلعتني عذرية الطبيعة وفخامة ألحان الفنان الشعبي طلاهون قيسسي وقهر الإنسان أدماني، وعلى مشارف دبري ماركوس سهول خضراء وقمم تغطيها الضباب وأرض مكسوة برداء الأعشاب وسقفها السحب والأفق، الجمال هنا لايقاوم، مدن متناثرة على جبين الهضاب، وحقول مطلة على السفوح، ومروج تزين المكان وتمنح المواطنين قوت يومهم خاصة وأن الحياة أصبحت صعبة لدى كثير من الشرائح في المجتمع الإثيوبي.

في جنبات الطريق حيوانات أليفة وطيور ومحميات طبيعية ووديان سحيقة، ومن اللافت للنظر أن المساجد بمآذنها العالية مطلة على الشوارع مما يضفي على النفس موجات روحية في عقر الديار الأرثوذكسية النائية. ورغم محاولة الغرب والبعثات التبشيرية وبعض الجهلة المنتسبين الى الإسلام تشويه

سمعته ونيل شرفه والحدّ من انتشاره فإن انتشار الإسلام في أفريقيا يبشر بخير ويوحي بأنه سيعم جميع ربوع القارة المسلمة في السنوات القادمة بعدما وجد قبولا واسعا في الداخل الافريقي وجنوبه ناهيك عن الشرق الذي وصل إليه الإسلام قبل وصوله إلى المدينة المنورة عبر البعثة المشرفة للصحابة رضوان الله عليهم الذين هاجروا إلى القرن الأفريقي في العهد المكي من الدعوة الإسلامية.

على ضفاف الجمال والمعاناة توغلت في الحس الغنائي والإنساني وأنا أراقب أمكنة تروي القصص بلا كلام والهروب الجماعي للبسطاء من الأرياف إلى المدن بحثا عن حياة كريمة باتت صعبة المنال. من بعيد وفوق تل رفيع راقتني مدرسة بسيطة المظهر عظيمة الأثر، المدرسة هنا .رغم محدوديتها.تقدم خدمة جليلة للأطفال الذين يقطعون أميالا من أجل العلم والتحصيل، كم كان المنظر مبهرا عندما رأيت الطابور المدرسي والبراعم يرددون الاناشيد في جو طلابي تحيطه البرآءة والحيوية.

في وسط النقاء وهدير العربة التي تطلق عجيجا كلما اعترتنا هضبة أو صعدنا جبلا في طول الطريق أخذتنا يد الجمال إلى أديس أبابا والأماكن التاريخية لمدينة ظلت عاصمة للإثيوبيين قبل أن تصبح عاصمة للأفارقة منذ عقود.

أديس أبابا... زهرة إثيوبيا الجديدة

تغفو أديس أبابا أو الزهرة الجديدة بمعناها الأمهري فوق أكمة تشرف على سهول تحيط بها الجبال والغابات والخضرة الدائمة. من بعيد تشبه أديس أبابامنطقة ريفية تفوح منها رائحة القهوة وعبق الزهور والقات، وعلى جبينها تظهر الأناقة الأصلية لشرق إفريقيا عامة والهضبة الحبشية خاصة حيث جبال أنتوتو وإرتفاعها العالي ومعالمها منحا جمالا أرخي ظلاله وحسه الشاعري على المدينة النابضة بالحياة والانطلاقة القوية من أوكار الفقر والتخلف إلى تحسين مستوى المعيشة والتنافس مع العواصم الأفريقية في المنطقة.

الطابع الإفريقي المازج بين العفوية ومظاهر الفقر والتوجع واضح في كل الدروب والزوايا، ورائحة التاريخ بادية على ملامح زهرة إثيوبيا الجديدة، حيث الأماكن التاريخية تترنم وتعزف أناشيد تفيض بالعراقة، والمقار الحكومية لاتهدأ أبدا، بل غارقة في خدمة الشعب وترسيم الحياة والسياسة والشؤون الاجتماعية المتبعة لدى الدولة التي باتت دولة مركزية في أفريقيا والعالم بعد إزاحة النظام الدرْك ومجيء الجبهة الثورية بقيادة الراحل مليس زيناوي الأب والمؤسس لإثيوبيا الجديدة التي بسطت سيطرتها على القرن الأفريقي سياسيا وحتى عسكريا بعد انهيار الحكومة الصومالية الند الوحيد والدولة المهابة لإثيوبيا في المنطقة.

أديس أبابا أصبحت عاصمة أفريقيا بسبب موقعها وتاريخها حيث كانت المنطقة المحيطة بها عاصمة لمملكة شوا التي حكمت أربعة قرون أجزاء واسعة من إثيوبيا، إضافة إلى السياسة الخارجية القوية، والسلوك القيادي المؤثر لقادة إثيوبيا الذين مزجوا بين التفاهم الضروري للعالم والاستقلالية الواضحة وعدم بيع السيادة للقوى الخارجية، ولا أنسى العامل الأهم الذي كانت تلعبه إثيوبيا منذ قرون وهو كونها الممثل الوحيد للقوى العالمية المسيحية في أفريقيا سياسيا وعسكريا وأيديولوجيا، مما مهد لإثيوبيا أن تكون دولة مركزية للقرن الإفريقي، وقطرا محوريا للهيئات العالمية والمنظمات الدولية، وأديس أبابا أن تكون عاصمة إفريقية بنهكة إثيوبية جذبت انتباه قرابة مليون سائح عام 2015م.

كان الشوق يحدوني إلى معرفة أديس أبابا وسبر غور المدينة التي ورغم حداثة سنها تأسست على أيدي الإمبراطور الإثيوبي منيليك الثاني عام1886م أصبحت عاصمة عم اسمها المشرقين، إضافة إلى أنها عاصمة لدولة سيطرت قبل قرن ونيف على إقليم أوغادين الغني بخيراته وشعبه المناضل منذ أن أعطى الإنجليز مقاليد حكم الإقليم للحبشة ودخول منيليك هرر العاصمة التاريخية للقومية الصومالية

عام1887م مرورا بعام1942 وأخيرا عام1958م عندما أسند التاج الفيكتوري حكم آخر منطقة من أوغادين إلى إثيوبيا، لذا تجولت في أنحاء زهرة إثيوبيا الجديدة وأنا أقرأ الملامح وأتمعن في الذاكرة الحية للشعب والمزاج العام السياسي والنظرة الشعبية والرسمية لمنطقتي المنكوبة منذ فجر الكولونيالية الأوروروبية إلى يومنا هذا.

أدركت أن التيارات الفكرية والأحزاب السياسية في أديس أبابا يهتمون جدا بالأحداث والأنشطة الداخلية رغم الاهتمام الحكومي الكبير لما يجري خارج الحدود الإثيوبي وخاصة الصومال العدو اللدود لإثيوبيا، الصومال التي يجب غرقها في الحروب والصراعات والتقسيمات وتسليح العشائر حتى لاتنهض وتقوم بقيادة المنطقة من جديد.

معظم الإثيوبيين لايعرفون عن القرن الأفريقي وليس لهم دراية تامة عن إقليم أوغادين الذي يقع تحت حكمهم أكثر من 60 عاما، وفي بعض الحالات لايميزون بين مقديشو عاصمة الأمة الصومالية ومدينة جكجكا حاضرة الإقليم الصومالي في إثيوبيا بحكم أنهم صوماليون ولايوجد بينهم فرق في الفكر والسياسة والانتماء والعرق واللغة والدين وان اختلفت الكيانات وتباعدت الهوية السياسية الحالية بعدما مزق المستعمر أجزاء الصومال إلى خمسة أجزاء لتضعيف شوكة الشعب الصومالي الذي مرغ أنف الإنجليز بالتراب في ربوع الوطن التاريخي لأجدادي.

المدينة تعتبر أنها القابلة الرسمية للجمال حيث تتحرش بك الأزهار في الطرقات، وتسير الخيول والعربات بدلال، هنا ثقافة شرقية تهمس في أذن الزمان، وهنا تماثيل متنوعة للرموز السياسية والثقافة والعسكرية والدينية لوطن يقدس المسيحية ويتشبث بتعاليمها ويحترم القادة السياسيين والرموز الوطنية، وهناك وعلى رصيف الشارع وتحت جنح الظلام غانية حبشية رائعة تمنح على الحضور عذوبة المشاعر، وطراوة الأجساد، ونشوة الوصال، وتوزع النظرات الموحية على المارة والزبون، وترحب بهم بقلب رحب وذراع مفتوح في دنيا المجون.

في أديس أبابا للّيل ألف حكاية وحكاية!حيث تغرق المدينة بمجرد غروب الشمس موجة من الموسيقى، وتهز العاصمة أكتافها بطريقة قوية وجماعية ترقد على أحضان الثقافة الإثيوبية وترسل عبر الأثير أو الهواء الطلق معينا فنيا تدخل الزائر في بحر من النشوة، وفي سكون الليل غالبا ما تسمع صوت الطبيعة المحيطة على البيوت وأغاني عميقة تهز القلوب من مكانها، وفي كل الأزقة تلتقي فئات من البشر يسبحون

داخل موجات النشوة الآنية للقات، وربما جماعة مزهوة بقنينة بيرة مركونة بزاوية بعيدة وهادئة من الملاهي وحتى المطاعم ماعدا المطاعم الخاصة بالمسلمين.

وعلى ذكر الإسلام والمسلمين أديس أبابا مدينة تعيش فيها جالية إسلامية كبيرة بكونها عاصمة لوطن معظم سكانه مسلمون وإن لم تعترف الحكومة بهذه الإحصائية، إضافة إلى موقعها حيث تقع منطقة شعب أورومو المسلم. يصدح الآذان مآذن مساجدها، وتقابلك المدارس الإسلامية والمساجد والمصليات الفرعية في شوارع المدينة، صليت في أكبر مسجد في المدينة لأراقب أحوال المسلمين والمسجد عن كثب، فرأيت أمواجا من البشر يتدفقون من الشوارع والطرقات المحيطة بالمسجد لأداء صلاة المغرب وبجو روحي عظيم وسكينة نادرة.

والمسجد يقع في قلب ميركاتو، أكبر سوق في الشرق الإفريقي أوالقارة الإفريقية قاطبة كما يقول روّاده. يتكون المسجد من عدة مبان متلاصقة مع بعضها البعض ومبنية بطريقة معمارية متميزة، الجدران مزركشة بآيات من الذكر الحكيم، ويسع أكثر من عشرة آلاف شخص في الصلاة الواحدة.

رأيت منظرا إسلاميا رائعا في مسجد أنور، فالناس غارقون في الذكر ومنهمكون في العبادة، فهذا يصلي، وهذا يناجي ربه وعلى تجاعيد وجهه وقار الإسلام وطمأنينة الإيمان، وكانت الحلقات عقد الرمان كما يقولون فالزوايا مليئة بطلبة العلم الشرعي وكل حلقة يتصدر فيها شيخ وقور بهيّ الطلعة، كما كان التكاتف والتعاون سمة بارزة في باحة المسجد حيث كان شاب يقسم على الفقراء وجبات جاهزة يوفر للمسلمين لقمة العيش ويصون كرامتهم من التسول أو السطو، ولقد تأثرت بهذه المظاهر الإسلامية الرفيعة في قلب أديس أبابا.

التسامح الديني يظهر بوضوح في أديس أبابا التي تعيش فيها الأديان جنبا إلى جنب وبوئام تام، حيث تقع كنيسة ضخمة يصلصل جرس الصليب فوق هامتها قرب المسجد الكبير وعلى بعد أمتار قليلة منه، وقد يعزى لهذه الظاهرة النادرة في العالم الطبيعة الهادئة والاحترام الجم للشخصية الإثيوبية وانشغال الناس بأساسيات الحياة، والفقر الذي يوحد المجتمع لأنه يملك مذاقا واحدا، حيث جذوره متصلة وأعراقه متحدة أينما حل وحيثما سكن، سواء في إثيوبيا أوكوستريكا، أوغينيابيساو أوسلوفاكيا أو سيرلانكا، وكذلك أمنيات الفقراء وأحلامهم تهدم الحواجز النفسية والمستحيلات، رغم نسبية هذه الأشياء، إضافة إلى همومهم المتشابهة إلى حد كبير.

أديس أبابا صورة مصغرة لإثيوبيا

أديس أبابا صورة مصغرة لإثيوبيا حيث خليط من البشر والفقر والطبيعة يشكلون لون عاصمة أفريقيا، وتدرك الحس الإدراكي والصحفي للكاتب الأمريكي بول ثيرزكس صاحب كتاب "سفار النجمة السوداء" الذي تحدث عن رحلته الإفريقية المرحة والمعقدة في آن واحد حينما قال: {شعب معظمه مطبوع بالوسامة واللطافة يجمع بين التعالي والفقر والإنتماء إلى الماضي}، وهذا مما جعل الحياة في أديس أبابا متواصلة بطريقة سلسة رغم المصاعب المعيشية والفقر الذي كبّل قدرات قارة أفريقيا الجميلة بما فيها إثيوبيا، والركض وراء لقمة العيش يشكّل كفاحا مستمرا لا ينتهي، والأحلام الوردية للشعب الذي يشبه لوحة زيتية تلتحف باليقظة المشوبة بالأمل ومستقبل واعد مليئ بالبشائر والتحديات أيضا، والبحث عن الأفضل والهجرات الجماعية من الريف إلى المدينة جعل العاصمة مزدحمة ومكتظة بالسكان وتسير جنبا على كتف فوق تربتها أكثر من ثلاثة ملايين نسمة من ثمانين قومية غير متجانسة،متباينة اللغات واللهجات، ومتعددة الأديان والمشارب والأهواء، ومختلفة التاريخ والأعراق والانتماءت الإثنية، تجمعهم إثيوبيا ويوحدهم العَلم.

شيء ما يربط المدن الأفريقية مع بعضها البعض، الرقصات والأرصفة الباردة للمشردين وخيوط دقيقة من الجمال والبؤس القاتل، والحروب التي تبدأ بأتفه الأسباب، والصراع مع أخطار الحياة والمرح الإفريقي الذي يحتوي على الأحزان ويغتال الألم بمزيد من الجرعات الصاخبة للرقصات الفلكورية، تجعل العواصم الإفريقية من جوهانسبيرغ إلى أديس أبابا، ومن أبوجا إلى مقديشو نسخة متكررة ومطابقة للأصل.

في الضاحية الشرقية لعاصمة القهوة والقات، بريق العيون وبساطة الإنسان في العشوائيات تذكرك الضواحي المهمشة للمدن الأفريفية ذات النسبة السكانية العالية، وتذكرتُ وأنا أتجول في الحارة الضيقة والطرق الترابية المبللة بالمطر ورائحة البالوعات، البيوت الصفائحية والعشوائيات المنتشرة في حي مايو(Mayu) في الخرطوم، وضاحية كابيرا (Kibera) في نيروبي.

والأحياء الراقية للمدينة تشبه الأحياء الاروبية في العواصم الافريقية رغم الفوارق المتعددة والبون الشاسع في الخلفيات التاريخية وفي الأجزاء الأنيقة لعاصمة الأغاني الكلاسيكية يبدو كل شيء وكأنه يتحدى الواقع ويحاول النهوض، وأن يقهر قسوة الحياة، ويخاطب تراجيديا الحياة وأسراب المتسكعين

الذين يخطفون لقمة العيش من أنياب الموت وعرين السؤال المخجل في الطرقات السريعة، وقرب الإشارات المرورية التي تساعد البسطاء للوصول إلى فريستهم بطريقة قد تكون مبتذلة أوملتوية.

تنام الأحلام في داخل الأزقات وبين دروبها، ويتسلح الشعب ضد الفقر بمزيد من الجمال والإبداع واستكشاف مائة طريقة وطريقة للتغلب على مظاهر البؤس، وفي زهرة إثيوبيا الجديدة هيبة الحياة وألق الربيع وقلة المكدرات سوى النظرات الفضولية لرجل الشارع والمتسولين الذين يظهرون أماكن الضعف والعاهة في أجسادهم أو الأعضاء التي تجلب الشفقة لهم كل هذا يدفعك إلى الابتسام وإن كنت في مزاج سيء.

قلة اليد والموارد الشحيحة للدولة لم تقتل الأمل، بل أضفت على المشهد الإثيوبي مزيدا من النضال والكفاح، والتوجه معا نحو إزالة العقبات والعوائق، وخلق واقع جديد يشحذ الهمم ويذكي العبقرية ويلجم نزوات الروح وطيش القادة وطمع الصفوة، ويقلم أظافر الفساد وأنياب المجرمين ويشذب شوكة تبييض الأموال واستخدامه لأغراض خاصة، وهذا ما جعل معدل النمو لإثيوبيا الأعلى إفريقيا، وأديس أبابا تحفة معمارية تفتخر بها الأجيال الإثيوبية على الأقل.

واليوم تسير في إثيوبيا عامة وخاصة أديس أبابا ثورة عارمة من النهضة، القطارات السريعة التي من المتوقع أن تكون حلا ناجحا للاختناق المروري والعمارات الشاهقة التي تناطح السحاب والطرق، والكباري، والقصص الرائعة لمغالبة الفقر، والمساعي نحو التغيير الإيجابي، يجعل المرء مشدوها بالإمكانيات البسيطة التي استخدمت في العمران والتطور واستثمار الأراضي وإصلاحها، وتزيد الدهشة إذا علمت أن الميزانية المخصصة للمشاريع تذهب بطريقة كلية نحو الهدف بعيدا عن جيوب الفاسدين والمرتزقة والانتهازيين.

هنا وفوق رابية مطلة على قلب المدينة وفي داخل فلّة غارقة في ألحان الربيع والسكوت سوى أبواق السيارات الصادحة من ميسكل إسكوير(Meskel Square) حاولت أن أستمتع بكل مافي الربيع من ألق، وحلمت بأن الزهرة الجديدة تفتح ذراعيها تغنّي وتعزف لي وحدي في وسط السكون.

لم يعكر صفو الأيام المتألقات في أديس أبابا سوى الأيادي الغبية التي تحارب الجمال والظلام الدامس الذي كنا نسبح فيه، والانقطاع الكهربائي ليليا وحين يشتد وطيس السهر على وقع الكتابة والأحاديث الفكرية، أو تحت تأثير حركات الأفلام المثيرة والغامضة وإثارة الدراما ومشاعر الحب المنسابة من القنوات الهندية، وأجمل ما في الأفلام الهندية الرقصات المهرجانية، وشؤم الطبقات، والصرامة العجيبة التي

تشرئب إليها أعناق بونابرت وشارون ونيرون ومنغستو، وتتقاصر عنها عدوانية النازيين والفاشية العصرية واستبداد معظم قادة العرب والعالم الثالث في القرن الواحد والعشرين.

ويبدو أن عدوى المدن الغارقة بالدجى وصل إلى زهرة إثيوبيا الجديدة، وأحتاج إلى قلم مذهل لأعبر عما يجيش في صدري المخنوق من أجل بحور الظلام الذي فوتتني نقاشا فكريا عبر الإنترنت مع صديق يعتبر مخزنا للثقافة والتاريخ، إضافة إلى فيلم وثائقي كنت أنتظره منذ أسبوع وسهرت من أجله.

حب الاستطلاع وقوة الذاكرة، وجمالية المدينة قادتني إلى زيارة لطيفة تعني الوداع لعاصمة القهوة ومفارش القات، ذهبت إلى الأماكن السياحية والأبنية التاريخية والقلاع الأثرية والساحات الشهيرة للمدينة، والجامعات العريقة، ولم أنس المظاهر الحضارية والأحياء الشعبية والأسواق التي تعج بالسلع والزبائن.

وفي أول وهلة للزيارة الوداعية، يد الجمال أخذتني بعيدا إلى عمق أديس أبابا فتجولت داخل الأسواق والمولات التجارية، وكدتُ أن أكتب القصائد على وقع تأثير الجمال والإيقاعات الشجية للحياة. دخلت في صمت رهيب عندما دخلت مدينة الملاهي واللعب، وركبت آلة إلكترونية ترتفع تارة وتهبط تارة أخرى، وأعتقد أنها خصّصت للمرح والضحك العفوي وربما لمنح جرعات من الحبور ضد التوحد والنفسيات التي تنتج عن أنماط حياتنا المتسارعة في المدن الكبيرة.

وأخيرا ودعت المدينة في ليل بهيم وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا متأثر بمظاهر الثراء في الملاهي والأحياء الراقية، والفقر والبؤس الذي طبع على الوجوه مسحة حزنة صامتة. في هذا الليل لم تكتحل أجفاني بالنعاس بل كنت أعاني موجات غامضة من التعلق ومراقبة السماء المرصعة بالنجوم، والمدينة الهادئة وضوءها ونغمات الوداع التي تصك في أذني مشاعر الرحيل.

هرر.. مدينة تأبي النسيان

هرر أو "أدَري" كما يحلو للأجيال القديمة من الصوماليين أن يسموها، مدينة قديمة وتاريخية ومنارة روحية وعلمية وقلعة حصينة من قلاع الإسلام العريقة حتى زاحمت على الصدارة فترة من الفترات المدن الإسلامية الشهيرة في العالم، بل كان المسلمون في الشرق الأفريقي يضعونها من حيث القداسة بعد الحرمين وبيت المقدس مباشرة. تاريخها حافل بالإنجازات والبطولات والكفاح ضد الغزاة والحروب الصليبية، وسجلها مرصع بالجهاد والنضال والإباء.

تتميز المدينة بموقعها الإستراتيجي وهوائها الطلق واسمها المقرون بالإسلام والنضال على مر العصور، وتقع اليوم في شرق إثيوبيا بعد أن وقعت على أيدي أباطرة اباسينيا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وتشكل هي والمدن والقرى الواقعة على ضواحها إقليما ذا حكم محلي خاص حسب التقسيم الإداري لإثيوبيا، وتبعد هرر عن أديس أبابا عاصمة إثيوبيا حوالي500كم كما تبعد عن مدينة زيلع الأثرية في شمال الصومال التي انتقلت إليها الزعامة الدينية والروحية والتاريخية حوالي200 ميل تقريبا، وتقع المدينة على ارتفاع 600 قدم فوق سطح البحر، وتحيط بها الجبال والسهول والوديان من جميع الجهات، مما جعلها مدينة جميلة من جانب ومحصنة من الغارات من جانب آخر.

تاريخيا لا يوجد قول متفق عليه - حسب علمي - في تاريخ تأسيسها وبناء أول بيت في هرر، بل تتضارب الأقوال وتختلف الآراء وتتعدد الروايات حولها، ولكن من المتفق عليه أنها كانت قبل القرن السادس الهجري جزءا من سلطنة عدل التي كانت زيلع عاصمة لها، والتي كانت تتمتع بنفوذ واسع وقوة عسكرية واقتصادية كبيرة في تلك الحقبة، وقد وصلت إمارة عدل في ذروة اتساعها في عهد السلطان عمر الدين بن محمد قرب البحيرات العظمى في وسط إفريقيا، وتناوب على حكمها عدة قوميات وشعوب مختلفة وإن كان الإسلام حكم هرر في عصر ازدهارها وفي أوج شرفها وعزها التليد، وحينما كانت الاسم الأبرز والحضارة الوحيدة في شرق أفريقيا قاطبة.

لم تكن هرر مدينة ذات وزن يذكر علميا واقتصاديا قبل أن تكون العاصمة الوحيدة للإسلام في شرق إفريقيا، وحتى قبل مجئ المغوار أحمد جري لم تكن ذات تاريخ وثقل حضاري ومنارة علمية شهيرة، بل كانت مدينة صغيرة تقع على تخوم الحبشة ويغير عليها الصليبيون بين فينة وأخرى، وبعد أن تولى مقاليد حكمها القائد الموهوب أحمد إبراهيم الأعسر تحولت من مدينة صغيرة بائسة لتكرار العنف والنهب، إلى منارة للعلم وموئل للدين وتحفة معمارية رائعة أصبحت بجدارة واستحقاق حاضرة الدولة الإسلامية، ومكاناً يتسابق إليه الجميع لجمالها العمراني ونشاطها التجاري والعلمي وحيويتها الكبيرة.

ارتبط اسم هرر ارتباطا وثيقا بالإسلام وتذكر كتب التاريخ أنها كانت قرية صغيرة غنية بالقهوة ومنطقة مغمورة لا يعرف الناس سوى اسمها، ولكن اشتهرت وباتت ذائعة الصيت حينما أصبحت معقلا للإسلام ومهدا للحنيفية السمحاء في القرن الإفريقي، وحينما سكن فيها السلاطين والعلماء الصوماليون الذين جاءوا من الساحل الشرقي لإفريقيا إلى الهضاب العالية غربا بحثا عن منطقة آمنة ومدينة تستحق أن تكون عاصمة للإسلام ودولتهم الشابة بعد أن غار البرتغاليون على مدينة زيلع وأحرقوا المساجد وهدموا البيوت والمعالم الحضارية لمدينة زيلع منبع الإسلام في أفريقيا.

لم يدم الانحطاط والتدهور كثيرا في هرر بعدما أصبحت العاصمة العظمى للمسلمين، بل أصبحت في غضون عقود قليلة درة المنطقة ومنارة علمية ودينية مشهورة يؤمها الطلاب والعلماء والمؤرخون والأدباء لمكانتها المرموقة ونشاطها الديني والتجاري والحضاري، ما جعلها مشهورة بين أندادها في القارة وشبه الجزيرة العربية بمدينة العلم والمعرفة والسلطة والنفوذ.

بدأت سلسلة الحكام الزيلعيين الذين امتلكوا مقاليد الحكم بعد مجيء السلطان أبوبكر الذي نقل الإمارة والسلطة من زيلع إلى هررعام 1521م بسبب موقع زيلع المفتوح للبحار والمخاطر، وكثرة غارات البرتغال والاستعمار الأوروبي الذي كان يطمع في نهب خيرات شرق إفريقيا واستعمار شعوبها المسلمة.

وحكم هرر منذ بداية تاريخها سلاطين وأمراء وصلوا لأكثر من سبعين سلطانا آخرهم الأمير عبد الله الذي هزمه منيليك عام 1887م عام النكبة الحقيقية لشعوب شرق إفريقيا المسلمة، ويعتبر سقوط هرر على أيدي النصارى من أكثر الحوادث ألما في قلوب المسلمين، كانت بداية لنهاية الزعامة الإسلامية الحقيقية في القرن الأفريقي بعد دخول الدول الاستعمارية خط الحروب ومساعدتهم لأشقائهم المسيحيين مما رجح كفة الحبشة بعد أن أعطتهم البرتغال والدول الكولونيالية المال والعتاد والتشجيع النفسي على ابتلاع بلاد المسلمين.

دام حكم الزيلعيين لهرر فترة من الزمن، كانت المدينة تتعرض للهجمات والغارات المتتالية التي لم تجد من يدافع عنها ويذود عن حماها بضعف المسلمين وانهماكهم بأمور جانبية وتشتت قوتهم وتناحرهم الداخلي، ولكن قيض الله للإسلام قائدا ربانيا أعاد الحق إلى أهله وحارب الصليبين حتى أجبرهم على الفرار والعيش في الهضاب والبراري بعيدا عن التجمعات السكنية والمدنية وطرق التجارة القارية، ويعد الإمام أحمد جري أبرز قواد المسلمين في شرق افريقيا على الإطلاق وقاد جهادا مقدسا ضد الاحتلال

وخاض معارك فاصلة وكفاحا دام عقودا حتى استشهد عام1543م في معركة رهيبة بين الأحباش والجالا والبرتغال من جهة وبين المسلمين بقيادة القائد المغوار من جهة أخرى.

وبعد استشهاد القائد ضعفت شوكة الدولة وتراجعت قوتها، وجاء بعده سلاطين لم يكونوا على قوة وحنكة وسياسة القائد الأعظم، ولم يتمتعوا بكاريزميته الجذابة وشخصيته القوية، وبعد فترة جاءت الحملة الخديوية في عهد الخديوي إسماعيل باشا وخضعت هرر للحكم العثماني بواسطة المصريين عام 1874م، الذين بنوا حضارة مازالت ماثلة للعيان في كل ركن من أركان هرر، حيث أسس العثمانيون الحدائق والبساتين والمراكز العامة والمستشفيات والمدارس والأسواق، كما بنوا أجمل القلاع والمتاحف والمباني مما جعل المدينة إسطنبول شرق أفريقيا وعنوان الجمال والحضارة بلامنازع، ومنارة للدين لا ينطفئ نورها.

كانت هرر في تاريخها الطويل وأيامها المتألقات مدينة روحية اجتمعت فيها جميع القوميات والشعوب والعرقيات المسلمة في شرق إفريقيا، فكانت قوتها في تنوعها التاريخي والعرقي والإنثربولوجي. والتعدد القبلي والقومي الذي كان يعيش بوئام وتسامح كبير تحت ظل الإسلام الخالد جعل هرر مركزا حضاريا مهما ومدينة لكل المسلمين بغض النظر عن إنتمائهم القبلي والعرقي، ولم تعد هرر بعد أن أصبحت إمارة ورمزا إسلاميا مقدسا مدينة ضعيفة مستباحة كما كانت قبل عهد الإمام، بل أصبحت إمارة قوية ومدينة ذات نفوذ واسع لا يستطيع الكفار والصليبيون الدخول إليها، وأحيط بها السور العظيم الذي أصبح معلما من معالم هرر في عهد أمير نور بن مجاهد.

وقد يروي لنا المستكشف الإنجليزي ريتشارد بيرتون (Richard Burton)مشاهداته بعد أن دخل هرر منتحلا شخصية زائفة ومتشبها بشيخ عربي مسلم بعد أن تعلم العربية بطلاقة في عدن وتوغل في الحس الإسلامي وشعائر الدين في الهند، يقول بيرتون: ترددت على مسامعي هرر وكيف أصبحت مدينة ذات هيبة خاصة على نفوس المسلمين في شرق إفريقيا فعزمت الذهاب إليها والتعرف بها عن كثب ومعرفة تاريخها وتراثها وحضارتها التليدة ويقول في كتابه الثري " أول رحلة في شرق إفريقيا" الذي أصدره عام 1854م "إن تلك المدينة التي يسكنها المسلمون ورئيسها المستقل وخليطها العجيب في السكان ولغتها المجهولة وعملتها الخاصة تستحق مشقة الاستكشاف".

لقد أبهرت هرر أعين المستكشف وأدهشته بغزارة علمها وحنكة قائدها وجمال قصورها وزينة حدائقها وروعة أسوارها وجوها المنعش، والفنون الكثيرة التي تغني للمجد والجمال وتعمق شعور العظمة

والإحساس. ونال التخطيط العمراني لهرر استحسان المكتشف، لأن هرر لم تكن مدينة بنيت عشوائيا مثل الضواحي والمدن المغمورة، بل كانت مدينة بناها مهندسون ومعماريون مهرة جاءوا من كل حدب وصوب، لتكون العروسة جميلة تليق بعظمة الإسلام وتاريخه العريق، وهذا مما مهد لهرر أن تصبح مدينة عالمية حيث أدرجتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة (اليونسكو) عام 2006م ضمن لائحة التراث العالمي.

ومنذ أن رحل إليها السلاطين الزيالعة واستوطنوا فيها اشتهرت المدينة بكونها العاصمة التاريخية للقومية الصومالية، ولم تزل كذلك حتى جاء منيليك واحتل المدينة وحول مسجدها الكبير إلى كنيسة في وقاحة وعنصرية، وأذاق أهلها العذاب والتنكيل عام1887م ليكون هذا العام أسوأ عام مر على المسلمين في شرق إفريقيا عامة والقومية الصومالية خاصة، وبعد هذه اللطمة القوية على جبين الحضارة أصبح من المحتوم وجود عاصمة تمثل القومية الصومالية وبعيدة عن الأيادي النصرانية فأصبحت مقديشو عاصمة بعد هذه النكسة.

كان المشهد فظيعا وقاتما، جنود منيليك الثاني يعيثون في الأرض فسادا وفجورا ويقتلون البشر والحجر والتاريخ ويشوهون الجغرافيا والمقدسات الإسلامية، يغيرون المعالم ويلطخون الشرف والكرامة ويهدمون المراكز ويحولون الجوامع إلى كنائس والمآذن إلى صليب ويجبرون المسسلمين على الردة واعتناق المسيحية، المشهد كئيب ومرعب حيث انتهكت الأعراض واغتصبت الحرائر، حرائق وأنين ودخان يتصاعد في البيوت والمكتبات العامرة بالعلم والثقافة والأدب، الدماء تسيل بين الطرق والأزقة وفي الوديان المحيطة بهرر ، هزم المسلمون وسيطرت أباسينيا على مقاليد الحكم فاضطهدت الشعوب ونهبت الخيرات واختفت الجرأة والإباء وخارت الهمم.

الكارثة كانت كبيرة والمصيبة عظيمة في نفوس المسلمين ورغم ذلك لم يستسلم المسلمون في القرن الإفريقي بوقوع عاصمتهم في أسر الصليبين، بل جردوا الجيوش وكوّنوا الكتائب والألوية لاستعادت هرر من سيطرة إمبراطورية أباسينا المسيحية إلى حضن الإسلام، ولقد آثر الصوماليون بعد أن أصبحوا الممثل الوحيد للقضية مواجهة العدو ومقارعته واستطاعوا هزيمة الأحباش ودحض حيل الاستعمار في كثير من الأحيان، لأن الاستعمار مهما يكن ومهما تنوعت أسلحته وعتاده وقوته فإنه يفتقد إلى عنصر جوهري وأساسي في ترجيح الكفة لصالحه وهو الإيمان بعدالة القضية والانتماء إلى هذه التربة وإلى هذا الشعب الباسل.

ترفض طبيعة الأشياء أن تتغير! لقد زرت هرر عدّة مرات وكل مرة كنت ضيفا على النسيم العطري والتاريخ المزركش بالدم المشوب بالعزة والكفاح، ولم أتمالك يوما عيني، بل سكبت الدموع مدرارا حين رأيت أثار القوم وبقايا الحضارة والمتاحف الرئيسة للمدينة التي هي شاهد حي على تاريخ وطني وتراث قومي وحضارة إسلامية.

وشعرت بغيوم الإيمان تمطر في داخلي حين تجولتُ في الأماكن السياحية والقلاع الشهيرة وقصور السلاطين التي ينطق فيها الجمال وتبوح الأصالة وتُغنَى لليالي البهجة وعظمة الإسلام الخالدة، كما كان الشعراء الحالمون على كنف الدولة يغنون للسلاطين في الأمسيات الجميلة، والسمر على ضفاف الأدب والعزف على أعذب سيمفونية لدولة القوافي.

مرت السنون وتوالت الأيام وتغير الحكام! ومعهم تغير التاريخ والمعالم والجغرافيا وسكان هرر، ولكن مساجدها مازالت تصدح بكلمة الحق ومازالت القصور تبتسم لمحبيها، وتدل الزوار على فصول قصة جميلة وبقايا حضارة عريقة مضت وأصالة حاضرة غائبة تذكرنا بعراقة الإسلام وروائع القصص وبصمات الشعب وأجواء روحانية لتراتيل القرآن، حين كان الإمام يسامر جلساءه من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والندماء، ونار الجهاد توقد على بعد مئات الكيلومترات من شمال هرر لنشر الإسلام.

أوغادين.. الصراع العالمي المصغر

لكي يفهم القارئ المعضلة الصومالية التي أبت الحلول يجب أن نشرّح جثة التاريخ ونعيد عقارب الزمن إلى الوراء وتحديدا إلى القرن التاسع عشر وما قبله من القرون التي كان الشعب الصومالي يحارب ويناضل من أجل البقاء وإثبات الذات وحماية مقدساته ومبادئه وديارة الممتدة بامتداد المحيط والإبل في القرن الإفريقي بعدما هاجمت عليه القوى الأوروبية والمحلية من أجل قطع أوصال شعبه وتمزيق وطنه بسبب موقع الأراضي الصومالية المتميز وكون الصوماليون حجر عثرة في طريق طموحات الإمبريالية العالمية المتمثل في نهب الخيرات وتحويل المنطقة إلى بحيرة مسيحية ونشر الأيديولوجية الغربية في أوساط الأفارقة.

يجب أن نغوص في أعماق المأساة التي بدأت منذ أن وطأت الأقدام الأوروبية على القرن الأفريقي في القرن السادس عشر الميلادي. فمنذ مؤتمر برلين1884-1885م الذي أرسى قواعد التوسع والهيمنة الأوروبية على أفريقيا من أجل السيطرة على مصادر القوة والثروة لتأمين المواد الخام وإيجاد أسواق عالمية للبضائع والمنتجات الأوروبية، بدأت الحملات والكشوفات الجغرافية ووصلت البعثات التبشيرية والجيوش إلى أفريقيا فقهروا الشعوب بقوة البارود والتفوق العسكري والمادي، ونجم عن هذا واقع أفريقي جديد عنوانه الذل والإهانة ونهب الممتلكات ورسم الحدود بطريقة تخدم مصلحة الاحتلال وتمزيق الشعوب وطمس المعالم التاريخية والأثرية لأفريقيا الزاخرة بالتاريخ والفنون والموارد.

صوماليا كان الوجود الأوروبي أقدم من هذا الزمن بكثير، حيث وصل البرتغاليون إليها عام1515م لنجدة الحبشة، وقد تمكنت النجدة البرتغالية من قتل الإمام أحمد الغازي وتدمير المدن التاريخية والمواقع الأثرية وحرق المساجد. ومنذ بداية التوسع للإمبراطورية البريطانية نحو أفريقيا كان الصومال الكبير من الأراضي التي تقع ضمن اهتماماتها لموقعها وثرواتها، وبعد أن احتلت الأخيرة مدينة عدن أصبحت السواحل الصومالية على مرمى حجر ونقاطا مهمة من أجل التمكين وبسط النفوذ في العمق الأفريقي وتأمين الملاحة البحرية العالمية.

لم تدم مراقبة البريطانيين للسواحل الصومالية طويلا ففي عام1883م وسعت الإمبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس نطاق سيطرتها لتضم شمال الصومال مما أجبر الحامية المصرية على الخروج عنها في خطوة اعتبرها السكان المحليون غير أخلاقية وبعيدة عن المسؤلية الملقاة على عاتقها، لأن المصريين كانوا يحكمون الصومال نيابة عن الدولة العثمانية.

وبعد أن سيطر الإنجليز على الأجزاء الشمالية للصومال واصل زحفهم صوب العمق ونحو أوغادين المأزوم بسبب صراعاته ضد أباسينا، لقد احتل الإنجليز إقليم أوغادين الذي كان وما زال يحمل إرثا ثقافيا وتاريخيا للصوماليين بعد معاهدات مع شيوخ القبائل وأعيان المنطقة، ولكن وخلافا لكل المعاهدات وقع الإنجليز عام1894م اتفاقية سرية بينه وبين الحبشة مفادها منح أوغادين للأخيرة التي كانت تطمع منذ سقوط مدينة هرر في ابتلاع الصومال والوصول إلى المحيطات والمرافئ المفتوحة للتجارة العالمية. وكان في بال أباطرتها أن الشعب الصومالي لايستحق هذه السواحل الممتدة أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر، في حين لاتملك إثيوبيا موطئ قدم في المحيطات والبحار مما يجعلها عاجلا أو آجلا دولة حبيسة تعيش تحت رحمة الموانئ الصومالية خاصة وأن الشعب والفقر يزدادان هندسيا.

وبعد مرور عدة عقود وفي عام1948م بات واضحا أن بريطانيا تريد الغدر بالصوماليين وإعطاء الحق لمن لا يستحق بعدما وقعت جميع الأقاليم في قبضة الإمبراطورية الإثيوبية وسلم الإنجليز مفتاح أوغادين للحبشة بطريقة علنية واستفزازية لمشاعر المواطنين، ولكن بدأت إرهاصات التنازل الإنجليزي للحبشة عام1942م عندما منحت إثيوبيا إقليم جكجكا والأراضي الواقعة غربه لإثيوبيا تمهيدا للخطوة القادمة.

بدأ الصوماليون انتفاضات شعبية عارمة وعمت المظاهرات جميع المدن وأرسلوا البرقيات والوفود إلى العواصم العالمية، ولكن الاستعمار كعادته أجهض الحلم وقتل الأبرياء في جكجكا ومعظم المدن الصومالية، وهكذا فقد الصوماليون جزءا عزيزا من تاريخهم وتراثهم وبات وطنا لغرباء منحتهم إياه بريطانيا التي كانت تسعى إلى استعباد الشعب ونهب الثروات ووقف المد الإسلامي وكبح جماح الحركات الجهادية التي ضيقت الخناق على نصارى الحبشة حتى كادت أن تتلاشى وأن تذوب في الوسط الإسلامي.

أما الإقليم الخامس أنفدي (المقاطعة الحدودية الشمالية لكينيا) فلم يكن أحسن حظا من الأقاليم الصومالية الأخري ففي خطوة استعمارية واضحة المعالم أقطعت بريطانيا هذا الإقليم لكينيا التي كانت قبل مجئ الاستعمار شعوبا وقبائل لم تجمعهم دولة أو لسان أو كيان، ومن العجيب أن المحتل يؤسس دولا من العدم في حين يقطع أوصال الأوطان والشعوب المتجانسة دينيا وعرقيا وتراثيا.

وفي غضون السنوات التي سبقت الاستقلال الكيني كان الصوماليون يواصلون المظاهرات ويندون النية الإنجليزية لإلحاقهم إلى كينيا، وفي استفتاء شعبي عام اختار الشعب الانضمام إلى الصومال، ولكن وفي سياسة مشابهة لغدر الإنجليز على إقليم أوغادين واجه الاحتلال هذه الرغبة الوطنية بمزيد من القمع وإراقة الدماء ومصادرة الحريات والحقوق.

تأخر إيطاليا عن الوصول إلى الصومال نظرا لظروفها الداخلية فقد بسطت نفوذها في معظم أقاليم الجنوب بعد الاتفاقية الشهيرة بين الشركة البريطانية لشرق أفريقيا وكاليني ممثل إيطاليا وسفيرها في لندن التي بموجبها تنازلت بريطانيا للحكومة الإيطالية عن المناطق الساحلية بين كسمايو ومقديشو عام1889م، أما جيبوتي فكان الفرنسيون يواصلون سياساتهم العنصرية والاضطهادية ضد الشعب الصومالي الأعزل.

ورغم تكالب الأعداء لم يستسلم الصوماليون بل واصلوا كفاحهم ضد الإمبريالية العالمية التي مزقت أجزاء وطنهم، ورفعت حركة الدراويش لواء التحرير والمقاومة الوطنية وأحرجت الترويكة الأوروبية (فرنسا، بريطانيا، إيطاليا) إضافة إلى الحبشة، ورغم ذلك لم تستطع آلة الاحتلال كبح جماحهم وترهيبهم، مما جعل صورة المحتل مهزوزة أمام العالم وخاصة بريطانيا التي كانت تقود المعارك فكان ردة فعلها هجوما بريا وبحريا وجويا واسعا شاركت فيه ولأول مرة طائرات حربية تقصف الأبرياء في سابقة أولى من نوعها في أفريقيا التي لم تشهد قصفا جويا قبل قلعة تليح التاريخية عام1920م.

وبعد انتهاء حركة الدرواويش ووفاة قائدها تمكن المحتلون من المكوث في الصومال الكبير دون مقاومة تذكر، وبعد عقود بدأت حركات تحررية من نوع آخر، وبدأ حلم الوحدة يداعب الشعب من جديد. لكن كان للإنجليز سياستهم الجاهزة: تقسيم الصومال وتفكيكها وإضعاف الشعب المحارب فنال الشمال استقلاله من بريطانيا في26يونيو1960م لينضم إلى الجنوب الذي تحرر من إيطاليا في نفس العام وكوّنا جمهورية الصومال، في حين تفنن الإنجليز في إبعاد الحلم الصومالي عندما منح نهائيا إقليمي أوغادين وأنفدي لإثيوبيا وكينيا على التوالي.

وهكذا كانت مأساة الصوماليين منذ فجر الاحتلال صناعة بريطانية بامتياز، والصراع الأوروبي الصومالي صراع المصالح والمبادئ، ففي بداية التدفق الأوروبي لأفريقيا كانت مسرحا للقوى الكبرى، وبعد أن اتفقت هذه الدول على تقسيم الكعكعة الصومالية بدأ صراع من نوع آخر صراع الأيديولوجيات والمباديء، وأصبحت الصومال ميدانا مفتوحا للتحالفات العالمية وخطا ساخنا للشيوعية والرأسمالية في حقبة الحرب الباردة.

السيد محمد عبد الله حسن وثورة الدراويش

كان عام ولادة السيد محمد عبد الله حسن مشهورا في القطر الصومالي، إذ ذاع صيته وعمّ خيره وانتشرت بركاته، حتى أطلق عليه الصوماليون بـ غُبيسَني Gobeysaneأو (الشهم) لرخائه ورغد العيش فيه، والحياة السهلة والأمن المستتب في الربوع الصومالي.

•مولده ونشأته:.

ولد السيد محمد عبد الله حسن عام 1864م على الأرجح في قرية قوب فردود (Qob Fardod) الواقعة قرب مدينة بوهودلي من إقليم توغطير في الشمال الصومالي، هاجر والده من إقليم أوغادين (Ogaden) الذي كانت تشتعل فيه آنذاك المقاومة الكبيرة للمسلمين بقيادة أمراء إمارة هرر الإسلامية ضد الحبشة والصليبين الغازيين إلى شمال الوطن الصومالي، وصهر واحدة من أعرق الأسر والقبائل الصومالية التي كانت تعيش على أنحاء بوهودلي.

كان طفلا نجيبا وولدًا لبيبا منذ نعومة أظفاره، وظهرت عليه علامات النجابة والنباهة وهو دون العاشرة من عمره، فحفظ القرآن الكريم والمتون الدينية وكتب الفقه، واللغة والأحاديث، حتى أصبح ماهرا وولدا يشار إليه بالبنان في العلم والمعرفة والفصاحة والشجاعة والفروسية، وأخذ لقب الشيخ الذي كان لا يطلق في ذاك الوقت إلا العلماء الكبار، وأصحاب العمائم وهو في التاسعة عشر من عمره، منحه الله ذاكرة قوية وشخصية قيادية في كل الميادين، وشعراً يتدفق من قريحته، وخيالا واسعا، وحكمة تجري علي لسانه حتى برز بين أقرانه وأترابه وهو لم يتجاوز عقده الثاني.

تربى في عز أسرته وفي كنف والده وبين أخواله المشهورين بالشجاعة والفروسية ودولة القوافي والأدب، وكان شغوفا بالرماية والفروسية، مولعا بقصص الأبطال وتاريخ المجاهدين العظام، وكان يظهر تجلدا كبيرا في الألعاب الطفولية والشجار الصبياني، وظهرت قيادته في صغره وفي مرحلة المراهقة.

•رحلته إلى رحاب الديار المقدسة: -

في عام 1892م وعندما درس معظم المعارف الدينية والثقافية المتاحة في بلده والعلم الذي كان متوافرًا في منطقته، سافر إلى الديار المقدسة مشيا على الأقدام مع مجموعة من أصحابه، أمّ وجهه شطر الحرمين الشريفين فنهل العلم من معين مكة المدرار ونمير المدينة الذي لا ينضب، وأصبح طالبا للعلم في مهبط الوحي وأرض الخيرات والبركات هناك في الحجاز وزوايا المساجد العتيقة، وعاش مع أسفار العلم وأبواب المعرفة في دار الهجرة وجوار الكعبة المشرفة، فصقلت رحلته إلى الديار المقدسة شخصيته ومنحته بعدا دينيا وثقافيا وفكريا لم يكن من الممكن أن يجد في بلده وبين أهله ووسط عشيرته القاطنة هناك في جكجكا وما حولها وعلى تخوم بوهودلي وسهول نغال الفسيحة.

عاش مع المناضلين والعلماء الأجلّاء جنبا إلى جنب، وأعطاه الاحتكاك الدائم لهم خاصة في موسم الحج والعمرة معرفة أوسع لما يجري في العالم وخبايا المقاومة النشطة في العالم الإسلامي، وفي هذه الفترة زار السيد محمد عبدالله حسن مصر وعاش في القاهرة فترة من الزمن، وزار الأزهر الشريف والتقى علماءها الأجلاء، وفي طريقه إلى الصومال مر على السودان ومكث برهة من الزمن في منطقة السواكن التي كان المهدي السوداني يدرب جيوشه فيها، ويجمع رجاله الذين خاضوا معارك مريرة ضد الاحتلال الإنجليزي، فكانت هذه الزيارة بمثابة شعلة أضاءت له طريق الجهاد، وتجربة ناجحة بكل المقاييس استفاد السيد منها أمورا كثيرة مثل التكتيك العسكري والقيادة الميدانية والانضباط الحركي والتنظيمي وإدارة المعارك في ظل ظروف أمنية صعبة وحالة معيشية معقدة.

ولم تكن هذه الزيارة أو الحياة في الحجاز ما منحته الحس الوطني والرغبة الجامحة لمقاومة المستعمر، بل كان مستاء من الحالة المعيشية والحياتية لشعبه والحالة المزرية التي دخلها الوطن بفعل السياسة الهوجاء للمستعمر قبل أن يسافر إلى الديار المقدّسة.

•العودة إلى الديار وتأسيس حركة الدراويش: .

وبعد سنتين من رحلة المعرفة والتجارب رجع إلى الوطن وهو متسلح بالعلم والمعرفة والفكر الثوري الكبير الذي طرأ عليه، وهو يعيش في مكة عندما سمع عن الحركات الثورية والجبهات المسلحة التي تحارب الاستعمار وتسعى إلى تحرير بلدها وطرد المحتل وأذنابه في ديارهم.

كانت الأخبار المتتالية التي تتحدث عن البطولات والملاحم الجهادية في العالم الإسلامي تملأ أذنيه وتروق للسيد محمد وتذكي روح الجهاد في نفسه التواقة إلى الحرية ونفض غبار الذل والاستكانة، ويقول بعض المؤرخين إنه عندما رجع إلى الصومال سأل طفلا عن اسمه فقال له: اسمي جون!، فسأل السيد الولد وماذا كان اسمك قبل ذلك: فقال الولد: علي!، فاستشاط غضبا وتحول إلى جمرة لاهبة، وقال كلمته المشهورة "إن لم نحارب اليوم سنبحثها بعيدا في الغد"، أي إن لم نقاوم ونموت من أجل دفاع ديننا ومقدساتنا فستنتصر موجات التنصير وتكون الصومال دولة مسيحية او يعيش فيها جالية مسيحية كبيرة، عندها سيكون بحث الإسلام وعودة من ارتد عن الدين بعيدا جدا.

كما يروى أن حاكما إنجليزيا قتل مؤذنا لارتفاع صوته بالآذ، وعندما تواترت هذه الأخبار إلى السيد، قرر تأسيس النواة الأولى لحركة الدراويش التي ملأت الدنيا جهادا وتحريرا وشغلت الناس، وجعلت حياة الاستعمار عبارة عن حروب متواصلة ووقائع متتالية.

لقد أذاقت الدراويش الاستعمار الأوروبي والأفريقي الويلات تلو الويلات، حتى أصبحت المقاومة الدراويشية واحدة من أعتى الحركات التحررية التي حملت لواء الاستقلال وطرد المحتل في العالم أجمع، ولعل مدى الاهتمام الكبير الذي أولاه الإنجليز لهذه الحركة وما جمع لمحاربتها من الجيوش والقواد، وتخصيصه ميزانيات ضخمة لإجهاضها ومحاربتها، واختياره أمهر قادته تدلنا على أن المستعمر كان يرى تحت الرماد وميض نار، وكان يرى أن الدراويش هي أخطر حركة مقاومة نشطة ضد الإنجليز في العالم أو على الأقل في أفريقيا.

كانت ثورة الدراويش الشرارة الأولى والحراك الأهم الذي حرك الساحة الصومالية وغيّر المفاهيم وصحّح الأخطاء التاريخية التي وقع عليها الصوماليون، ووجهت بوصلة الشعب إلى وجهتها الصحيحة، من الحروب العبثية والغارات العشائرية والصراعات القبلية، إلى الجهاد في سبيل الله وحمل السلاح ودحر المغتصب للأرض والانخراط في النضال الذي يستهدف إلى تحرير الإنسان الصومالي قبل الوطن.

•الشعب الصومالي وثورة الدراويش

لقد أعادت ثورة الدراويش الاعتبار للشخصية الصومالية التي ظنها الاستعمار بهوسه وبجنونه أنها ضعيفة ومشتتة ولا تقوى المقاومة، ولا تستطيع إعداد جحافل من الجيوش تواجه المستعمر وأذنابه لانشغالهم بأمور تافهة واحتكاكات داخلية وصراعات قبلية لا تنتهي.

كان السيد محمد عبد الله حسن درّة نادرة وشخصية فريدة لا تتكرر في التاريخ الصومالي، وعى شعبه من أقصاه إلى أقصاه عبر رسائله وأخباره وأشعاره الحماسية التي كانت الأسفار يتناقلونه والأجيال يحفظونه، ودعا الصوماليين إلى الجهاد ومحاربة الاستعمار ونفض غبار الاستكانة، ولوصول هذا المغزى العظيم كان لابد من كسر حاجز الخوف والانطوائية لبعض القبائل، وإزالة الشك وإخلاص النوايا لبعض القبائل التي كانت تخاف من زوال ملكها وسلطنتها إن ناصرت السيد وأعانته ووقفت إلى جانبه، وأيقن السيد بحنكته السياسية ورؤيته الثاقبة وإيمانه القوي أن الثورات لا يمكن أن تنجح أو تدوم مالم تجد حاضنة شعبية تحوى المقاومة وتؤزر المجاهدين فسعى إلى الصلح والمهادنة.

•شخصية السيد محمد عبد الله حسن:.

كان السيد محمد لغزًا محيرًا في جميع الأصعدة والميادين، صوماليا لم يكن معتادا أن يبرز العلماء والشيوخ في هذه الفترة لمحاربة الاحتلال، بل كان معظم الطرق الصوفية في الصومال تهادن أو تميل للمستعمر مالم تتعاون معهم، إضافة إلى شخصية السيد محمد عبدالله حسن المثيرة فهو قائد محنك، وشيخ بارز، وسياسي لبق، وشاعر لا يشق له غبار، وشجاع قلما نجد مثله في الكتب وأروقة التاريخ ، وفي نظر المستعمر كان كهلا مجنونا لا يقدر الظروف، ولا يعرف الواقع، ولا يدري قوة الإنجليز وأعوانهم وآلياتهم الرادعة لمن سولت نفسه أن يقاوم أو يحارب ضدهم.

ومن أولى تصرفاته وفي فاتحة كلامه وتحركاته في كافة المحاور، أدرك الصوماليون أنهم أمام شخصية مغايرة تحمل الشجاعة الصومالية في أبهى صورها، ورزانة العلماء في أسمى معانيها، وحنكة القواد في ألمع حالاتها، وجمال الأدباء في أنضر أحوالها، وأنه لا يوجد في الساحة الصومالية شخصية أمثل وأقوى من السيد لقيادة التحرير وامتلاك زمام الجهاد لنصرة المستضعفين، وأدرك المستعمر أنه أمام عظمة الإنسان الصومالي وأمام رجل لا يخاف من سوطهم ولا يسيل اللعاب إلى جزرتهم.

ولقد أظهر السيد محمد عبدالله حسن حنكه سياسة وفهما متقدما حينما هادن بعض القبائل التي كانت تضمر الحقد والحسد، أو كانت تميل إلي نصرة المستعمر، وكان يفر الاندفاع إلى حروب عبثية لا طائل من ورائها فكان نعم القائد لتميزه العسكري وتفوقه التكتيكي وقوته الفكرية والأدبية وفكره الثاقب وشجاعته الكبيرة، ولم يكن شجاعا متهورا، بل كان شخصية اكتملت عليها كل صفات القائد الناجح من الشعور بأهمية الرسالة، والشخصية القوية، والإخلاص، والنضج، والآراء الجيدة، والطاقة، والنشاط، والحزم والتضحية، ومهارة الاتصال والتخاطب، والقدرات الإدارية، وجدير بشخصية اجتمعت عليها هذه

الصفات أن تأبى الضيم والظلم فقرر السيد مع رفاق دربه وخصوصيته وعدد من أقاربه وأخواله مجاهدة الكفار وأذنابهم وطردهم من تراب الصومال.

وبفضل هذا الملهم أظهر الشعب الصومالي بسالة نادرة وشجاعة منقطعة النظير لإقلاع جذور المستعمر وطرده من الوطن، وأيدت كل شرائح الشعب المقاومة المشروعة والجهاد القائم، ولم يواجه أية معارض تذكر سوى المرتزقة والمنتفعين بوجود الاستعمار، أصحاب الضمائر الميتة والأعمال الفاسدة، وبعض شيوخ القبائل الذين يشكلون جيوبا للمستعمر.

• المعارك الفاصلة في تاريخ الدراويش

كان النصر حليف الدراويش في معظم النزال والمعارك البطولية ضد الاستعمار وأذنابه، وإذا نظرنا المواقع رغم كثرتها ندرك مدى عمق إيمان هذه الفئة المؤمنة، ونرفع القبعة وحاجب الدهشة عندما نقارن إمكانياتهم البسيطة بامكانيات العدو المدجج بأحدث الأسلحة وأقوى العتاد والعدة، علما بأن الاستعمار لم يكن دولة واحدة بل كان عبارة عن أوروبا وأفريقيا أمثال الإنجليز، والطليان، وفرنسا، والحبشة، وأوباش من الهنود والأفارقة ومرتزقين صوماليين.

ولعل في موقعة "جدبالي" JIDBAALE خير دليل على مدى إيمان الدراويش وبسالتهم وحماستهم وتسابقهم للشهادة ودحر العدو وإيمانهم بأنهم ماضون إلى إحدى الحسنيين: إما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا.

كانت مساحة الصومال كلها مسرحا ساخنا لجهاد الدراويش، وتزيد الحيرة عندما نعرف أن ثكنات الدراويش كانت تقع على الساحل الشمالي للصومال أو مناطق هَوْد وبوهودلي وتليح وولوال وورطير في أوغادين، وعندما نضيف ما ذكرنا إلى قلة الإمكانيات وتواضع عدتهم مقارنة بالترويكا الآثمة) الإنجليز والطليان والحبشة) تزيد الدهشة وتكبر يقيننا التام بنصر الله لهم، ولكن تبطل الدهشة عندما نعرف عظمة القادة، وكفاءة إدارتهم، وحنكتهم السياسية، وعبقريتهم، وإخلاص المجاهدين وعقيدتهم القتالية العالية.

وكانت غارة الطائرات وقصفهم لتليح وقلاع الدراويش فيها أول سابقة من نوعها في القارة السمراء، حيث أصبحت الصومال أول دولة هجم الإنجليز عليها بالطائرات الحربية والأسلحة الفتاكة، وأصبحت

الدراويش أول حركة جهادية وتحررية في أفريقيا استخدم ضدها الطائرات العسكرية الإنجليزية التي كانت تقلع من عدن- التي كانت قاعدة عسكرية واقتصادية وميناء كبيرة واستراتيجية للإنجليز-.

ولقد استشهد السيد في إيمي من أوغادين عام 1921م وهنا أسدل الستار على حياة رجل حافل بالإنجازات والجهاد والفصول البطولية، وانتهت حياة رجل نذر عمره لتحرير أرضه وبلده من استعمار المحتل، وصحح المفاهيم ولهب الضمائر الصومالية.

الصومال الغربي.. الجرح النازف

بعد أن أسدل الستار على نضال الدراويش لم تخمد جمرة الكفاح والجهاد المسلح من اجل الحرية والكرامة بل استمر الكفاح إلى يومنا هذا في أوغادين التي وصفت بأنها صورة مصغرة للصراع العالمي، إذا ما هي قضية أوغادين التي كانت ومازالت بؤرة صراع ساخنة وأم المعارك في القرن الإفريقي منذ القرن الرابع عشر الميلادي؟ وكيف نستطيع أن نقيم الأقليم؟ دعونا نتعرف على الإقليم جغرافيا وسكانيا وطبيعيا قبل أن نغوص في عمق الماساة.

الصومال الغربي أو أوغادين، أو الإقليم الخامس في إثيوبيا، اختلفت الأسماء وتعددت الألقاب باختلاف الجهات المتصارعة عليه. ففي حين اعتبرته إثيوبيا منذ عام 1954م الأقليم الخامس لها، تعتبر الجبهات المسلحة المنتمية إلى الإقليم أن أوغادين لا علاقة له بإثيوبيا، ولا تربطه أية رابطة سواء كانت عقدية أو دموية أو تاريخية أو تراثية، بل هو إقليم مختلف عن إثيوبيا التي سيطرت على مقدرات الإقليم ومستقبله منذ أن أعطاها إياه الاستعمار الإنجليزي؛ نكاية في الشعب الصومالي ومكافأة للإمبراطورية الحبشية على دورها في التنصير والتبشير ومحاربة الحركات الصومالية الجهادية وفي مقدمتهم حركة الدراويش بقيادة السيد محمد عبد الله حسن.

أما اسم "الصومال الغربي" فقد أطلقه على الإقليم الحكومة الصومالية التي كانت ترى أنه جزء من الجمهورية الصومالية، وقد اشتهر هذا الاسم إبان الحركات المسلحة التي كانت الحكومة الصومالية العسكرية تدعمها، وأياً كانت الأسماء فالإقليم يعتبر حيويا لم يهدأ منذ أن منحت الإمبراطورية البريطانية سيادة الإقليم لإثيوبيا في خطوة استعمارية بعيدة عن العدل والمنطق.

الموقع والمساحة

يقع الصومال الغربي (أوغادين) في المنطقة الداخلية من القرن الأفريقي ويتخذ هيئة مثلث ذي ثلاثة أضلاع إحدى زواياه الحادة تنتهي عند نقطة إلتقاء الإقليم الشمالي بالإقليم الجنوبي من جمهورية الصومال. يحده من الشمال الشرقي والشرق والجنوب الشرقي جمهورية الصومال، ومن الغرب إثيوبيا، ومن الجنوب منطقة إنفدي الواقعة تحت إذارة كينيا، ومن الشمال جمهورية جيبوتي.

وتقدر مساحة أراضي الصومال الغربي بحوالي627000-650000كم^{2}مربع. وبما أن هذه المنطقة منطقة واسعة مترامية الأطراف وأنها تحت الاستعمار الذي من شأنه تقليل مساحة المنطقة وغياب هيئة تقوم بهذه المهمة على وجه التحقيق فإن مساحة الإقليم مازالت في غيابات الجهالة[1].

(1) نضال الصومال الغربي (أوغادين) وأطماع إثيوبيا التوسعية عبر التاريخ الشيخ يوسف سيد علي طوح.

مرارة الماضي

تاريخيا كان الإقليم الصومالي في إثيوبيا ساحة للمواجهات الدامية وميدانا للحروب المفتوحة أكثر من500سنة، كما كان حلبة صراع مكشوفة للقوى الغربية والإمبريالية العالمية والاستعمار الداخلي والخارجي، بكل ألوانه وأيديولوجياته وأطماعه ومحركاته الدينية والعرقية والتوسعية.

أوغادين من أكثر الأقاليم ثروة وأكثرها أهمية واستراتيجية نظرا لمكانته الجغرافية التي تربط إثيوبيا بثلاثة دول مجاورة ذات أهمية أمنية وجيوبولتيكية واقتصادية وحتي إثربولوجية لتداخل الأعراق وتمازج الشعوب في المنطقة وهذه الدول هي: الصومال، جيبوتي، إثيوبيا، وكينيا مما يجعل إثيوبيا دولة محورية وقيادية في جميع القضايا المتعلقة بالمنطقة.

وكان الإقليم .ومازال . بقعة تحتضن خيرات وموارد اقتصادية متعددة وثروة بشرية وآثارا هائلة، إضافة إلى موقعه الإستراتيجي الذي يفصل هضاب الحبشة عن سهول الصومال المنبسطة، كما أنه الإقليم الصومالي الوحيد الذي يربط بين أجزاء الصومال الكبير، كما يعد الإقليم الشريان الرئيس وهمزة الوصل للحركات النضالية في التاريخ الصومالي والممالك الإسلامية، وطرق التجارة والحركات الدينية.إضافة إلي المعادن والغاز الطبيعي والمياه الجوفية، والأودية الموسمية والأنهار التي تجري على مدار السنة، والثروة الحيوانية الهائلة، وملايين الفدادين من الأراضي الصالحة للزراعة.

لهذا وأسباب جوهرية أخرى نعرفها جميعا جعلت المنطقة موطنا للحروب تلعلع فيه الرصاص وتسوده الاضطرابات والاضطهادات التي تخطت حدود البشر إلي حدود الوحشية، وبقعة تراقبها أعين المستعمر من أجل السيطرة ومص دماء أهله ولعقه قبل نهب الثروة والاقتصاد الوطني واختطاف إرادة أهله، ومكانا تحدث فيه معارك رهيبة تكسر العظام وتغير الخرائط تقوده الدول التي تريد بسط سيطرتها ونفوذها على الشعوب المستضعفة والدول النامية.

وهكذا أصبح الإقليم مسرحا للقوي العظمي تتناطح فيه وتتصادم المصالح والمنافع في ظل تغييب عام للمواطنين، وميدانا مفتوحا للطمع والنهب، ومنذ ذلك التاريخ لم يخرج الإقليم من الحروب التي لم تعرف الانتهاء ولم تضع أوزارها حتي هذه اللحظة.

إستراتيجية الحرب الشاملة التي اتبعها المستعمر في كافة أصنافه وألوانه، وطموحات الشعب المشروعة من رمي رداء الخنوع والخروج عن أيدي المستعمر لفياح الحرية من جهة أخرى، وإيجاد حرية

حقيقية للإقليم تترجم أماني الشعوب وأحلامهم إلى واقع ملموس يعيشون في كنفه بعيدا عن تكميم الأفواه ومصادرة الأراضي وحرق القري والمدن تسببت أن تكون لغة البندقية الحل الأكثر حضورا في أذهان الجميع مما أدي إلي دمار حاد طال كافة المرافق والممتلكات.

وقادت الصراعات أن يكون الإقليم من أكثر مناطق العالم سخونة وحروبا وأكثرها تخلفا ودمارا ودموية وأطولها صراعا، حيث شهد موجات من الكفاح المسلح ضد المستعمر الأبيض والأسود، دامت قرونا وتيارات تحررية مناهضة للمحتل أبت أن تلين أو تهون، بل واصلت نضالها أكثر من خمسة قرون أمثال حركة نصر الله، وجبهة تحرير الصومال الغربي، والجبهة الوطنية لتحرير أوغادين، وحركة الاتحاد الإسلامي.

وبما أن الحركات التحررية تنشأ من رحم المعاناة ورفضها لسياسة المستعمر قامت حركات ثورية مناهضة للمستعمر بعضها بنت استراتيجيتها بعودة الإقليم إلي حضن الأم (الصومال الكبير) البعض الآخر داعبه حلم الانفصال عن الدولتين (الصومال وإثيوبيا) وبناء دولتهم وإعادة الحرية وقيام جمهورية مستقلة، ولكن لم يتحقق الجميع مآربهم لأسباب معظمها تتعلق بصلف العالم وكبته الأصوات الداعية إلى الحرية والمساواة والعيش الكريم، وأسباب أخرى منها أن القضية تضرب جذورها وتكسب مميزاتها من الصراع القديم بين المسجد والكنيسة في القرن الإفريقي إضافة إلي قصر اليد والسباحة عكس التيارات التي يمارسها البعض وسلوكيات القادة ونظرتهم للحرية والاستقلال وحصر الحلول بخيارات محدودة.

وافتقدت الأطراف التنسيق والتخطيط السليم في معظم الفترات فتاهوا في سبيل تحقيق مطالبهم، وسلكوا جميع الطرق المشروعة والملتوبة، وحقيقة كانت النية سليمة في معظم المسيرة رغم أنها لم تخلو عن بعض التجاوزات والتباس الأيديولوجيات والشوائب في عالم كثير التقلبات والتغيرات ويحتاج الإنسان فيه أن يكون يقظا يقرأ سير الأحداث ويستخلص العبر من بين المآسي والتجارب وتقلبات الزمان وتنكر السنين.

ولم تكن الحركات في شتي مسمياتها في بعض المراحل على مستوي الحدث، وبعض المرات غدرَنا القريب وبتنا نتمحور حول طغمة فاسدة يقودها المصالح المالية والنفاق السياسي، ولم يخرج الوطن من الدوامة منذ مؤتمر برلين وما تبعه من المعاناة والمعادلات الجديدة التي نتجت عن تلك العملية البلهاء وخلق واقع جديد سرعان ما تحول إلى أطول كفاح وأعتى نضال في القارة الأفريقية.

ومنذ ذلك التاريخ والوطن يحكمه الغرباء ويدور في فلك غير فلكنا ينسجم مع سياسة المستعمر الذي قسم الشعوب الأفريقية وكوّن حزازية لا تنتهي لتكبيل قدرات الشعوب ولتوجيه قوتها إلى اغتيال وتدمير مقدراتها ومقدساتها وجيرانها، وفي ضوء هذه الحالة المزرية كان الحرمان سيد الموقف ولم ينعم الإقليم بهدوء، بل انخرط في موجات صراعات متجددة رمت آلاف النازحين إلي دول الجوار وفي داخل الوطن الكبير وأرسلت جموعا كثيرة إلي مراقدهم مما ضاعف ألم الصراعات وقسوة النزوح إلى المنافي والغربة الإجبارية.

وهكذا تواصلت الحروب ولم يهدأ أوارها ولم تخمد جذوتها ولم تقطع سلسة الحرمان بدأ من منيليك الفاشي إلى زيناوي المتحمس جدا لحسم الأمور عسكريا مرورا بهيلاسيلاسي وعنصريته وغطرسته إلى هيلي ميريام وغموضه وفترة الملكية الديكتاتورية وحقبة الشيوعية إلى العلمانية اليسارية التي أتاحت للشعب هامشا للحرية ومساحة للمناورة التكتيكية، وما بين هذا وذاك مرت مياه كثيرة تحت الجسر وانهارت قوي عظمى وصعدت بعض الدول وتغيرت قيادة العالم من أقصى الشرق إلى الغرب وثقافته المهيمنة على العالم وشهد العالم تغيرات جذرية متعددة وصل فيها الإقليم بعض المرات إلي ذروته النضالية وبعض المرات إلى أدني مستوياته في المنحني التحرري والثوري ولم يبق منه سوي الآثار والبيوت المهجورة وبعض المحاولات الخجولة من هنا وهناك.

أزمة الهوية.

أصبحت مشكلة الانتماء وحسم الهوية للشعب الصومالي في أوغادين مشكلة عويصة للغاية، وعنصرا مهما لإذكاء الحروب وتغذية الصراعات بسبب العقيدة والانتماء العرقي ووجود الدولة الصومالية التي ينتمي إليها جميع الصوماليين بمرمي الحجر، الشعب الصومالي الموحد دينيا ونسبيا بسبب روابط الدم والتاريخ والتراث، وصلة الجغرافيا والطبيعة الرعوية، كان دوما جامحا نحو الوحدة والحرية والحياة البعيدة عن السيطرة والإدارة المركزية للدول، ولم يكن الشعب مهيأ لقبول الاستعمار والإملاءات الخارجية للدول الغازية التي تريد فرض سيطرتها بقوة السنان، كما أبى الشعب بكل أطيافه الانتماء إلى الإمبراطورية الحبشية والانخراط في الدولة الإثيوبية والحكم المحلي لها بكل الوسائل العصى منها والجزرة.

ولأن الشعب كانت تجتاحه حمى الحرية، وتحركه حرارة الاستقبال والتطلع إلى الصومال الكبير، ولأنه قاد النضال والكفاح ضد المستعمر وعاش تحت رحمة الاحتلال وعانى صنوفا من الظلم والاضطهاد والقهر والفقر المدقع بسبب سياسات الحكومات المتعاقبة على عرش إثيوبيا التي كانت تريد التهجير القسري للشعب والقمع الهمجي للمواطنين، والتي كانت سياستها ترتكز على المصادرة والتهجير، وأن المواطنين ليسوا أصحاب الأرض أو السكان الأصليين للمنطقة، بل هم رعاة يسيرون وراءالماء والكلأ وقطرة الأمطار ولا يحق لهم الانتماء إلي أوغادين وادعاء الأرض التي هي تابعة للحبشة!. ولأن الشعب مقاوم بطبعه وشجاع بأصله، كانت الثورات تقوم والكفاح يتواصل وشعلة النضال لم تنطفئ يوما واحدا، بل كانت الأجيال تتوارث والسواعد ترفع علم النضال ويقود الشباب الكفاح المسلح ضد الديكتاتورية.

الجبهة الديمقراطية الثورية الشعبية الإثيوبية E.P.R.D.F

بعد استيلاء الجبهة الديمقراطية الثورية للشعوب الإثيوبية على سدة الحكم ومقاليد الأمور في إثيوبيا، وبعد انتهاء الحكم الأمهري الغاشم، إختلفت الأفكار والأيديولوجيات وتحسن الوضع قليلا على ربوع إثيوبيا، وشعر الناس نسبيا باختفاء الكابوس المزعج ومرارة الهزائم النفسية المتتالية والفوقانية التي كانت تسيطر في مخيلة الحكام وأباطرة الأمهرة التي كانت تعتز بعرقها الأمهري وتزدري جميع القوميات الأخري وخاصة القومية الصومالية التي كان يرى الأمهريون أنهم رعاة رحل لا وطن لهم، بل عبروا الحدود من قبل الصومال ولا يحق لهم أن يسكنوا في إثيوبيا على الإطلاق.!

وضع النظام الجديد نصب عينيه زيادة الجرعات الوطنية لقبول الآخر في نفوس الإثيوبين والتعايش السلمي للقوميات والتسامح للأديان والأعراق والإثنيات الكثيرة المتعايشة معا في خارطة إثيوبيا رغم السياسة الإثيوبية المتبعة منذ بداية الصراع الصومالي الحبشي وهو السماح للقومية الصومالية حرية نسبية دون أن يمارسوا حقهم في الاختيار إما البقاء في إثيوبيا أو الرجوع إلى أصلهم الصومالي والانضمام إلى دولتهم، وأدركت السلطات الجديدة أن النظام الفيدرالي يمنح الشعوب حكما محليا يغسل أدران فجيعة الماضي ويبقي إثيوبيا قوية ومتماسكة، وأسس لهم نظاما محدودا ويمارسون فيه شعائرهم الدينية وعاداتهم الإجتماعية وطقوساتهم القبلية، مما يساهم في بناء جسور التواصل بين القوميات والعرقيات ويشكل تقاربا وجدانيا للشعوب وتكاتفا يربط الإثنيات المختلفة مع بعضها وبالتالي بالدولة متناسين أن المشكلة لاتكمن في كيفية التعايش والقبول بل في الانتماء والهوية الوطنية فالصوماليون في أوغادين مازالوا يعتقدون أنهم ليسوا إثيوبين رغم إخضاعهم للحكم الإثيوبي قرابة قرن من الزمن.

القومية التغرينية الحاكمة التي استولت على الحكم في1991م لاتريد أن ترجع مرة أخرى تحت السيطرة الأمهرية والتنكيل ولهذا أحدثت هذا النظام الذي يمهد لدولة تغرينية مستقلة إن حدث شيئ مريب في السياسة الإثيوبية وعادت أباطرة الأمهرة إلى الواجهة السياسية مرة أخرى، ورغم النظرية التغرينية المتسمة بالدهاء السياسي والمكر في التنفيذ إلا أن هذه النظرية لم تتولد من الصدفة أو من الغباء أو من الصفر، بل كان النظام الجديد الذي استولى على السلطة بحروب وصراعات مريرة ضد النظام الأمهري المستبد واكتوى نار التهميش والازدراء الثقافي والعرقي قبل أن ينال كعكعة السلطة تقوده قومية قليلة العدد نسبيا ومتفتحة على الجميع بحكم موقعها الجغرافي الذي يعد العمق الإستراتيجي لإريتريا وتخوم السودان، إضافة إلى كسب ود الدول المجاورة كالصومال التي كانت ترتبط معها علاقات

ثنائية ممتازة قبل الاستيلاء على الحكم، وبعد سيطرتها على مقاليد الأمورحاولت بكل ما أوتي لها من قوة كسب ود الأقليات والقوميات الأكثر تضررا على نظام الأمهري الذي أذاق الظلم والضيم لجميع القوميات.

كان تكتيكا سياسيا للحزب الحاكم ورحبت به القوميات سوى القومية الصومالية التي كانت ترى نفسها خارج الإطار الإثيوبي، وهكذا بدأت في جميع المناطق المهمشة تاريخيا حركات إصلاحية خجولة، رغم أنها كانت لاترتقي إلي آمال الشعوب وسقف طموحاتها العالية، وبدأت الشعوب التي تعاني من القمع العسكري والازدراء الثقافي حراكا سياسيا واجتماعيا يسعى إلى امتلاك زمام المبادرة ومحو الآثار السلبية والندبات على جبين التعايش والتسامح لجميع القوميات والأعراق الكثيرة التي تعيش في إثيوبيا.

وكناتج لهذا الفهم والنية الحكومية الرامية إلى خلق أجواء تقرب الأفكار وتسهل التعايش والوصول إلي الطفرة النوعية التي تريدها القادة الشابة للثورة حسب الإعلام الرسمي للجبهة المسيطرة على الوطن، بدأت الاجتماعات المتتالية والندوات المتعاقبة والمؤتمرات بين الحكومة الفيدرالية بقيادة الرئيس الراحل ملس زيناوي وبين الوجهاء ورؤساء القبائل والسلاطين وعلماء الدين والمجتمع المدني وممثلي الشباب والمرأة في مدينة جودي (Godey) الزراعية الواقعة على ضفاف نهر شبيللي عام 1994م.

وطالبت الحكومة الإثيوبية الرضوخ إلى مطالبها والإنصياع إلى أوامرها والقناعة التامة بالدولة الإثيوبية وحتمية الانتماء إليها والنسيان للانفصال وأدبيات الحرية والنضال، واليقين أن الإقليم الصومالي جزء لا يتجزأ عن الإمبراطورية الإثيوبية، والإيمان للفجر الجديد الذي بزغ على القوميات والأعراق، والتبني على الدستور الجديد الذي يعترف ولأول مرة بالخصوصيات الدينية والثقافية الذي سيغير كثيرا من الأوضاع الراهنة والحالة المزرية التي يعيشها المواطن.

ولكن الوجهاء وقادة الرأي والفكر والسلاطين والعلماء أجمعوا في ذلك اليوم بوجوب الانفصال عن إثيوبيا التي لا تربط الشعب معها أي رابط يحتم عليهم قبول هذه البنود، وهذا الرأي كان يمثل تحديا صارخا ورؤية غير ناضجة وفكرة غير مستساغة من جانب النظام، الذي كان يري ضرورة الوحدة والتفاعل مع مخرجات الثورة وعدم تشريح جثة التاريخ، والبحث عن كافة الحقوق والحريات في ظل دستور إثيوبي يراعي الحقوق ويستمد قوته من الشعب الذي سيصوت للدستور فور خروجه إلي النور.

وبين الطموحات العالية وموقف الصوماليين الثابت منذ بداية الصراع الصومالي الحبشي تجاه المقدسات والمقدرات وبين رؤية الحكومة الإثيوبية صاحبة السلطة الحقيقية للإقليم جعلت الإقليم خطا أحمرا، ضاعت الحقوق وهانت النفس وبدأت سلسلة الحروب والصراعات من جديد.

ساءت الظروف وسادت الحروب في المنطقة، والصراعات اعقدت الحياة وحولت الإقليم إلي جحيم لا يطاق وثكنة عسكرية، وثغر لا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه بأمن وطمأنينة لكثرة الحروب وتشابك الصراعات وتنوع الأتون التي تسبب الاصطدامات العنيفة بين الحكومة والجبهات المسلحة، وشاركت دول كثيرة مثل الولايات المتحدة وإسرائيل وأرتريا افورقي الحرب ضد الحركات الوطنية المسلحة في أوغادينيا في بداية الأمر.

وهكذا كانت الحروب تتواصل والضحايا تتساقط في كل لحظة ووقع المواطنون بين فكي الكماشة، دون أن يلوح في الأفق بادرة النصر وبلوغ الهدف للحركات المسلحة، أو الحسم العسكري للحكومة في ظل تفوقها العسكري والمخابراتي والمالي الكبير.

وبعد مشاهداتي وانطباعاتي للإقليم وبعد مرور أكثر من خمسة قرون من انطلاق الشرارة الأولى للكفاح الوطني يبدو الواقع غير مبشر نحو إيجاد دولة مستقلة ونيل الحرية كما أردنا نحن، وأصبح الهدف غير واضح ولم نصل إلى مبتغانا وكأننا ندور في الحلقات المفرغة ونغرد في المربع الأول! ماذا حققنا؟ وماذا أضفنا لتاريخنا وحضارتنا وتراثنا ورفع حياة الإنسان في أوغادين وتغييرها إلى الأحسن؟ هل حررنا الوطن؟ هل نجحنا في تدويل قضيتنا وعرض مأساتنا للعالم؟ أين تكمن المشكلة وما هو مصدر الإخفاق الكبير؟ لا أظن أن شيئا تحقق سوي مزيد من المعاناة ومصادرة الحرية ودمار حاد طال التاريخ والجغرافيا والحجر والبشر، إذا ما الحل؟ أترك الإجابة للأجيال القادمة لأن جيلي التعيس قد أخفق في إجابة هذه الأسئلة المصيرية.

ليالي الأنس في جككجا

في صباح يوم بارد أبدعت الطبيعة أناملها على جنبات الجبال، وأشعة الشمس المتناثرة بين الغيوم تحاول جاهدةً الإنتشار فوق صفحة الأرض وطئت قدمي مدينة جككجا، عاصمة أوغادين تلك المدينة التاريخية التي يرويك كل شارع من شوارعها وكل أزقة من ازقاتها بطولات شعب وملاحم وتاريخ مجيد.

كنت أنوي زيارة جككجا لما لها من أهمية خاصة كونها حاضرة وفيها المقرات السياسية والمجتمعية وهي الرئة التي يتنفس منها الإقليم وتختزل لك الأوضاع المعيشية والسياسية في كافة المناطق والولايات التي يتكون منها الإقليم الصومالي في إثيوبيا (أوغادين)، رغم أني زرت بعض المدن وتجولت بعض القرى والبوادي النائية ورأيت بأم عيني كيف يعيش المواطن وسمعت آهاته التي لا تخلو من نبرة التفاؤل والتطلعات.

كنت في جككجا العريقة بتاريخها وملامحها وملاحمها، وبنظرة فاحصة سبرت غور هذه المدينة التي طالما سمعت عنها حكايات وقصص ومآسي فعزمت أن أتشجم عناء بحث الحقيقة، وأن اقترب من كافة فئات المجتمع، وأن أجالس جميع شرائحهم واختلاف أرائهم ومشاربهم السياسية والفكرية، وساهم وبدرجة كبيرة شعوري العارم وتدفق المواطنين المغتربين إلي الوطن ومساهمتهم في نشاط المدينة وحيويتها؛ حيث كانت تعج المدينة بالمواطنين الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ينشدون دفء الوطن بعد الاتفاقية الشهيرة بين إثيوبيا وجبهة تحرير الصومال الغربي خريف عام 2010م.

نبذة عن تاريخ المدينة

تاريخيا جككجا كانت مدينة الرباط والثكنات العسكرية التي كان يتمركزها المسلمون إبان الصراع الصليبي الإسلامي في القرن الأفريقي، وبعد احتلال هرر ذاع صيتها وأصبحت مدينة حيوية وذات ثقل روحي واقتصادي،حيث باتت مركزا دينيا واقتصاديا مهما في شرق إفريقيا واشتهرت عندما جعلها السلطان ويلوال (Wiil-waal)- الذي ذاع صيته وعم اسمه في جميع ربوع الوطن التاريخي للشعب الصومالي - مقرا له لاعتبارات جغرافية وتاريخية واستراتيجية.

وفي أثناء حرب "أوغادين" عام1977م كانت من المدن التي شهدت مجازرا مروعة وقصفا عنيفا من قبل قوات التحالف (الاتحاد السوفيتي، كوبا، إثيوبيا، اليمن الجنوبية، وليبيا القذافي)، ما حَوّل المدينة إلى

رماد وركام وألم، وعاشت المدينة أياما سوداء بعد الانسحاب العشوائي، والهزيمة المفاجئة للقوات الصومالية بعد دخول الاتحاد السوفيتي والدول الدائرة في فلكه سياسيا وايديولوجيا خط الحرب مما قلب المعادلة لصالح الحبشة التي كانت تصارع مع أعباء الهزيمة المدوية في غضون شهور قليلة على يد دولة حديثة عمرها17سنة فقط، وكانت إثيوبيا تسعى في تلك الفترة أسد أفريقيا فحولها الجيش الصومالي إلى قطة أفريقيا حسب الفريق الركن محمد علي سمتر الذي تقلد مناصب عليا في الحكومة العسكرية مثل نائب الرئيس ورئيس الوزراء ووزير الدفاع، وكان الاتحاد السوفيتي بقيادة ليونيد بريجنيف غاضبا من المهانة والمذلة الذي تلقاها من قبل الحكومة الصومالية العسكرية بعدما طردت خبراء وفنيين وعسكريين روس من الصومال عقب الأزمة الدبلوماسية بين البلدين عام1977م مما أفقدها ميزة عسكرية وجيوسياسية واقتصادية لكونها كانت تطمع أن تتحكم في الملاحة البحرية في المحيط الهندي وخليج عدن وباب المندب.

كنت أجرُّ حنينًا جارفًا نحو مدينة ملأت قلبي حبًا وشغفًا، وكانت المدينة على أهبة الاستعداد لاستقبال أكبر مهرجان للقوميات الإثيوبية. جككجا خصوصا والإقليم عموما في طريقهما إلى الإندماج في إثيوبيا. إن لم تحدث معجزة. بعد الانهيار الصومال وانخفاض حدة النضال أو بلوغه على مشارف الانتهاء بسبب الجبهات التي تصالحت مع إثيوبيا والجبهات التي أصابها الضعف والخور، إضافة إلى السياسة القاسية التي يتبناها النظام الإثيوبي في المنطقة.

تأنقتْ المدينة كعروسة تستعد ليوم زفافها، حيث المدارس والمباني الحكومية والشوارع مزدانة بالأعلام المحلية والفيدرالية، الكلمات تحمل معاني الانسجام والتأمل. لافتات مليئة بالجمل الصومالية ذات المعاني والتعبيرات الرنانة، واستقبال حار وبلغاتٍ مختلفة.

الترقب للوفود القادمة وترحيب الشارع قبل الشعب في حضن المدينة كان باديا للعيان، ويشعر المرء في اللحظة الأولى التي يدخل عمق جككجا أنه في يوم كرنفالي بهيج . كل شيء مبتسم ومبهر، اللافتات والمجسّمات التي خصّصت للحدث حسب تعبير الحكومة المحلية التي استثمرت الحدث كثيرا لصالحها يدل على قرب وأهمية ذلك اليوم الذي تحتفل فيه جميع القوميات الإثيوبية بعيدهم الخاص التي أصبحت عنوانا لتعايش الشعوب، رغم الحروب التي كبلت الجهود وأجهضت التنمية، والصراعات التي عانت وتعاني منها إثيوبيا إلى الآن التي آخرها الحرب الشرسة بين القومية الصومالية وأشقائهم الأروميون على المناطق الحدودية، وقد اندلعت الحرب بعد المظاهرات التي قام بها شعب أوروميا أكثر القوميات الإثيوبية من حيث السكان وأكبرها مساحة وقد واجهتها الحكومة الإثيوبية بالقمع وموجة من الاعتقالات

والترهيب، ولكن الأروميون يدّعون أن القومية الصومالية استخدمتها الحكومة من أجل محاربتهم والتنكيل بهم وهذا بعيد عن الحقيقة فكلاهما مغلوب على أمره، لأن الحرب الدامية والصراع بين القوميتين من ألاعيب الحكومة الفيدرالية التي تستثمر صراع القوميات لصالحها .

ويعتبر عيد الشعوب الإثيوبية (Hidar21) من أقوى الاحتفالات والأعياد التي ينتظرها الشعب والحكومة في كل سنة بفارغ الصبر، وتتبوؤ مكانا خاصا في جدول الحكومة والشعب، وعيد الشعوب الإثيوبية حدث يحمل في طياته دلائل كثيرة، ومما جعل عيد القوميات ذا نكهة خاصة ومختلفة يترقّبها الجميع بحذر وشوق شديدين هي أن جككجا عاصمة القومية الصومالية في إثيوبيا استضافت فعاليتها. والقومية الصومالية كانت تعاني من الحروب والتهميش والازدراء الثقافي والمعرفي قبل عهد الجبهة الديمقراطية الثورية الشعبية (E.P.R.D.F) التي اعترفت نسبيا بخصوصيات القوميات الثقافية والدينية والتاريخية رغم وجود الألم ومصادرة الحقوق والحريات والسجون التعسفية والمحاكمات الهزلية.

شعوري كان لا يوصف! وأنا ألتحف زرقة السماء فى يوم جككجاوي مشمس تدثرت فيه المدينة الغمائم التي تتداخلت مع التضاريس، ومما يزين المكان جبال كارامرطا منبع التاريخ ومتحف على هئية مرتفعات وهضاب باتت الرمز الأكبر أهمية لمدينة الشعر والقوافي، الأجواء الخيالية لتلك الأمسية ذكرتني بأبيات أمير الشعراء أحمد شوقي:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري *** حتى أريك بديع صنع الباري

الأرض حولك والسماء اهتزّتا *** لروائع الآيات والآثار

من كل ناطقة الجلال كأنها *** أمّ الكتاب على لسان القاري.

كنت أستمتع بمزاج عال مع المحاربين القدامى، وأصدقاء الطفولة، وافترشنا تربة الأرض فوق تل يقع في وسط المناظر الجميلة لسهول فَافَنْ الخصبة. داعبنا حلم جميل سرى فى أوصالنا، وقفزت بنا فسحة الآمال فوق مطبات الحياة، وبحثنا عمن يشاركنا لحظات الهناء، فذهبنا إلى المجالس التاريخية والتكايا القديمة وجلسنا في زاوية بعيدة من مقهى يرتاده المغتربون العائدون إلى تربة الوطن ندردش مع رفقائنا في الغربة وأصحابنا الجدد واخترنا ركنا هادئا نسبيا نستطيع من خلاله مراقبة الشارع والمارة من بعيد.

كانت الحفلات الفلكورية ورقصة "الطانتو" تهز جنبات ذلك المقهى المكتظ بالزبائن وينساب منها نهر الأغاني التي كان يبثها التلفزيون المحلي للإقليم الصومالي، طانتو تخلق أجواء موغلة بالحب ومفعمة

بنشوة الشعر، وعلى وقعها أطلقت عنان الحلم إلى أبعد الحدود وتجاوزت البحار والمجرات، ولم أكن أدري إلى أين؟ وماذا أفعل؟ حتى ألغيت جميع الفراسخ والأمتار التي كانت بيني وبين التلفاز العتيق المركون فوق مزهرية مهترئة من تلك المقهى المكتظة بالمتأملين على نضارة الوجوه وجمالية الإيقاع.

استطاع ذلك المقهى وبأناقة منتهية مزج الثقافة الصومالية بالثقافة الحبشية،حيث تفوح منه القهوة الحبشية الأصيلة، وتصدح فيه الأغاني الصومالية الكلاسيكية على وقع الأوتار الشجية التي ذكرتنا في الزمن الجميل، فكانت حقا قهوة جكجكاوية ارتشفناها على مهل في ذلك المساء.

طانتو.. ضوء من التراث الصومالي

الشعب الصومالي يملك تاريخا طويلا وحضارة عريقة مرصعة بالألعاب والحكايات، وثقافة خزنت الأشعار والأغاني والأمثال والرقصات والحكم التي كان الأجداد ومن بعدهم الأحفاد يعبرون فيها عن أفراحهم وأحزانهم وأحلامهم ومشاعرهم وأفكارهم وتراثهم.

كما يملك لغة تضج بالحيوية والجمال، وتكوين مفعم بالأدب البادية، نسجها الشعب عبر تاريخه الطويل المليء بالأساطير الشعبية المتداولة والموروثات القديمة، والرقصات الكلاسيكية الهادئة ذات الرقة والعذوبة الطربية والإيحاءات الرومانسية.

وأصبحت الثقافة الصومالية من الثقافات المرموقة والعادات الرائدة في محيطها الإفريقي والعربي، وشكلت اللغة الصومالية من اللغات التي اعترف العالم بقوتها وعمقها الأدبي وتأثيرها المحلي والعالمي، حتي دخلت بجدارة واستحقاق ضمن اللغات المترجمة والمعتمدة في محرك البحث العالمي "جوجل".

بدائع الفن الصومالي كان يظهر في الليالي الصومالية الخانقة بالألعاب تحت أضواء الطبيعة والسماء الصافية المرصعة بالنجوم، والأحاسيس التي تجعل القلب ينبض بالحب، المعزوفة الصومالية كغيرها من أنغام الشرق تضفوا على المكان هيبة الحياة ولمسات إنسانية تؤسس للحب منارات تجلو عن النفس ما يعتريها من الألم والإرهاق النفسي والتعب الجسدي ويبعدها عن الكسل والخمول.

ولم تخلو التقاليد الصومالية من ليالي السمر والألحان البدوية، وألعاب تقليدية عصية علي الاندثار، بل قاومت المؤثرات الخارجية والداخلية، وأبت أن تنقرض أو تغمرها السيول الجارفة التي حملت إلينا الثقافات الوافدة والعادات العابرة للقارات، وتجبر الشعوب الضعيفة على القبول والتبني لتلك الثقافات بقوة السنان أوتحت ألم السوط ولذة الجزرة.

ومن الألعاب الجميلة التي يكن لها الشعب الصومالي بكل أطيافه وأعماره حتراما كبيرا ومحبة تفوق الخيال، رقصة الطانتو التراثية التي أصبحت الشعار الأساسي للصومالين في الوطن وفي المهجر والشتات، وسيّدة الرقصات الشعبية لقوة كلماتها وانسيابيتها العجيبة، وأصالتها ونقاء وصفها، وقوة وقعها، وانسجام حركاتها وصلتها المباشر للماضي الجميل والحاضر المثخن بالجراحات والألم والمسقبل الباسم.

وتعتبر "طانتو" أقوى وأجمل الرقصات الوطنية أو الألعاب الشعبية المنتشرة في أوساط الصومالين بشتي طبقاته وكياناته وشرائحه،وتنتشر في المناطق الريفية وتقل في المناطق الحضرية، وتعد اللعبة

التراثية الأكثر ترويجا وممارسة في أوساط الصوماليين، رغم أن جذورها يُرجع إلي القرون الأولى لتكوين الثقافة الصومالية وبروزها كثقافة منفصلة ومتميزة لها ملامحها الحضاري وتميزها التراثي، وبذلك تكون لعبة قديمة قدم الظهور الحقيقي للشعب الصومالي في القرن الإفريقي.

يمارس الشعب علي رقصة "طانتو"حبا لتراثة أوكلعبة محببة لديه تساهم في رفع المعنويات وبث روح الأمل في قلوبهم، كما تعد القابلة الرسمية للحب، وتعتبر الأراضي الخصبة الموطن الأصلي ل"طانتو"، كما أن لها مواسم تكثر فيها ويحمل الشباب الذي هو عماد هذا الرقصة قابلية لممارستها.

وغالبا ما تكون مزدهرة في موسم الرخاء والطبيعة الجميلة والهواء الطلق، وتنسجم مع رعشة الأعشاب ورذاذ المطر، ويكون وقعها جميلا ولمساتها أجمل في أوقات الربيع المزدان بالسلام ورغد العيش، حيث النفوس آمنة والبقر لا تحتاج إلي المراعي البعيدة، والإبل لا تبتعد كثيرا عن مباركه والأغنام تشبع علي مشارف الحي، وجلب الماء والسقاية لايحتاجان السير إلي مسافات طويلة تتعب الجسد وتوهن القوى وتفتر الهمة وتضعف الإرادة.

أما أوقات القحط والشدة حين يجف الضرع والزرع ولا تنزل القطرة من السماء، وفي زمن الخوف تكون نادرة الوجود أو معدومة، وبما تتصل روحيا في التكوين النفسي للشخصية الصومالية المرحة ويربط خيط دقيق معها بالسلام والمحبة، فهي قليلية الاتشار في الأماكن التي تنعدم فيها الأمن والاستقرار، إذ التجمعات تحتاج إلي جو من الطمأنية والمرح والخيال الأدبي الرفيع وهذا ما فقدناه في السنوات الأخيرة.

ويدل تناغمها مع المكون النفسي للشعب الصومالي وعفويتها وانسجامها وتفاعلها وتغلغلها في دم كل الشعب باختلاف مشاربه وموقعه الجغرافي، أن الشعب الصومالي ينتمي إلي ثقافة واحدة وتراث وطد أركانه الأجداد والأسلاف، كما يدل أنها كانت يوما من الأيام الرقصة المفضلة واللعبة الأساسية التي كان يمارسه الشعب سواء كان بدويا يرعى الإبل، أو حضريا يعيش في المدن، أو صيادا يرسل الشباك في الشواطئ، أو تاجرا يسافر إلي الأوطان والبلاد المختلفة.

تبدأ طقوساتها غالبا في الساحات والمساحات الهادئة ذات التربة الناعمة المتاخمة للقرى أو المنطاق السكنية للأسر والقبائل والأفخاذ على ضفاف الأنهار أو التلال، وقرب الترع والجداول المائية، حين تخيم السكينة العذبة على الأرض والنجوم الليلية تضيء كالشموع.

وحينما يلبس الليل سواده تبدأ لذة الكلمات والأغاني المنسابة من الحناجر، تتجمع الشبان على تخوم القرية أو على مشارف سكن الأسر الريفي بعد يوم طويل من العناء والمشقة ومصارعة أعباء الحياة والجرى وراء الأنعام أو حرث المزارع والحدائق، والغرق في تفاصيل البيع والشراء في داخل القرية أو خارجها، هناك السمراوات يقفن وفي وجههن غموض وسحر يشبه وشاح القدسية وللصومالیات ضحك يشبه أنغام العود وألحان الموسيقى، وفي الصف المقابل يقف الرجال بزيهم الشعبي وشكلهم القمحي.

وبما أنها تحمل في طياتها رومانسية وتراث ورثناها كابرا عن كابرعادة تبدأ بصوت جهوري ممزوج بالأحاسيس وأبيات شعرية تبدد جفاف العاطفة بعد غياب شفق المغيب، وقد تتأخر فتبدأ قبل منتصف الليل أو بعده ومعها تبدأ المسرات وتقرأ سطور الفرحة والنشوة علي جبين الشباب.

تنفجر عيون الشعر على أفواه الأدباء وينبع الجمال علي عيون الفتيات، والأصوات العندليبية والحبال تزيد الشجن، وذبذبات المشاعر تلهب الحماسة في نفوس الرجال، ومع كل حركة تحمل تباريح الحب وكل همسة بينية مزركشة بومضات العشق وتباشير القبول، وكل هزة للأرض تعقبها الزغاريد والأصوات النسائية الرقيقية، يتصبب العرق ويبلل كل الأجساد والأسمال! ويتحرك الجميع هازين رؤوسهم، ويزداد بريق العيون ويتقارب الجنسان وتتحرك الأيادي يمنة ويسرة أو ترتفع عموديا.

لا شيء يعادل نشوة "طانتو" في قلوب عشاقها، ولا شئ يعادل لحظة التلاقي والتقارب الذهني والصفاء الوجداني ونشيد الفتيات وهن يغنين نشيد الحب والحياة، أويرددن ألحانا الصبا ويروين شجرة الحب الوارفة بدلال صومالي عجيب وعناد بدويّ قاتل.

جككجكا.. وبريق الأصالة

جككجكا لم تفقد بريقها الحضاري بعد كل تلك السنوات، ولاتزال تحافظ على أصالتها وطابعها الصومالي العريق وآثارها التاريخية، ورغم تقدم السنين ومرور الأيام، وسنوات الحروب، موجة العمران تجري على قدم وساق في جميع أحيائها،ولم تفقد شئيا من تاريخها وأصالتها، بل تحمل اسما مميزا جعل المدينة ملهمة بالدرجة الأولى للشعراء والأدباء وموئلا معرفيا للدين الحنيف، حيث تشهد المساجد زوايا نشطة تعج بصفوة المجتمع وأركانا لم يزل العلماء الربانيون ينشرون منها شعاع الدين ومبادئ الحنيفية السمحاء. وتتمتع المدينة بكثافة سكانيةعالية وتعاني من زحمة رهيبة، وأثقل كاهلها سكان الأرياف والقرى الذين أجبرتهم الظروف والقحط والكوارث الطبيعية والحروب على الفرار من مناطقهم الأصلية إلى العاصمة، وبما أن الطبقة الشبابية هي المهاجرة دوما سواء في الهجرات الداخلية أوالخارجية، فقد أصبحت المدينة تكتسي بحلل الشباب وتعج بصغار السن حيث متوسط عمر سكانها أصغر من 30 عاما حسب رأيي.

وفي السنوات الأخيرة أصبحت جككجكا منارة للثقافة الصومالية بدون منازع حيث يصدح في جنباتها مهرجانات الشعر وسحر الفلكورات الشعبية وبحور الغناء الشعبي والرقصات التراثية، وأصبحت قبلة لعمالقة الفن والموسيقى واللغة، وروّاد الشعر والأدب الصومالي، وهكذا باتت جككجكا وعاءً يحفظ التاريخ والتراث والأصالة والحضارة التي تهددها العولمة وتضيق الخناق عليها الثقافات القوية الوافدة من الشعوب المجاورة أو ما وراء البحار.

ومن مظاهر التطور الذي لا تخطؤها العين مراكز التعليم من الحضانة والروضات المدرسية إلى المدارس الثانوية والتعليم العالي، وتشهد طرق المدينة في الصباح الباكر أمواجا بشرية من طلاب المدارس والمعاهد والجامعات، وهم يغدون إلى مدارسهم وجامعاتهم. وبما أن الأرقام لا تكذب وتوضح القفزة النوعية للتعليم في السنوات الخمسة الأخيرة تشهد جككجكا سنويا فتح مدارس أساسية وثانوية ومعاهد تقنية وعلمية وتكنولوجية، وتقول الأرقام أن أكثر من25مؤسسة تعليمية ما بين جامعات ومعاهد ومدارس ثانوية تفتح أبوابها للتعليم ويرتادها الطلاب في صباح كل يوم.

هرجيسا.. سرّة المدن الصوماليّة

كانت الرحلة بين جككجا وهرجيسا سلسة وماتعة، ولم أشعر بعناء السفر ووعثاء الطريق لقصر المسافة، والرفقة الرائعة الذين أغدقا علينا بأحاديثهم وحنانهم، ومما زاد من سحر الرحلة لقائي واحدا أعتبره من أعز أصدقائي الذي قد فرق بيننا الزمن بعدما ذهب إلى باكستان لدراسة الهندسة وأنا ذهبت إلى السودان لدراسة الجيولوجيا، كان اللقاء العابر في مدينة وَجَالي الزراعية المشهورة، وبصدفة محضة وبدون موعد محدد، وما أجمل الصدف الباهرة في حياة الأحبة!. وقفت أمام المهندس أحمد عبدي علي زميلي في المدراسة الإبتدائية والخلاوي القرآنية في زمن الصبا وفي بداية التسعينيات من القرن المنصرم، كان لقاؤه مصدرا لسعادتي كما رفع منسوب الفرحة في نفسي بعد المعانقة الحارة.

على ذكر تُوجْ وَجالِي العريق تتزاحم الذكريات وتتقاذف الكلمات وتطل الشجاعة الصومالية عبر نافذة الزمن رغم التغير الكبير الذي طرأ على المنطقة والمفاهيم السياسية والوطنية بعد انهيار الحكومة الصومالية المركزية العسكرية في بداية التسعينات من القرن المنصرم بعد 21 سنة متناقضة، ففي السنوات العشرالأولى من عمر الانقلاب العسكري أو ثورة أكتوبر قطعت الصومال شوطا بعيدا نحو الدولة وبناء مؤسساتها وتدشين دولة حديثة بجهود صومالية بحتة، حيث لم تنتظر القادة المساعدات الخارجية وكسب ودّ المجتمع الدولي، بل باشر المجلس الأعلى للثورة كل الأعمال بجهود ذاتية، وقام بتوجيه الشعب نحو توحيد الوجدان، والاكتفاء والبناء والتطور العمراني، والتعافي الاقتصادي، ومحو الأمية ومحاربة التميز العنصري والقبلي، فغرزت الثورة في قلوب المواطنين حب الوطن والتفاني من أجله، فبنى الشعب عبر المشروع الشهير "اعتمد على نفسك" والتعاونيات المشافي والشوارع والمصانع، وجعلت التعليم مجانيا من الأساس إلى المرحلة الجامعية، وأسست الثورة جيشا صوماليا قويا يهابه الجميع، وارتفعت التطلعات ووصل منحنى الأحلام إلى أوج عزه، واعتمدت السياسة الخارجية الجريئة، والاستقلالية والمشاركة الفعالة في الهئيات الأممية والمنظمات القطرية، فبدلا من السياسة الانطوائية والمشاحنات الداخلية والأحزاب السياسية القبلية التي كبلت قدرات الحكومات المدنية السابقة، رفعت الثورة في بدايتها شعارات براقة مثل الإصلاح الاقتصادي وصوملة المنشآت وتأميمها، والاستقلال الفعلي وحرية القرارات، والخطوات الجادة نحو صومال جديد.

وأعلنت الثورة محاربة الترويكا المخيفة في حياة الشعب (الفساد، الجهل ، القبلية) التي كانت حجر عثرة أمام تقدم الحكومات في السنوات التسع الماضية، وانحازت الثورة للشعب الصومالي وقضاياه العادلة التي أولها توحيد الصومال من جديد، واستعادة الأراضي التابعة للدول الإفريقية، أوغادين في إثيوبيا، والمقاطعة الحدودية الشمالية (أنفدي) في كينيا، وجيبوتي الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي،

وتحجيم الأطماع الكبيرة لدول الجوار، مما جعل الثورة في بدايتها عملا بطوليا وتحقيقا للمطالب الشعبية والأحلام المشروعة لأمة أرادت الكولونيالية الأوروبية تقسيمها وتقطيع أوصالها، كما ناصرت الثورة الشعوب الإفريقية المحتلة، وأولت اهتماما خاصا لانتهاء نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، وتحرير روديسيا (زيمبابوي) ومساعدة الجبهات التحررية في أنغولا وموزامبيق، كما أعلنت الثورة بوضوح وقوفها إلى جانب القضية الفلسطينية، ونظمت الأشعار والأغاني حيال هذا المطلب العادل للشعب الفلسطيني.

وفي سابقة أولى من نوعها، أصبحت الصومال دولة يطلب ودّها بعدما رفعت الثورة اسم الوطن في المحافل العالمية، وباتت رقما صعبا في المعادلات الدولية بموقعها الاستراتيجي المطل على المحيط الهندي وخليج عدن، والمتحكم في باب المندب والتجارة العالمية، إضافة إلى الأراضي الخصبة والمعادن التي لم تكتشف بعد. وفي غضون سنوات قليلة، أصبحت الصومال الحليف الأقرب للاتحاد السوفيتي في المنطقة، كما احتفظت باهتمام المعسكر الغربي بقيادة أمريكا، وانضمت لمنظمة المؤتمر الإسلامي عام 1970م والجامعة العربية عام 1974م، كما استضافت في نفس السنة قمّة منظمة الوحدة الإفريقية.

ومن الخطوات المؤثرة التي نالت استحسان الشعب، كانت كتابة اللغة الصومالية وفرضها في مكاتب الدولة التي كانت تعاني من فوضى لغوية رهيبة، حيث كانت الإيطالية تتحكم في الجنوب والإنجليزية تسيطر في الشمال، إضافة إلى العربية التي كانت اللغة السائدة بعد الصومالية، وفي خطوة اعتبرها البعض أنها تغريب للصومال والابعاد عن محيطه العربي والحضاري، أختيرَ الحرفُ اللاتيني لكتابة اللغة الصومالية التي كانت قبل 1972م لغة شفوية، رغم وجود محاولات خجولة لكتابتها بالحرف العربي.

وفي غضون سنوات قليلة باتت ثورة 21 أكتوبر من أكثر الثورات الإفريقية والعربية إثارة وزخما، سواء من الناحية الإعلامية أو من الناحية الجيوسياسية، وتأثيرها في المحيطين الإفريقي والعربي، والتحالفات الدولية التي كانت تحكم العالم آنذاك (ناتو، وارسو)، وبعد السيطرة التامة لمفاصل الحكم والاستتاب الأمني والتأميم الاقتصادي، والحماسة الصومالية المنقطعة النظير، والخطاب الإثاري اللاهب للقادة، ارتفع ترمومتر الوطنية، وتخطت الصومال في السنوات العشر الأولى من عمر الثورة كل الحواجز، وتغلبت على المشاكل التقليدية، وأصبحت دولة حديثة تواكب العالم وتصدر منتجاتها إلى الخارج.

في هذا الأجواء الحماسية خاضت الصومال حرب أوغادين المؤلم عام1977م الذي قاد الوطن نحو الانهيار والاستبداد، ولم تجب الثورة الأسئلة المصيرية للمجتمع بعد هذا الحرب وما تبعه من الهزيمة

والمحاولات الفاشلة للانقلاب والنزيف الحاد للقوة الاقتصادية والعسكرية، ولم تقدم رؤية للخروج من عنق الزجاج وشرنقة البوس والضعف، بل زادت التنكيل والحروب الداخلية وتصفية الحسابات وتباعدت الهوية وضعف النسيج الاجتماعي وعاش الشعب تحت جزمة العسكر وسوطهم ما يربو على 11 عامًا، كانت المصادرة والرأي الواحد يسيطران على الحياة العامة والخاصة، ورغم أن الصومال في تلك الحقبة كانت تعيش في أزهى عصورها قوة واقتصادًا وكرامة نظرا للمآلات والتيه الذي ضرب أطنابه على الجميع، إلا أنها كانت قوى هشة ولا تعتمد على أسس متينة، والشعب كان في معظمه يعاني أزمة من نوع آخر وهي أزمة الحرية وعدم المشاركة الفعالة لرسم مسار الوطن والتعبير عن الرأي والتعددية السياسية، حيث كان المجتمع يعيش تحت رهبة الخوف والمشانق، ولا يستطيع أن يمارس أبسط أنواع الحقوق والحريات إلا في ظل الهامش الضئيل المسموح له من قِبل أجهزة الدولة، بل كان .كعادة الجيش. مزاج الجنود وتصورات القادة هو الذي يقود الجميع عبر إثارة ثورية مليئة بالخطب الحماسية والتصريحات النارية والعزف المقصود على وتر المشاعر لشعب مرهف الإحساس مما جعل الشعب قنبلة موقوتة شديدة الانفجار قد تنفجر في كل لحظة.

ورغم هيبة الدولة والحكم البوليسي والقبضة الحديدية والسياسة العنيفة المتبعة لديها لم تستطع دولة العسكر أن تصمد أمام الواقع المأزوم وضربات الحركات المسلحة والقبائل التي كانت مدعومة من قِبل الدول المجاورة التي كانت تخاف من دولة صومالية قوية تعيد الأراضي الصومالية المفقودة إلى حضن الوطن.

وبعد فصول عنيفة من الاستبداد العسكري الذي قاد الجموع المسلمة نحو النظريات الغربية ومبادئ الشيوعية والتبني الساذج لآراء الاشتراكية، زادت المعاناة ووصل الكبت وكتم الأنفاس وحرمان الرأي الآخر والاعتقال السياسي والسجن التعسفي إلى أعلى مستوياته؛ مما أثار الرأي العام المحلي وعجل بانهيار الحكومة المركزية العسكرية على وقع المدافع المصحوبة بزغاريد القبائل أو على الأقل وسط حالة من الارتياح والمباركة على إسقاط النظام العسكري.

في وجالي الحدودية بين إقليم أوغادين التابع لإثيوبيا حاليا وبين الشمال الصومالي يرجعني التاريخ إلى بداية العقد السادس من القرن المنصرم، ففي عام 1964م شنت إثيوبيا هجوما كاسحا على الثكنات التابعة للقوات المسلحة الصومالية والجبهات النضالية المتمركزة على النقاط الحدودية الوهمية التي صنعها الاحتلال الأوروبي لتضعيف الأمة الصومالية وتمزيق وحدتها الجغرافية والبشرية، ووقعت معركة شرسة رواها التاريخ في صفحاته في وسط وَجالي المدينة الزراعية الهامة للاقتصادي الصومالي، وبعد

معركة دامت أياما هاجمت الدبابات الإثيوبية على المدينة وحاول الجنود الإثيوبيون إنزال علم الصومال وتدنيسه، ولكن وبطريقة صومالية باسلة صعد سارية العلم وبكل رشاقة جندي صومالي يدعى حَلَني وأبى أن يرمي رمز العزة والنضال الصومالي أرضا، وبعد مقاومة شرسة بينه وبين الجنود الإثيوبين استشهد البطل حلني وفي يده علم الصومال الذي سلمه إلى جندي آخر أنقذ العلم من السقوط والإذلال ، وبعد استشهاده كافأته الحكومات الصومالية المتعاقبة بأعلى وسام في الجمهورية وأطلق اسمه على القواعد العسكرية والمراكز التدريبية والمدارس الحكومية والمرافق العامة تخليدا لاسم هذا البطل.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المدينة رمزا مقرونا بالكرامة الصومالية ألهم الشعراء والأدباء والفنانين الذين كثيرا ما يغنون لوجالي ومميزاتها حيث كانت المدينة في السبعينيات من أكثر المدن الصومالية إنتاجا ومن أكثرها جمالا وخاصة في الربيع عندما تكسي المراعي المحيطة بالمدينة ردائها الأخضر.

واصلت سيري نحو الهدف فدخلت هرجيسا في زمن المغيب حينما رسم الشفق الأحمر لونه على صفحة السماء، هرجيسا سرة المدن الصومالية وعاصمة الشمال مدينة حديثة نسبيا لكونها تأسست في نهاية القرن التاسع عشر كما قال لي محمد فارح وهو مسن هرجيساوي يعتبر نفسه مؤرخا يعرف تاريخ المدينة والمراحل التي مرت بها منذ تأسيسها إلى أن أصبحت مدينة مركزية للأمة الصومالية اقتصاديا وسياسيا وأدبيا، الجد محمد عاش في هرجيسا أكثر من75 سنة، وأصبح معلما من معالم الذاكرة الحية لهرجيسا الباسمة التي تخزن في طياتها تاريخ أمة وتراث شعب.

المدينة الآمنة والبعيدة عن الصراعات والحروب المحيطة بها تعتبر بعيدة عن عيون الإعلام العربي والعالمي السلبي الذي يركز على المأساة والتشريد والإنفجارات ولايهتم بالطبيعة والمدن الجميلة إذا كان الأمر يتعلق بالصومال. أسرتني المدينة بحيويتها وعرقها الصومالي الذي ينبض أدبا وفنا، وأحيائها التي يبدو على محياها التطور العمراني، وفوق ذلك كنت معجبا بسكانها الطيبين. كنت اقتربت إلى الانبهار وأنا أتنقل بين أسواق هرجيسا ومرافقها ومولاتها الحديثة والمقاهي، وشوارعها المترعة بجمال شعبها وتاريخها وتراثها الفني والأدبي، وكنت أحرص على معرفة أحياء المدينة وحاراتها رغم قصر المدة والزمن الذي لا يسعفنا دوما عندما ننغمس في الملذات فحاولت أن أقبض حبها الذي يمطر عليّ بغزارة.

جلست في المقاهي والمطاعم، وقضيت وقتا ماتعا في الفنادق والأسواق التجارية والنجوم تراقبني عن كثب وهن في كبد السماء، وزرت معظم المواقع الأثرية والسياحية والساحات العامة والمعالم التاريخية للمدينة، كما زرت أهم المجسمات النضالية والتماثيل الوطنية التي خلدت لحظات النضال وساعات

الكفاح والمقاومة حسب الكلمات المكتوبة على سفح المجسم الرابض في وسط هرجيسا، وكان مجسم الطائرة الحربية. التي يقال أنها كانت تقلع من مطار هرجيسا وتقصف أحيائها وكانت في حينها ظاهرة غريبة في دنيا الحروب والصراعات. أضخم المجسمات في المدينة وأعلاها.

هرجيسا التي تحتضن واحدة من أعرق المواقع الأثرية أفريقياوربما عالميا حيث آثار لاس غيل الصخرية التي تعود إلى العصر الحجري وهي نقوشات صخرية ضاربة في التاريخ والجمال والثقافة، وتدل دقة الرسومات والحيوانات والأدوات المستعملة للرسم على نمط الحياة وطريقة التفكير قبل تسعة آلاف سنة قبل الميلاد، كانت المنطقة مأهولة بالسكان والحضارة والفنون التي مازالت شاهدا رغم الإهمال والقسوة الشديدة التي تعاني منها الآثار والفنون في قُطر غارق بالحروب العبثية والصراعات الصفرية منذ ثلاثين عاما، ولم يستطع أن يسوق لحضارته وتاريخه العريق الضارب في جذور الحضارة الإنسانية، ولاندري بعد كل التأكيدات والأبحاث الرسمية للبعثات الأوروبية لماذا أبت اليونسكو إدراج النقوش الصخرية والآثار الحضارية للاسْغيل وغيره من المواقع الأثرية الصومالية في التراث العالمي رغم ثبوت أنها من أقدم المواقع الأثرية في أفريقيا؟

تتسع المدينة يوميا وتغزو على الأحياء الشعبية والضواحي البعيدة والبيوت الطينية القديمة، ولكن تعاني المدينة من شح حقيقي للمياه وقلة الشوارع والطرقات والزحمة المرورية، حيث تخنق الزحمة المدينة مما يجبر السيارات على المرور في الشوارع الترابية الجانبية تفاديا للزحمة والاكتظاظ الذي تشتهر المدينة به. في مدينة السلام والجمال كنت أطرق أبواب الثقافة أبحث عن النوادي والمنتديات الغنية بالتراث والقصص والحكاوي التي لم تجد عناية الكتابة ولكن كنت ضيفا من نوع آخر وبمناسبة وطنية عريقة وإن لم تحفظ أهميتها في شمال الوطن.

26يونيو

صادف قدومي إلى هرجيسا والأمة الصومالية تترقب أسبوع الاستقلال الذي يبدأ من26يوينو وينتهي بأول يوم من يوليو، وهي من أكثر المناسبات الوطنية حضورا في الساحة الصومالية،26 يونيو يوم الجلاء الكبير واستقلال شمال الصومال ورحيل الا نجليز إلى الأبد وانتهاء فصول المعاناة والاضطهاد ومصادرة الحقوق والحريات رغم أن السياسيين الصوماليين عموما الذين أعقبوا المحتل على إدارة البلد لم يكونوا أبدا على مستوى الطموحات حيث كان معظمهم من صناعة الكولونيالية الأوروبية سواء كان الإنجليز في الشمال أم الطليان في الجنوب.

هنا هرجيسا درّة الشمال ورمانة الصومال وموئل العزة والأصالة العريقة.

المكان: ساحة عامة في وسط مدينة هرجيسا حضرها السياسيون والأدباء والفنانون والجماهير الصومالية الغفيرة المتعطشة إلى الحرية والكرامة.

الزمن: منتصف الليل يوم 26.6.1960 للميلاد.

المناسبة: الاستقلال المجيد واستنشاق نسائم الحرية وعبق الوطنية يوم هبت نسائمهامن جنوب وشمأل.

الوصف العام: حالة عارمة من الفرحة والجذل يتخللها أبيات شعرية من الشعراء والأدباء تمجد اللحظة ولاتخلو بعض الوجوه من مسحة حزن غامضة عبرها البعض بالشعر حيث اعتبروا المحتل والبديل سيان في السياسة والفكر والرؤى مختلفين في الألوان والألسن ومتحدين في الأيديولوجية والمشاعر والوجدان!.

جاءت ذكرى استقلال الصومال أو بالأحرى الجزء الشمالي من الصومال، والأمة مقسمة، والوطن مجروح ومنهك، والتربة تعاني من الانفصال والتشقق، والعلم يشكو ويئن، ولايعني سوى قطعة قماش لامعني لها، يرفرف بالحياء في ردهات بعض المباني المهترئة، وفي بهو بضع مؤسسات أكل الدهر على نضارتها وشرب، لايجد يد حانية ولاقلوبا رحيمة ولا ضميرا حيا، ولاحناجرا وطنية تردد لحن الوطن في الصباح وحين تشرق الشمس معلنة عن يوم جديد.

ورغم دموية الوضع وقتامة الواقع إلا أن علمنا المزركش بالنجمة الخماسية البيضاء التي تعني السلام والصومال الكبير لم يفقد الثقة، 26 يونيو يوم تاريخي بكل المقاييس وما تحمله الكلمة من معني، يوم غير

مجرى الحياة للأمة الصومالية، يوم حمل عبق الحرية لشمال الوطن وأريج الأمل للجنوب...يوم شعر كل صومالي ألوانا من الفرحة وطفح السرور عليه حتي أبكته الفرحة، يوم أشرقت شمس الحرية من ذاك الجزء العزيز والرائد في كل شئ، يوم لايمكن نسيانه رغم الجروح والمحن والحروب والسياسة الهوجاء التي مزقت الوطن وجزأت المجزأ.

يوم ليس ككل الأيام!، وقعه مميز وذكرياته حية شجية يوم أصبحت ساعاته تاريخية بامتياز، ودقائقه أثلجت الصدور وأسحرت العيون وأذهلت الجمهور وألهمت الأدباء والشعراء وعزف الفنانون فيه ترنيمة الحياة وسيمفونية الوجود.

التصفيق ألهب الأكفة، وبحت الحناجر من أجل الهتافات المشحونة بالوطنية والنخوة الصومالية، وسالت الدموع الوفية وعمت القشعريرة جميع الأبدن لحظة إنزال علم المحتل مطأطأ الرأس كالح الوجه حزينا كئيبا عن سماء الوطن وفوق هامة هرجيسا، ورفع علم الصومال عاليا شامخا يتحدى المحن وينهي قروناً من نهب الخيرات وتنكيل الشعب وتقسيم البلاد.

أريج الحرية ونجوم هرجيسا الساطعة ألهمت المواطنين فبدأت الأشعار تلقي والأناشيد تتلى والأغاني تنساب من قريحة الأفراد، وردد الحضور بعفوية "ليرحل المحتل عن وطن حبه سكن في حدقات عيوننا وليطوي علمه إلي الأبد"!وترنم الفنانون معزوفة الوطنية والأبيات الخالدة التي تذكر كل صومالي حر لحظات الهناء حيث قال شاعر الحرية عبدالله سلطان تمعدي: "أنزل علم المحتل وارفع علم الصومال خفاقا".

النشيد الوطني الصومالي أبكى الجمهور، وعم النشيج لحظة صعود العلم إلى المعالي شامخ الرأس يرفرف وسط الجموع يضاهي السماء بزرقتها الصافية. ازداد الجمهور وهزّتة نشوة النصر علي المواطنين الذين انتظروا بفارغ الصبر حين تدق عقارب الساعة ب 12:00 صباحا وتشير الساعة إلى منتصف الليل لتحيي علمها، وتقطع العهود الوفية لحمايته من المحتل أن يعيد عهد الاستبداد، ومن الغريب أن يستولي عليه ويدوس كرامته، ومن الطائش أن يهون.

ذهبت الأجيال الذهبية للأمة الصومالية ورحل الآباء العظام عن البسيطة وتركوا للوطن أبناء جاحدين وأحفادا حاقدين، ولم يبق للوطن سوى بعض الشعور والأنفة الصومالية الجريحة، ورغم أني من بين من أنتقدهم إلا أني وفي منتصف الليل أقوم وأحيي العلم وأردد نشيد الوطن ولاأشارك صخب الحفلات وضجيج الموسيقى والندوات، بل سأقبل قطعة القماش الزرقاء سأحيي العلم كجندي متقاعد

في آخر يوم من الخدمة العسكرية أو كرائد باسل مجندل فوق ساحات الوغى يأبي للعلم أن يذل أويهون! وعندها أخلد إلى الكرى غير آبه بنفاقات القوم وهدير الرصاص احتفاء الخطب الكلاسيكية الرنانة في القاعات الفاخرة لأن "نداء القوم في العلن ليس ندائهم في السر ووراء الكواليس"!

انتهت المناسبة الوطنية التي فقدت بريقها في هرجيسا في السنوات القليلة الماضية، وبت في المدينة ليالي آنسة ولحظات من الود والصفاء، كانت أطلال الماضي تعذبني والتخيلات المجنونة تقض مضاجعي، ماذا لو كانت القيادة الصومالية منذ الاستقلال تتسم بالحكمة والأناة والعقلانية؟ وماذا لو لم يحارب النظام السابق أهلنا في شمال الوطن؟ وماذا لو لم يحمل الشماليون السلاح على وجه الحكومة وطلب أهلنا في الشمال حقوقهم عبر الوسائل السلمية بعيدا عن لغة البنادق وزخات الرصاص وحمرة الدماء وحمى التشريد؟ تركت هرجيسا وشعبها الودود وأنا لم أجد جوابا شافيا لأسئلتي التي تغرد خارج السرب على الأقل في هذا الظرف الحرج، ولكن لم أفقد الأمل أن يرجع ذلك العهد الذهبي للأمة الصومالية من جديد، حينما كان الوطن موحدا والجميع يستظلون تحت العلم الأزرق، وحينما كان ينتمي الشعب بكل أطيافه ومكوناته وشرائحه وجميع قبائله وأقاليمه إلى وطن موحد يسع الجميع.

كان مؤلما أن تشعر أنك غريب ينتمي إلى بلد آخر وأنت تعيش في عقر دارك، وفي مدينة كانت يوما من الأيام مدينة الحب والفن الأصيل، ومهد الأدب، وعاصمة يحمل الشوقُ إليها كل صومالي ملتاع بحبها، وكان يجتمع على مائدتها الواسعة جميع شرائح الشعب المهووس بعشقها، ولكن يجب أن نثمن الجهود الكبيرة التي بذلها شعبنا الأبي في شمال الوطن، وأن نقول لكل مواطن صومالي أبى أن يعيش تحت أجنحة الذل والخوف وحرص أن يحيى في بيئة آمنة تراعي الحقوق وتعيد الكرامة واستطاع أن يتغلب على منطق القوة والحروب وتحاكم إلى الدين والعقل والعراقة التليدة، شكرا أحسنت والباقي سيجيء إن شاء الله عاجلا أو آجلا، لأنه حينما تنفجر أشواق الأمة الصومالية إلى بعضها البعض من منابعها الأصيلة ستكون قوية بما فيه الكفاية لتبديد الأحلام الوهمية وتمزيق الكانتونات الصغيرة وتشريد أثرياء الحروب وأصحاب الأجندات الخارجية، وحينما يسود العقل المصاحب للعاطفة الصومالية الجياشة سيكون شيئا يفوق الخيال، لا يحجمه السياسي العفن بمواقفه، ولا يقف أمامه المتاجرون بالعواطف الكاذبة والتحريض الآثم، وستذلل الوطنية الحقيقية عقبات قد تبدوا اليوم من رابع المستحيلات، وسترسل الأخوة الصومالية الأتون القبلي والمشاكل إلى سكون القبور وفي طيّ النسيان وأعماق التجاهل.

وفي صباح يوم كانت رياح الصيف تهب من تلال ناسُو هَبْلود قطعت تذكرة السفر لشركة داللو للطيران في رحلتها المتجهة إلى مقديشو عبر جيبوتي، وهي شركة طيران محلية تابعة لرجال أعمال

صوماليين قاموا مقام الخطوط الجوية الصومالية بعد انهيار الحكومة وانعدام المرافق الأساسية والحيوية للدولة، وقدموا للشعب خدمات جليلة يتذكرها كل صومالي.

اتجهت إلى مطار عِغَال الذي كبر حجمه وزادت مرافقه الأساسية بسبب التوسعات الأخيرة حتى أصبح واحدا من أكبر المطارات في المنطقة، وفي المطار كانت السلاسة والهدوء والحيوية عنوانه الأبرز، موظفون في غاية النظافة والجمال، وعمال في قمة التهذيب والنشاط في الصباح الباكر. انتهيت من الإجراءت اللازمة في غضون لحظات وجلست مع رفقة الركاب في صالة الانتظار التي كانت مكتظة بالركاب المتجهين إلى جيبوتي الواقعة على حضن البحر الأحمر في طريقهم إلى مقديشو تاج الصومال الجميل، شربت قهوة الصباح وأنا أفكر في كيفية الرحلة التي انزعجت منها بسبب طريقها الطويل لأني كنت أفضل رحلة مباشرة من هرجيسا إلى مقديشو بعيدا عن الترانزيت والسفر الطويل.

كانت رحلة طبيعية في تفاصيلها الصغيرة وهادئة جدا في عمومها، لم أجد صحبة سوى رجل مسن لم ننسجم فكريا، بل غرقنا في الشطر الأولمن حديثنا حول السياسة والواقع وحتى التاريخ، وبعد رحلة استغرقت ساعتين ونصف تقريبا حلقت الطائرة فوق سماء مقديشو الحبيبة التي كانت تحتفي بحنان القادمين إليها ومبتسمة كعادتها رغم الجراح وجحود الأولاد، وعندما اقتربت من المدينة كانت تبتسم وهي تداوي جرحها الغائر في وسط الدمار والركام، وفي نظرة حانية لمعالم المدينة بدت لي المباني وكأنها أطلال ومدينة مهجورة للأشباح رغم المحاولات الجادة نحو الخروج من شرنقة البؤس والضياع إلى كرامة الدولة والأيام المشهودة لمقديشو عندما كانت مدينة العلم والثروة والسلطة في عموم شرق أفريقيا!.

مقديشو... تاج الصومال الجميل

في الثانية ظهرا هبطت الطائرة على مدرج مطار آدم عبدالله الدولي، وما إن نزلنا عن الطائرة حتى أنعشنا الهواء الذي يهب من المحيط الهندي، دخلت المدينة أو عمق مقديشو النابض بالحياة رغم الأيام المظلمة التي اغتالت القيم الباسمة والوجه المشرق لـ"حمر" ، وحمر اسم قديم لمقديشو نسبة إلى قبيلة حمير اليمينة التي حكمت اليمن قبل القرن الرابع الميلادي وسيطرت على مقديشو والتجارة البحرية للساحل الشرقي لإفريقيا.

مقديشو أو مقعد الشاه كما فسره البعض من أقدم المدن في المشرق الإفريقي حيث كانت في مقدمة العواصم الإفريقية التي تتحكم في التجارة العالمية عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج عدن وباب المندب، ووصل صداها إلى الهند والسند والصين وبلاد العرب، كما كانت قريبة إلى مومباسا وكلوة وسوفالة وزنجبار ومزامبيق والسواحل الجنوبية لأفريقيا، لذا كانت نقطة مهمة وهمزة وصل بين المدن الأفريقية والعالمية. موقعها المتميز وخيراتها الوفيرة وتاريخها الحافل بالمواقع الأثرية والإيقاعات الحية تدغدغ مشاعر القوى العالمية والشعوب الساكنة ماوراء البحار وعلى تخوم الرمال في الجزيرة العربية، المدينة العريقة التي تحاور المحيط منذ آلاف السنين تنطبق عليها مدينة الحضارة والآثار قبل أن تغزوا عليها الحركات الهمجية في بداية العقد الأخير من القرن المنصرم حيث طفأ نورها واختفى بريقها وتجهم وجهها الباسم طيلة قرون.

كانت مقديشو قبل أن تصل إليها أطماع الكولونيالية منارة للتنوع والاندماج، وبرزت في وسط مدن هائلة مطلة على المحيط الهندي كعاصمة تاريخية ومنبع العلم والأدب، كما كانت موئلا للثقافة والعلماء والإسلام الذي أنار للشعوب القاطنة في شرق أفريقيا. وفي حقبة الإمبراطوريات التي حكمت الصومال ظلت العاصمة الإدارية الأهم في المنطقة ومدينة العمران وقبلة السياح وطلاب العلم،فكتب الرحالة والمستكشفون انبهارهم بالعاصمة ونمط حياتها المتطور وثراء سلاطينها، وبعد وصول الاحتلال الأوروبي إلى السواحل الصومالية عام1892م واستأجرت إيطاليا من سلطان زنجبار موانئ بنادر لمدة خمسين عاما حفظت خيط التأثير وظلت رمزا للأمة وقلب الصومال النابض.

وكانت المدن الصومالية الساحلية قبلة القادمين من القارات القديمة منذ فجر التاريخ، حيث كان الاتصال دائما لاينقطع بين الحضارات المعروفة في القرن الإفريقي وبين الحضارت العالمية القديمة، وتروى كتب التاريخ والرحلات الزيارات التاريخية كما كانت الرحلات الاقتصادية والاكتشافية الهندية لم تنقطع يوما في القرن الافريقي قبل عصر الاستكشاف الأوروبي وغزو الرجل الأبيض لأفريقيا ودخول

الدول الاستعمارية خط التأثير وفي مقدمتهم البرتغال الذي وصل إلى المشرق الإفريقي في القرن السادس عشر الميلادي وسيطرت على المحيط الهندي قبل أن تكسر شوكتهم القوات العربية العمانية.

لقد عاش الصوماليون في شرق افريقيا فأسسوا الممالك وبنوا المدن وساهموا في التجارة العالمية وكونوا حضارات عريقة منذ القدم كحضارة بونت التي زارها الرائد المصري هينو(Henoo) في عهد الأسرة الحادية عشرة، وبعده وصلت الملكة الفرعونية الشهيرة حتسبشوت وحاشيتها إلى أراضي البونت وتم استقبالهم بحفاوة وكرم مازال الصوماليون يتوارثونها عبر الأجيال، وكانت البونت تصدر إلى الفراعنة العطور والبخور والكحل وجلود الفهود، كما كان أول اتصال صيني للشرق الإفريقي عبر بوابة بربرة عام 863م كما كتب المؤرخ الإنجليزي باسيل ديفيدسون في كتابه " إفريقيا القديمة تستكشف من جديد"، ورغم ذلك فالأحداث المهمة ومساهمة الصوماليين محليا وعالميا أصبح بعيدا عن الأضواء والتناول بالكتابة والدراسة والتأثير بسبب التغيب المعتمد للكولونيالية الأوروبية التي كتبت التاريخ وطمست كثيرا من المعالم الحضارية والتراثية للصومال، بينما روجت كثيرا من الحضارات الإفريقية المجاورة كأكسوم مثلا.

ولم تكن الأمة الصومالية تدون الأحداث والوقائع والتاريخ، بل كانت أمة غارقة في الوسائل البدائية وتستخدم المشافهة والتلقى كوسائل رئيسة للاتصال اليومي، سواء كان هذا الاتصال داخليا أو خارجيا، وكانت تحفظ ثقافتها وأساطيرها، وألعابها الفلكورية ورقصاتها الشعبية، وأيامها وحكاياتها المتناقلة جيلا بعد جيل بالمشافهة والارتجال، مما جعل الأرشيف الصومالي مليئا بالتراث الشفهي، كما حفظ التراث الشفهي الصومالي بين دفتيه عادات وأعرافا، وفنونا، وأغانيا، وأهازيجا.

وتعد ثقافة الشفاهية والإرتجال ثقافة شائعة وعادة منتشرة بين الشعوب والمجتمعات بشتى أنواعهم وأعراقهم وبلدانهم، إذ نجد أنها كانت أعرق طريقة عرفتها البشرية لنقل الأخبار وحفظ التراث وتخليد اسم الحضارات، وكان الشعب الصومالي من بين هذه المجتمعات التي إعتمدت على طريقة النقل والتلقي ولم تعرف الكتابة والتدوين إلا لاحقا.

ومن المفارقات العجيبة أن الأمثال والحكم والأساطير والأدب والحكايات الصومالية الشفهية التي لم تكتب بعد يعتبر مخزونا ثقافيا هائلا وموردا علميا كبيرا فقدناه بسبب عدم التدوين والكتابة، كما يعتبر أكثر بكثير من المكتوب سواء كتب في اللغة الصومالية، أو العربية، أو الإيطالية، أو الإنجليزية، وهذا مما جعل الصومال بلدا غامضا تاريخيا، وشعبا لايُعرف عنه إلا النزر القليل حتي بين أبناء محيطه الإفريقي والعربي.

وبات مألوفا أن نجد أن معظم شعوب العالم لايعرفون شيئا عن ماضي الصومال وتاريخه وتراثه، رغم أن أعدادا هائلة من الصوماليين يعيشون في جميع القاراة المأهولة، وذلك بندرة الكتب المتناولة لهذه القضية بعيون صومالية منصفة تعرف التاريخ وسبر أغوار الماضي وتحمل لهذا الوطن حبا يقود إلى الحقيقة، واليوم لا يجد الباحث الغربي أو العربي كتبا تتعلق بالشان الصومالي أرضا وشعبا، سواء كانت سياسية أو ثقافية أو دينية لقلة الكتابة والتأليف عكس الروايات الشفهية التي يحفظ منها الشعب الصومالي كما هائلا منها، ورغم التغير الكبير الذي طرأ على حياة الصوماليين من الحروب والصراعات والهجرات الكثيرة إلى شتى بقاع القارات الماهولة، مازالت الرواية الشفهية سيدة الموقف والطريقة الوحيدة التي يتناقل عبرها الأجيال أحاسيسهم ومشاعرهم وتراثهم الأدبي والحضاري.

تطورت مقديشو عبر التاريخ منذ تأسيسها من آلاف السنين فكانت درة المحيط وتاج الصومال الجميل قبل أن تشوه الحروب معالمها التاريخية وأماكنها الأثرية، أتجول على الأحياء القديمة للعاصمة مقديشو، البيوت مهدمة، والطرق مكسرة، ورغم هول الدمار والأكوام المتراكمة مازالت الحياة نابضة بشدو الطفولة وشذرات من ألحان موسيقى بهيجة تتعالى من الأكشاش والراديو العتيق المتدلي عند فوانيس بائعات القات في شوارع مقديشو.

في مدينة تواجه الحقول والأمواج والإبل، وفي ليل تضوع بالخيال كنت أصعد على أجنحة الآمال ذرى النجوم، وأتمعن إطلالة القمر الذي يبعث ضواء باهتا على أحياء مقديشو وحاراتها وأزقاتها الترابية ومقاهيها القديمة، وأحاديث المقاهي على وقع أوتار تراثنا الغنائي المتفرد مكتوبة على أرصفة الزمان وذاكرة الإنسان الصومالي.

ليل يتهادى على كتف الظلام أثار أحاسيسي نحو التعمق في المساجد والقلاع والشواطئ القابلة الرسمية للهجرات والمعارف والإسلام، كل شيء في مقديشو يبدو وكأنه صورة مصغرة لواقع المدينة، وجوه تحمل كآبة الماضي، وملامح أذابها عرق الجبين، وأولاد يلعبون في الشوارع وفي الميادين والطرقات الجانبية، وموجات من البشر يغدون إلى المدارس والجامعات والمعاهد والمراكز التعليمية، الأزقة التاريخية باقية وتفوح منها رائحة القهوة الممزوجة بالبارود، والمعمار الأنيق لمدينة أبى الاندثار وإن نال حظه من التشوه والعبث.

البيوت القديمة تعاني من الإهمال والصدأ، وبريق عيون الأطفال الغادين إلى المدارس تخبرك أحلاما وردية اغتالتها الحروب والصراعات، التشويه المقصود لمعالمها وتاريخها والترقب الدائم للقادم المرعب

حوّل الناس والمدينة إلى هياكل حزينة، وبعد سنوات من الحروب لم يستطع طرف أن يتغلب على خصمه لا بقوة السنان ولا بحجة اللسان ولا بمنطق القبلية العاجز.

ورغم ذلك مقديشو ما زالت تاج الصومال الجميل وتبتسم لوجوه محبيها بطريقتها الخاصة، وما زال اسمها يحمل موسيقى جميلة لكل صومالي، الشوارع بدأت تحتفي للقادمين من المهجر والشتات الذين هربوا من جحيم الحروب والصراعات التي لا تهدأ منذ انهيار الحكومة الصومالية المركزية عام1991م، وارتفعت موجات الأمل وإعادة الصومال إلى مكانها الطبيعي بعد اختيار الرئيس الجديد فرماجوا لسدة الحكم في الصومال رغم الصدمة الكبيرة التي سببتها خطوات الحكومة وتقاربها على بعض الدول المجاورة على حساب الحركات التحررية الذين يحملون همّ "الصومال الكبير" وتحرير الأقاليم الصومالية التي ترزح تحت الاحتلال الأفريقي في القرن الواحد والعشرون.

كثير هي الإعتبارات التي تجعل الرئيس الجديد يعيد لمقديشو ابتسامتها وهيبتها وللشعب الصومالي حيويته المعهودة، فهو أول رئيس ولد في مقديشو يتسلم زمام السلطة منذ استقلال الصومال عام1960م، إضافة إلى الشعبية الجارفة للرجل في أوساط الشباب والطبقة الكادحة الذين اكتووا بنار الحروب والصراعات، إضافة إلى صدقه ووطنيته في زمن قل فيه الوطنية وتقديم المصلحة العليا على المصلحة الخاصة، أما تجار الحروب وسماسرة الدماء فمن المتوقع أن تشكل أدمغتهم الجوفاء وعقلياتهم المتحجرة حجر عثرة أمام التقدم واستتباب الأمن.

كنت سارحا مع الخيال ونفض الغبار عن الأحلام، هنا خيوط وحكاية تشابكت وتتابعت فصول معاناتها ونضارتها!، وفي مقديشو الجمال لا ينتهي أبداً!... تتكسر زرقة البحر فوق جناح الليل في جو مشوب بترانيم صوفية تصدح من المساجد العتيقة والزوايا القديمة والمزارات الموغلة في القدم. في مدينة مترعة بالجمال والتراث الفني تحضر أوتار حليمة مَغُول وشذراتها العذبة في حنجرة التاريخ، وأغاني الصومال وطبولها وسحرها تأتي من شرخ الليل فتصفى الوجدان وتمنحنا لحظات من التحرر. وإذا أطلقت عنان روحك فوق مقديشو سترى طيورا صادحة فوق تمثال حواء تاكو الشامخ على كتف مقديشو، وعجوز مسنة بريق عيونها ينسيك الألم، وطفلا شريدا يتوسد سهوب الغسق ويستيقظ بتخمة الصباح وضوء الفجر الساطع.

طيلة تواجدي في المدينة كنت ضيفا على جمالها، ودبّ في وجداني الأنس، وبين شغفي لها واحتفائها بي التقى الحب مع العرفان وتعانق العشق والوفاء، ورسما لوحة جميلة من التعلق الذي يتولد بين المحبين

في دروب الحكايات والأيام الوطنية التي كانت مقديشو تعيشها في تلك اللحظة، المدينة تحتفل بمناسبة الأول من يوليو وجلاء الطليان من الأراضي الصومالية عام 1960م.

الأول من يوليو 1960م

أمام الرؤساء والقادة ومارشالات المحتل وممثلي دول العالم والأمم المتحدة وفي وقع موسيقى صومالية وأغاني وطنية كانت مقديشو ترحب بأجمل ليل في تاريخها الطويل، وكانت الفتيات الصوماليات يتبخترن بأزيائهن التقليدية المستوحاة من لون السماء، وهن يتجولن في المسرح الخشبي وسط تصفيق حار وزغاريد عذبة، وكان الرجال يلبسون الإزار ويتوشحون العلم وهم يرددون بصوت هادر "تحيا الصومال واحدة موحدة" ويؤدون وفق إيقاع فلكوري لوحات حركية وقفزات تراثية ورقصات شعبية نالت إستحسان الحاضرين.

برآءة الأطفال وضفائر الفتيات السمراوات والشعب الجميل الذي ينتظر بدء مراسم إيقاد شعلة الاستقلال، والجو المفعم بروح الوطنية ودولة القوافي، والسهر على أنغام السحنة والثقافة والخصوصية الصومالية أضفى على الحفلة محبة من الشجن الصافي. في هدوء ورفعة سكب الحاضرون دموع الفرحة واجتاحت أبدانهم قشعريرة عنوانها الاستقلال والحرية عندما عزف النشيد الوطني الصومالي، والنشيد من كلمات الشاعر الأديب حسين فارح دبد رحمه الله وتلحين الفنان عبد الله محمد محمود رحمه الله.

كانت المشاعر تتدفق كالسيل الهادر وكانت الأمة الصومالية في شتى فئاتها ومناطقها ومشاربها تحتفل من أجل استقلال الأم والحضارة الأصيلة والتاريخ قبل الجغرافيا الذي مازال يعاني من التبعثر والتفكك منذ قدوم الاحتلال الأوروبي في الأراضي التاريخية للأمة الصومالية في بداية القرن16الميلادي كنجدة وقوة تحمي الإمبراطورية الحبشية ممثل الكنيسة في المشرق الأفريقي تاريخيا فيما مثّل الصوماليون المسجد عبر الصراع العقائدي المحتدم في تلك المنطقة العصية على الوفاق والتداخل الثقافي والعرقي.

الأجواء الجميلة والوجوه السمراء الحالمة ولمسات مقديشو التي ازدانت بلونها الأزرق الصافي ساهمت في رتفاع معدلات الصفاء وكأن الطبيعة بكل ألقها وجمالها تشارك معنا عزف لحن السعادة الذي نرسله إلى أوتار الحياة وأقاليم الوطن الممتد بامتداد السمرة والإبل في القرن الأفريقي.

في الحفل البديع كان الجميع منتشيا بنصر الاستقلال وجذلا بسعادة الانعتاق وجلاء الطليان من بلاد البخور والعطور إلى بلاد البيتزا والرومان القديمة، ولم يكن تدري الجماهير الحاضرة في تلك الليلة أن في رحاب الحفل إشارات واضحة وفي بعض الأحيان غامضة تدل على ليالِ مكروه قادمة وإن تأخرت إلى ثلاثة عقود من تلك الليلة المقديشاوية لأن كثيراً من أيقونة المناسبة ومن لبس البذلات الأنيقة والثياب الفاخرة

من مال العام لم يكونوا سوى بذرة خبيثة تمارس سياسة شفير الهاوية وتطبق أجندات المستعمر واستراتيجيته المدمرة.

كان في ذاكرة الجموع ألم المحتل وجرائمه وكان الأمل يتراقص أمامهم ويوحي بأن ليالي نشيج الباكين وأنين المحزونين وبكاء الأرامل واليتامى والتنكيل الذي لاضفاف له قد طويت صفحته على الجزء الجنوبي والشمالي للوطن على الأقل وإن بقيت ثلاثة أجزاء من الصومال الكبير على أيدي المحتل الأفريقي والأوروبي ، ولم يكن في بال من كان صباحاتهم مطرزة بشذوى الألحان قبل نصف قرن من الآن أنهم على شفير الهاوية وأن أنظمة استبدادية ينخرها الفساد ستجثم على صدور المجتمع، وأمراء حرب يتاجرون على الرذيلة سيرهقون ماتبقى من الوطن، وأن أثرياء الصراع الراقصين على أشلاء الشعب سيتمكنون من مصيره وتوجيه بوصلته نحو التشظي والألم والحزن، وأن التاريخ سيبكي كالثكالى بلا أنيس، والجغرافيا ستتحمل كبت الحرية والتجزئة والتمزيق والتشتت!.

ولم يكن من بين الجموع الغفيرة التي احتشدت لحظة رفع علم الصومال وإنزال علم الطليان من يعتقد أن تاريخا أسودا سوف تنتظر أبناء الحاضرين وأحفاد من ضحوا بالمهج والأرواح من أجل وطن يليق بنا ويسع الجميع ويضم جميع الشرائح والمكونات الثقافية والعرقية للأمة الصومالية، ومن أجل دولة تحمي العرض وتصون الكرامة وتحفظ المقدرات وتذود عن المقدسات، ولم تكن تعرف تلك الحسناء التي ملأت العبرات مقلتيها وأخلدتها الصور بابتسامتها الساحرة وجمالها الفاتن أن الكلمات المعسولة والإبتسامة الصفراء لبعض القادة مؤشر على الجمر الذي تحت الرماد وأن قلب المحتل مازال باقيا رغم رحيل الجسد (إبدال اللون الأسمر باللون الأوروبي فقط رغم بقاء الأيديولوجية والفكر الكولونيالي).

في أجواء الحرية كان الحديث يدور حول الشهداء الذين سقطوا في طريق الحرية وضرجوا الدم القاني على التربة الصومالية الطاهرة، وكم من الكنوز الثمينة والموارد الغالية والمعادن النفيسة انهبها المحتل، وكم من الأجيال التي إغتال الكولونيالة أحلامها أو أزهقت روحها بسبب القتل والتعذيب ونشر الأمراض الخبيثة والأوبئة الفتاكة، وكم من بطل قاد الأمة نحو المجد وسطر دمه في صفحات الوطن جعل حياته مهرا للاستقلال، وكم من مناضلة شجاعة صومالية فقدناها من أجل هذه اللحظة التاريخية؟

كان الحضور يتذكر حجم المعاناة والقتل والإبادة الجماعية والاضطهاد الذي مارسه المحتل على الشعب الأعزل عبر أربعة قرون فيسوّد الوضع ويتبلد الذهن وتسود الكآبة ويتحول الحديث إلى أشجان، وفي خضم الصمت الرهيب يتحدث مناضل على مشارف العقد التاسع من عمره عن البطولات النادرة

والكفاح الطويل والوقائع التاريخية والأيام المشهودة وآباء صنعوا مجد الصومال دون أن تكتحل أعينهم علم الاستقلال فيتحول الموقف إلى مسرات مشوبة بحزن أو ابتسامة على ضفاف الألم قبل أن يقطع المشهد السينمائي الحي صوت الميكرفون أو رائحة القهوة أو سعال رهيب وربما بكاء طفل هاجمه الكرى في حضن أمه!

في تلك الليلة التاريخية هاجس الخوف بدأ في رحاب الحفلات والخطب! وكان يردد من اعتلى على المسرح وداعب الميكرفون وجوب بسط هيبة الدولة وإزالة العراقيل عن طريق الوحدة وضبط الأمن وإدارة البلد وجمع الناس في صف صومالي موحد والبحث عن الأقاليم الغائبة التي ترزح تحت الاحتلال الإفريقي الأسود (كينيا، إثيوبيا) واستقلال الساحل الصومالي في جيبوتي، وكان هذا الصوت الوطني والمزيف في بعض الأحيان يرسم سطور الفرح على محيا القادة وجبين الشعب.

كانت الحرية المطلب الوحيد للإنسان الصومالي الذي اكتوى بنار التفرقة والتشتت والتبعثر الجغرافي والتنكيل الأورروبي والعنجهة الأفريقية، ومن أجل تحقيق هذا الحلم ذاقوا الأمرّين، وعندما جاءت الحرية نسوا كل المآسي والنكبات لأن البسطاء دئما ما تعتريهم مسحة من الحبور أو طيف من الفرح في المناسبات الوطنية، ولكن لم يكن القادة الذين أفرزهم الواقع وساعدهم الحظ على لوصول إلى المراكز الحساسة والتصدر في المواقف وصناعة الأحداث من طينة الكبار أو لم يكن من بينهم من يملك كاريزما القيادة وصفات القائد الموهوب إلا نادرا، بل كان معظمهم من أبرزته ثقافة المستعمر ونما في جلباب المحتل وبذر فيه سطحية التفكير وسذاجة الفهم وفقد الإيمان العميق بالوطن لاحتكاكه بالمستعمر الغاشم.

وكان حتما على وطن قادته أخفقوا في الفرق بين المحتوى والمفاهيم وفقدوا بُعد النظرة والجسارة والمسؤلية ولم يرتقوا إلى قدر الوطن أن يتجرعوا كؤوس الذل أصنافا وألواناً، وأن تمزقهم الحرب ويشتتهم الصراع وتبتلعهم البحار وتلتهمهم المجاعة وتنسفهم المدافع في القرن الواحد والعشرين!.

شاطئ ليدو.. المتنفس الوحيد في زمن الأزمات

بما أن الزيارة إلى مقديشو تعتبر ناقصة مالم نخلد صدى ذكراها في الساحل الحريري للصومال ذهبت إلى منتجع ليدو (LIIDO) السياحي الذي يعد أرقى وأجمل شاطئ في الصومال .على الأقل في هذا الفترة منتهزا وداعة الليل وخيمة اللقاء، ورغم تأخر الزمن وخطورة الموقف كنت مضطرا لزيارة الشاطئ الذي ملئت حكايته اسماعنا على طول السنة وأيام كنا ضحايا الغربة،ذهبت إلى ليدو وتحت حرارة الشمس الحمراوية الدافئة مشيت متأنيا على الرصيف البحري لساحلنا المقديشاوي والجمال يأخذني إلى زرقة المحيط والأمسيات الأيقونية، والابتسامة الموحية للجميلات اللائي ينشدن الدفء من الرمال.

في سحر الهدوء وفي سكون المساء تومض مشاعل الحبور من بعيد، وعلى هامات الأمواجتضوّع النسيم العليل وأضفى على الأجواء أريجه الفوّاح ومسكه الفاخر، وبدأت الصبا تداعب النفوس وتحرك بطريقة مثيرة خصلات الجميلات وشعرهن الفاحم، وسال نهر الكلمات الذي كان يتدفق من أفواه الأصدقاء بانسيابية عجيبة تنسينا المكدّرات التي تحيط بالإنسان الصومالي منذ سنة 1991م.

على صفح المحيط وصهوة المياه المتلاطمة سفن رابضة تتهيأ لجولة بحرية قصيرة، وسفن صيد شراعية متجه نحو عمق المحيط، وأخرى ألقت المرسال ومركونة في المياه الضحلة، ولاشات سريعة تستعرض قوتها وتتجول داخل المحيط بخفة ورشاقة ويركبها من يريد استنشاق المياه مقابل ثمن زهيد، وزوارق سريعة تتراقص على وقع الأمواج .

تبدو ساحة الشاطئ وكأنها مهرجان لكافة شرائح الشعب، جماعات من البشر يمارسون شتى الألعاب والهوايات، وتزاحم شديد فوق الرمال وعلى الكراسي البلاستيكية لجميع الفئات ومختلف الأعمار، هناك وعلى حافة الأمواج التي تتكسر على رمال الشاطئ فتيات في عمر الزهور يلتقطن صورا جميلة وبأوضاع مختلفة ومثيرة، قد يرسلنها إلى حبيب بعيد توارى في غياهب النوى، أو إلى قريب ابتلعته الغربة. سألت نفسي وأنا أتأمل السرور الذي طفح على هؤلاء الشابات أيهما أجمل؟ السمراوات أم المحيط؟ فأجابت نفسي: أحتار أيهما أجمل! ولا أدري، البحر ولونه الأزرق أم الحورية وإطلالتها البهية!.

وهناك على مقربة من المصطبة الطويلة لبقايا المباني المنهارة مجموعة من المنسيين على هامش الحياة، يخزنون القات ويمضغون الأوراق الخضراء بنهم واضح وتلذذ شديد، وهم يتيهون في سراب النشوة الآنية

التي تنقلهم من عالم الحقيقة إلى الحيوات الزائفة، والخيال الفانتازي والمزاج العالي الذي يصور الكون وكأنه مترنح تحت قبضته.

وهناك أولاد يلعبون الكرة ويداعبون الساحرة المستديرة، ويمارسون هوايتهم المفضلة في ظل تجاذبات طفولية، واحتكاكات صبيانية، وشجار عبثي ينشأ عن أتفه الأسباب وينتهي في نفس اللحظة وبطريقة ساذجة وبريئة أيضا، وعلى الركن الهادئ البعيد عن أعين الفضوليين والمارة أحبة إقتربوا ونسوا كل الفراسخ المعنوية والأمتار الحسية، وهم يتهامسون ويتناجون ويتلذذون طعم الوصال ولذة الحب، وينهلون من نمير العشق ومعين الهوى الذي لا ينضب.

وهناك مبنى مهجور بقي شامخا ووحيدا رغم ركام الدمار وألم الذكريات، وكأنه مغارات وقلاع تناجي الدجى وترنوا إلى زرقة السماء الصافية، الشبابيك مكسرة، والأبوب محطمة، والجدران متسخة ومهملة، وتحول بعد كل هذه السنوات شاهدا لما آل إليه الوضع الصومالي الذي بدأ يتحسن في الآونة الأخيرة، ومن المؤكد أنه قاس الأمرّين وتجرع مرارة الماضي، وعلى أمامه أو قل إن شئت بهوه الأمامي الذي غمرته المياه أحجار مختلفة الأحجام والأبعاد متناثرة بشكل هندسي عجيب.

وهناك وتحت القبة الصفائحيةموائد مليئة بأشهى الطعام والمأكولات الشعبية الصومالية، وفواكهة طازجة، وخضروات لذيذة ومتنوعة، وحلويات محلية، وفطائر من عدة أنواع، ولحوم متنوعة ما بين مفروم ومشوي ومنضوج، وعصائر يسيل لعاب الانسان بذكرها، وألبان طازجة، وسندويتشات صومالية فاخرة. ولم يخلو الموقف كالعادة كتاب أدبي بنكهة لاتينية أمازونية باذخة.

على بساط المشاعر النابضة وصدى النغمات المتمايلة جلسنا في مقهى مطل على المحيط الهندي، حيث مد الأمواج يصل إلينا كل مرة ونحن نثرثر ونتجاذب أطراف الحديث ونسبح بلا أجنحة في جو مزركش بالصداقة والأخوة النبيلة،

مرت ساعات دون أن نشعر بالملل، وذابت الفروق فاتحدت النفوس، وهدأت الحركات وخفتت الأنوار ودارت الهمسات بين المحبين بسلاسة كبيرة، والجلسات في وسط المقاهي المتناثرة على كتف المحيط تجعل الثرثرة في أهداب الطبيعة جلسات أريحية بامتياز،

لا أحد هنا يريد أن يتذكر مرارة الماضي ومآسي الأيام الغوابر، الجميع غارقون بحبل الوصال وأحاديث الخلان في هذا الجو المفعم بالأمل والسلام المنشود، ولو سألت واحدا منهم عن الماضي المؤلم بكل

تفاصيله وآهاته وآلامه يقول ببساطة وفي عينيه مسحة من التذمر أو هالة من الغضب: أريد أن أعيش لحظتي، أريد أن أستمتع في الحاضر الذي نحن فيه وعن المستقبل الذي يطرق بابنا وبقوة، لأن الماضي في وطننا المنهك لايعني سوى لوحات حالكة، وأيام كريهة تركت في نفوس الشعب ترسبات سيئة وآثارا واضحة من النكد لم تزل باقية إلى يومنا هذا، رغم التحسن والتطور الذي طرأ على الوطن والسلام النسبي الذي شعر به الشعب في ظل حكومة صومالية تسعى جاهدة لإعادة الأمجاد والكرامة المفقودة للإنسان الصومالي.

حقا كانت أمسية مرصعة بفكاهات الزملاء، وطرائف الأصدقاء، وظرائف الفضلاء التي تجلو الهم ويزيل الغم، وصورا جماعية لأحبة سهرت أعينهم من أجل اللقاء، وبعد ساعات من الوصال المضحك توارت الشمس وغابت وراء السماء الملبدة بالغيوم، ونحن نستعد للعودة إلى بيوتنا أو بالأحرىإلى الافتراق الذي أصبح وشيكا.

من مقديشو اتجهت جنوبا نحو خط الاستواء إلى كسمايو مرفأ الذاكرة وملعب الطفولة، والمدينة التي تركتْ في وجداني قصص الحب وحكايات الماضي الجميل، في النوم كان يراودني حلمها، أتذكر أحيائها وأزقتها، المدرسة وأصدقاء الدراسة والشواطئ، فيهاجمني طيفها. في الصباح الباكر اتجهت صوب مطار آدم عبدالله الدولي، وكلمة "الدولي" تأتي عن نافذة الأمل والضفة الأخرى من نهر الحياة التي نحلم أن نعيش فيها، والحياة البراقة التي نتشبث بها في خضم المعاناة، والأماني، وإلا فمطار مقديشو يعاني من القسوة والإهمال وندبات الحروب واضحة عليه.

في صالة الانتظار تعرفت على معظم وجوه المسافرين إلى كسمايو رغم أني غبت عنها قرابة عقد ونيف من الزمن، الملامح لا تتغير والوجوه لم تغزوها تجاعيد الزمن، وهذه المعرفة ساهمت في تخفيف وطأة السفر، وبعد ربع ساعة من المحادثات الجانبية بدأت أنخرط في حكايات المسافرين، ونظرا لكوني متشوقا لجميع المعلومات والأخبار عن كسمايو بدأت أسأل المسافرين عن المدينة وتطورها؟ وكيف اتسعت وعدد سكانها؟ والأحياء الشعبية للمدينة؟.

أقلعت الطائرة من المطار وسريعا اتحدت السماء بزرقتها مع زرقة المحيط الصافي، وفي منتصف الرحلة وأنا أحلق بين السحب والطائرة التي تشق عباب الهواء وتتهادى فوق المحيط الهندي كان المطر ينزل وكانت السماء ملبدة بالغيوم وسحب مجلجلة غطت صفحة الكون، وكنت أستمتع بجمال الطبيعة والرحلة الميمونة، وفي كبد السماء وعلى متن الطائرة الكينية الصغيرة كنت أتذكر مقديشو تلك المدينة

التي لم تستطع الحرب والصراعات الداخلية أن تغتال حلمها ولا أن يخطف الدمار ابتسامتها الرومانسية الخلابة، وكنت أنظر عبر نافذة الطائرة الزجاجية إلى تعرجات الطرق والقرى الوادعة في سهول النهرين الخصبة (شبيلي و جوبا).

العودة إلى مرفأ الذاكرة

العودة إلى مرفأ الذاكرة لها ألف إيقاع أوهكذا خيّل إليّ وأنا على متن الطائرة التي هبطت على مدرج مطار كسمايو الذي لبس أبهى الحلل بعد ترميمه والعناية الفائقة التي لقيها مؤخرا. استقبلتني المدينة بطريقتها الخاصة وحنانها الأمومي، صيف رائع تجود به السماء بدمع المآقي بحاتمية عجيبة، سحب مجلجلة رُسمت على جبين السماء، وقوس قزح يداعب المزن ويلتف حولها بدفء، كل شيءيبدو وكأنه يحتفي بقدومي.

رذاذ المطر والثكنات العسكرية لقوات حفظ السلام التابعة للاتحاد الإفريقي (Amisom) المحيطة بالمطار كإحاطة السوار بالمعصم جعلا المطار قرية إفريقية بامتياز، ومما زاد من بهجة الأجواء وسحرية المكان الأمواج التي لاتبتعد عن مسامعنا حيث يقع المطار على مرمى الحجر من المياه وعلى حضن الساحل الغربي للمحيط الهندي.

المدارج القديمة والعمارات العتيقة للمطار وبدائية الوسائل المستخدمة فيه لم تعرقل سير الإجراءات ولم تعوق كثيرا سلاسة الخدمة وسرعة التنفيذ، بل كان اليسر والسهولة عنوان الخدمة، نزلت من سلالم الطائرة واتجهت فورا إلى الداخل، وقفت عند شباكة جانبية هروبا عن الزحمة، حيث كانت الطائرة تعج بالركاب الذين عادو إلى كسمايو في موسم العودة إلى الجنوب بعدما هدأت العاصفة وسكنت الحروب العبثية التي كانت تجري في المدينة قرابة عقدين ونيف من الزمان كانت المدينة فيها مرتعا للحركات الإجرامية المهوسة بالقتل والدمار وزعماء القبائل وسماسرة الدماء.

في الداخل تواجهك صالة متواضعة جدا رغم الجهود المبذولة من الحكومة الإقليمية بقيادة أحمد محمد إسلام الذي أعاد إلى المدينة هيبتها ومكانتها المرموقة في الخارطة الصومالية بعد اختياره رئيسا للحكومة الإقليمية لجوبالاند عام2013م، والحكومات الإقليمية أو الولايات في الصومال تمددت إداريا وتوسعت صلاحياتها سياسيا واقتصاديا حتى أصبحت تنافس الحكومة المركزية في مقديشو في كثير من الأحيان.

في الشباك الأيسر من كابينات المطار كانت تجلس فتاة في مقتبل العمر فاتنة المحاسن كحلاء الجفون هيفاء القوام رشيقة القد إذا ابتسمت تجتاح أوصالك حمى الإعجاب والتعلق عن قصد وبغير قصد، وبعد ابتسامة برئية ونظرات غير مركزة كانت قد انتهت الفتاة من الإجراءات اللازمة، وخرجتُ إلى بهو المطار الذي كان عسكريا في بدايته قبل أن يتحول إلى خراب وبيوت خاوية طيلة فترة الحروب الأهلية لتدب الحياة في أوصاله من جديد بعد إنشاء الدولة المحلية لأقاليم جوبا والآن يعتبر ثكنة عسكرية

ومطار مدني يقدم خدمات جليلة للشعب الصومالي في الأقاليم الجنوبية للدولة، التقيت مع صديقي الذي كان في استقبالي مع موكبه المهيب وحراسته الشخصية التي تقترب إلى فيلق عسكري كامل!

خرجنا سويا من المطار والجمال يغفو على محيّا القوم والابتسامة تطفوا على جبينهم، وفي الطريق القصير بين المطار والمدينة، كانت اللافتات الدينية بارزة والآيات القرآنية على اللوحات الجانبية تجذب الأنظار، قطعنا الطريق بالضحكات والألحان الكلاسيكية لرقصة الطانتو التي كانت تصدح من مشغل الراديو للسيارة الفارهة التي كان زميلي يتبختر بقيادتها.

كسمايو مدينة ضاربة في جذور التاريخ

كسمايو مدينة ناعسة على بساط الرمال بمحاذاة الساحل وتشتهر بموقعها وتاريخها قبل أن تدخل الأحزان والويلات التي جعلت المدينة ركاما وأشلاء وغَيّرت وجهها الباسم، ورغم ذلك تعتبر من المدن التي تحتل الصدارة في الجمهورية الصومالية، حتى أُطلق عليها درة الجنوب وفيّينا الصومال.

تاريخ كسمايو يمتد أكثر من ألف سنة، وظلت من أهم المدن المطلة على المحيط الهندي إفريقيا، وقد تعاقب على حكمها قبائل ودول وتقع على بعد 500كم تقريبا جنوب مقديشو العاصمة. اشتهرت كسمايو وذاع صيتها في عهد سلاطين زنجبار الذين جعلوا كسمايو مرفأ تجاريا ومقرا مهما في سلطنتهم، وخاصة في عهد السلطان برقش بن سعيد الذي سيطر على معظم الساحل الشرقي لإفريقيا قبل أن يتنازل عن حكمها لإنجلترا كجزء من إرث الرجل المريض (الدولة العثمانية) عام 1895م قبل أن تخضع للحكم الإيطالي في1924م بعد أن منحت شركة شرق أفريقيا البريطانية إيطاليا إدارة المدينة والأقاليم الجنوبية.

وبعد انتشار الممالك العربية على الساحل الشرقي للقارة الإفريقية، أخذت المدينة طابع الشهرة وأصبحت همزة الوصل للتجارة القُطْرية والحكم الحضارمي والعماني على شرق أفريقيا، حيث باتت مرفأ مهما للملاحة البحرية الذي يربط الساحل الافريقي بالشرق الأقصي وشبة الجزيرة الهندية والصين، كما كانت مرفأ مهما جدا للبضائع المتنقلة على طول الساحل الشرقي للقارة وإلى الأعماق البعيدة عن المحيطات هناك في أدغال أفريقيا وأحراشها، وبهذا كانت نقطة مهمة تربط أجزاء شرق إفريقيا بالعمق الأفريقي والبلاد الآسيوية، وبقعة تلاقحت الحضارات واجتمع الأفراد والجموع على بساطها، وتصاهرت مختلف القبائل العربية والزنجية والهندية والأفخاذ الصومالية وغيرها مما جعل شعبها خليطا ولوحة رائعة جمعت جمالية الوحدة وفسيفساء الشعب وتنوع الانتماء والخلفيات.

إختلف الناس في أصل اسمها ومدلولاته وفسر الجميع حسب أهوائهم، ولكن الأقرب إلى الحقيقة أن اسمها جاء من بئر عذب بدأت الحياة من حوله، وكلمة كسيما تعني باللغة السواحلية الآبار القصيرة، وقد أطلق الباجون على المدينة هذه التسمية بعد أن سكنوا فيها بعد صراع وحرب دامي مع القبائل الأصلية الساكنة في المنطقة قبل قدوم الهجرات العربية، ومن هذه القبائل البوران والزنوج وغيرهم.

مرت المدينة منذ انهيار الحكومة الصومالية بمراحل كثيرة ودار فيها حروب قبلية وحركية أخرت مسيرتها العمرانية والسكانية كثيرا، فبعد سقوط الدولة الصومالية كثر التنافس على السيطرة عليها

فكانت مسرحا ساخنا للصراعات العبثية طيلة سنوات الضياع، ولكن ومنذ سنة 2012م أشرق لكسمايو فجر جديد بعد تشكيل حكومة جوبالاند المحلية التي أعادت الأمن والهيبة إليها بعد أن بسطت هيبة الدولة على معظم الأقاليم الواقعة على ضفاف نهر جوبا.

دخلنا في عمق المدينة وبدت العاصمة الثالثة للجمهورية وكأنها مدينة سياحية ومعلما للرفاهية لكثرة السيارات بموديلاتها المختلفة، ولم تكن تشبه مدينة خرجت للتوّ من حضن الحروب والصراعات ومعفرة بالشجن والألم. عدم وجود رجال المرور المدربين وزحمة الطرقات وقلة النظام يفاقم الاختناق المروري للمدينة مما يصعب التنقل، وقبل أن أتوغل في المدينة تعرفت على وجوه لم يدثر الزمن ملامحها، ورسبتُ في أن أتذكر أشخاصا كنا نقتسم معهم ألوان الحياة، جمعتنا الظروف وفرقنا الزمن ومسح النسيان أسمائهم من خانة الذاكرة، اقتربنا إلى العمق التجاري للمدينة الذي يبدو عليه تغيرات جذرية كثيرة.

في عهد الحكومات المدنية المتعاقبة وفي صدر حقبة العساكر كانت كسمايو تتمتع ببنية تحتية مميزة مقارنة مع غيرها من المدن الصومالية أمثال المصانع سواء كانت عسكرية أو مدنية والمرافق الحيوية،ومن أهم مصانع المدنية في تلك الحقبة: المصنع السكر الذي يقع في قرية مريري التي تقع على مشارف المدينة وكان في حينه ثاني أكبر مصنع للسكر في إفريقيا بعد كنانة السوداني، ومصنع دباغة الجلود، وبقربه يبدو المصنع الكبير للحوم مبنىً فاخرا أشد وأصلب من شقيقه، كما كانت المدينة تتمتع بمصنع تعليب لحوم الأسماك.

ورغم أن التطور لم يكن في أوج عزه في عهد الحكومة العسكرية بقيادة الرئيس الراحل محمد سياد بري رحمه الله إلا أن المدينة لم تفقد بريقها وحيويتها التجارية وريادتها التاريخية، كونها تعتبر مدينة اسراتيجية في الأمن القومي الصومالي حيث تتحكم بالحدود الجنوبية للوطن، كما تعتبر مدينة مهمة نظرا لمكانتها ومرافقها الحيوية الكثيرة مثل المطار الذي يعتبر من أكبر المطارات في الصومال وفي المنطقة الذي كان عسكريا في بدايته، رغم الإهمال الذي طال جميع أقسامه في السنوات العجاف التي مرت بها الأمة الصومالية تلك السنوات الضائعات من عمر المدينة.

وتتمتع المدينة بميناء رئيس يعتبر ثالث أكبر مرفأ صومالي بعد بربرة ومقديشو، وتشتهر المدينة بثروات زراعية هائلة وموارد بشرية وحيوانية وسمكية تجعل المدينة غنية بمواردها ومقدراتها وقبلة لمنشدي الحياة، كما تشتهر المدينة بكونها مصنع النجوم للساحرة المستديرة والمستطيل الأخضر في القطر الصومالي إبان الحكومة المركزية، حيث بزغ منها نجم أفضل من داعب الكرة بأقدام سمراء صومالية،

ويكفي أنها القابلة الرسمية لعمالقة الكرة في الصومال، وأن قرابة 50% من بطولة الدوري الصومالي للأقاليم ذهبت إلي خزينة الأفيال.

عظمة المدينة وجمالها الطافح لا يتوقف هناك، بل المظاهر الفاتنة والمباني العتيقة على الطراز العربي والإيطالي الجميل، والفيللات الغارقة في الأشجار الباسقات على ضفاف الغابات ومستنقعات وامو(dhasheega waamo)، والحيوانات المختلفة أمثال القرود التي تقفز برشاقة من غضن إلى غضن، والفهود والنمور والأفيال العملاقة. ويبدو زئير الأسد في وسط الغابات كرعد يجلجل الأفق.

هذه الأشياء وغيرها وتفاعل التاريخ والجغرافيا والموقع الحيوي جيوسياسيا واقتصاديا جعل كسمايو مدينة مهمة في الخارطة الصومالية وليست كما يعتقد البعض مجرد شوارع وبيوت خاوية يسكنها الحزن، بل هي سرّة عواصم البلد، حيث الشواطئ النظيفة، والغابات الاستوائية المبدعة تحت وقع الأنهار المنسابة نحو المحيط ليلتقي العذب (نهر جوبا) بالمالح (المحيط الهندي) بهيئة بانورامية مبهرة هناك في غوبوين (Gobweyn)على بعد 15 كم شمال كسمايو.

بصمات الحروب الأهلية

واصلت السير وتجولت أرجاء مدينة مارست فيها كل هواياتي، هنا كان تذكار الحرية شامخا وبأنفة الصومالية قبل أن تهدمه الحركات التائهة، وهنا كان رمز الأنوثة الصومالية وهي ترفع علم البلاد بادياً للعيان قبل أن يجرف عليه هوس الهدم، وهناك كان مجسد للصداقة الصومالية الإماراتية يربض قرب حديقة الحرية قبل أن تشوه معالمه البارزة أعداء الجمال والتاريخ، فغرت فاهي من أجل هذا العبث المقصود بمعالم المدينة والدمار الهائل الذي لحق بعض البنايات التي كانت في الماضي تراثا حمل في طياته فصولا من التاريخ.

ولم يخل المشهد التراجيدي من بعض الاستياء من أجل العشوائيات التي اجتاحت المدينة بطريقة مذهلة جدا، والكم الهائل من العمارات الجديدة التي بنيت في الأماكن التي كانت سياحية أو أثرية أو مناطق حيوية أو ثكنات عسكرية محظورة في الماضي، أمثال المنطقة السياحية الواقعة على شرق القصر الرئاسي والثكنات العسكرية للبحرية الصومالية (مارينو) بمحاذاة الساحل.

الأحياء القديمة المحاذية للبحر والتي كانت النواة الأولي لكسمايو شاهدة على المصائب والحروب العبثية التي شهدتها المدينة أكثر من نصف قرن، والبيوت العتيقة صامدة رغم الصدأ والرطوبة، وتحولت المباني التاريخية إلى هياكل حزينة، وبالمناسبة لا يوجد مدينة صومالية أشقى من كسمايو التي كانت تتعرض للنهب والهدم والحروب التي لا تترك شيئا في كل خمس سنوات تقريبا، وكأن حظها الدمار والتشريد!، في حين كان المدن الأخرى تتقدم وتتطور وتواكب العصر والعولمة والعمران الذي يجمل وجه المدن.

السواحل النظيفة التي لم تجد من يعتني بها ويحافظ على جمالها تتصارع مع العابثين وأعداء الجمال، الذين يريدون أن يحولوا سحر الشواطئ إلى قمامات ومزابل نتنه لا تفوح منها سوى الروائح الكريهة والنفايات، وعنوان كل شئ في عالم القبح والقتامة!

المستشفى المركزي للمدينة الذي كان يوما من الأيام يعد من أفضل المشافي الصومالية يحاول اليوم التغلب على المشكلات العويصة وقلة الدواء والكوادر البشرية، ومازال المرضى يؤمّونه إليه، وبالمناسبة هو أول وآخر مستشفى رقدت فوق سريره سنة ثمانٍ وتسعين ميلادياً حينما أصابتني الملاريا وتركتني حرارة الحمى وتوهجها هاذياً صاخبا.

لم أكن أعي ما يدور حولي من وقع المرض ووطأة الملاريا، ولا أتذكر عن هذه التجربة سوى الشيخ العجوز الذي كان يرقد إلى جانبي، ورائحة الكلورين التي كانت تغسل في صحن دورات المياه، وكنت أتقيأ إذا استنشقت رائحتها الكريهة وإلى يومنا هذا أجد صعوبة كبيرة في التأقلم مع هذه البودرة رغم تقادم العمر وتراكم السنين.

ولا أنسي الممرضات والمديرة العامة البلجيكية، هذه الشقراء الفرعاء كانت تتجول في الغرف تتفقد وتواسي المرضى وتلاعب الأطفال في كل صباح، وبسبب فضولي وسذاجتي الطفولية، كنت أتعجب من صلعتها ولباسها الذي يجسد تضاريس جسمها ومفاصلها بطريقة لم أتعهدها من قبل، ويوما وأنا أتامل بريق صلعتها الغريبة قال لي طبيب من أهلنا تزوج الطبيبة البلجيكية لاحقا، أن الطبيبة أصابها داء وبفعله تساقط شعرها الأشقر! كانت هذه الإجابة غريبة بالنسبة لي في ذلك الزمن!.

المدارس المتنوعة والمعاهد المتعددة مثل جوبا الذي أتشرف أن أكون من ضمن أول دفعة تخرجت منها بعد انهيار الدولة المركزية الصومالية، وفانولي أقدم مدرسة أعيد فتحها بعد سقوط النظام العسكري، ومدرسة أحمد بن حنبل، ومدرسة فرجنة مازالت تخرج الأفواج تلو الأفواج وهم مزودون بالعلوم الشرعية والمادية، وإن كان البعض يعتبر أن التعليم في كسمايو مازال يترنح ويحاول النهوض من جديد بعد نكسة عام التسعين الميلادية، والتعليم في الصومال عامة في حالة الطوارئ والإسعاف، حيث المدارس لا تجد الدعم المادي ولا المعنوي، ولا تعرف أبسط متطلبات المدارس من المناهج الوطنية التي تمنح الطلاب معرفة راسخة وحبا لوطنهم، وموادا تراعي القيم والتاريخ والتراث، والكراسي والاثاث المدرسية، والطاقم الدراسي المدرب، وحتى الأزياء المدرسية المنظمة.

ومن لهو القول أن نذكر وجود الأدوات المعملية حيث نجد في الصومال من تخرج عن المدارس الثانوية وفي جعبته شهادة ثانوية ونال الامتياز في الاختبار في جميع المواد بما فيها العملي أو المواد العلمية مثل الرياضيات والفيزياء والأحياء والكيمياء دون أن يرى يوما في حياته اللاب أو المعمل! بل جل ما درس هو النظري فقط! وهذا يعتبر شئ غريب جدا في عالمنا اليوم الذي تخطى حيز النظريات والكلام المحشوّ بالتفاهات إلى التدريب والتجريب والإتقان وتقريب العلوم للأفهام عبر الدلائل العلمية والتجارب المعملية.

ذكريات الطفولة

اقتربنا كثيرا من بيتنا الواقع على مشارف مصنع اللحوم الرئيس للمدينة الذي بناه الاتحاد السوفيتي في منتصف العقد السادس من القرن العشرين بعدما يممت الجمهورية الصومالية الوليدة حينها وجهها ومزاجها السياسي نحو الشرق والشيوعية بعدما سئمت السياسة الغربية الأخطبوطية التي تماطل كثيرا، وصلت على مشارف المصنع أو بالأحرى قرب أطلاله وآثاره بعدما أصبح أثرا بعد عين، رغم أنه لقي اهتماما من نوع خاص حيث تم ترميمه مؤخرا وتحوّل من مصنع إنتاجي يصدر اللحوم محليا وعالميا إلى ثكنة عسكرية مهمة تتحكم بالتحركات العسكرية والمدنية لكسمايو!.

ذهب الصبا وتوالت الأيام وبهدوء وصمت، تغيرت الملامح وتبدلت المعالم وشاخت الذكريات! تجولت في الأحياء والأزقة المؤدية إلى بيتنا فلم أعرف سوى الطرق الترابية وأعمدة الكهرباء التي هرمت وتآكلت، والبيوت التي صدأت وقاومت الاندثار، ولولا الجدات الطاعنات اللاتي يجلسن خارج البيوت لم أكن لأتعرف عليه! وبعدما دخلت بيتنا جلست فوق حصير الذكريات وفي وسط جدران الغرفة أو الصندوق الأسود لأسراري وانكساراتي وأفراحي وأيامي، كانت رائحة الماضى تملأ أركانه، ورسائل الحب التي طالما انتظرتها في الأمسيات قرب سوق ياسين وأمام الكافتيريا الوحيدة لحيّنا تجمل الغرفة وتجعلها ذات أحاسيس خاصة.

وعندما دخلت غرفتي التي عشت فيها وأمضيت فيها أنضر سنوات عمري وجدت فيها ذاكرة حية، مكتبة متواضعة كنت جمعتها بعرق الجبين أتلذذ بقرآتها، وقصاصات للورق وكراسات بالية وجدران تحمل تواريخا لأحداث كتبتها قبل عقد ونصف أو أكثر، حقائب مدرسية عتيقة وكتب ومراجع قرأتها كثيرا، ومجلات قديمة كنت أتصفحها وعلت أوراقها هالة صفراء وأتربة، وصناديق مغلقة مليئة بذكريات وتواريخ مهمة تتعلق بالتكوين الجسدي والنفساني وحتى الوجداني.وأسماء كثيرة للأصدقاء الذين مازال بعضهم يتواصل معي رغم بعد المسافة وطول الزمن وصعوبة الحياة وبعضهم طواهم النسيان أو أرداهم الموت، أحداث مهمة مرّت وولّت، وأخرى تافهة أقبلت بسكون وذهبت بسكوت، وأحداث عادية كانت كبيرة في عيني في ذلك الزمن، وعناوين مهمة للدرس وأبيات من عيون الشعر كنت أعشق قرآتها وحفظها، ومعادلات حسابية صعبة أجلتها إلى حين يصفوا الذهن وتنتعش الذاكرة، ولكن تركتها في طيّ النسيان وفي غياهب الزمن. ما أجمل أيام الصبا كانت أحلامنا بسيطة لا تتجاوز الألعاب الطفولية وأرجوحة المدرسة.

ضحكت كثيرا وأنا أقرأ بعض الكلمات المبهمة، والألغاز الصعبة، والحكم الدينية، والمواعيد المهمّة التي خبأتها في داخل مذكرتي الخاصة، وبعض المواعيد لأناس كان لقاؤهم في ذلك الدهر أمنية الزمان وأقصى ما كنت أتصور، كما بكيت وأنا أقرأ لسطور كتبها ابن خالي الذي رحل إلى دار البقاء بعد انفجار غادر استهدف موكبه نهاية عام 2013م.

على صفحة الجدار وفي الكتب المدرسية وبين أوراق الدفاتر التي تنوء بالعلم والمعرفة كانت الذكريات تتناثر بين الورقة والمداد، ومن هذه الذكريات ما كتبت على الورقة الأخيرة لكراسة الجغرافيا "لا أستأنس بالغير"! كأني أسير وحدي في الفراغ أو في الفلوات والصحارى، و"أحب السفر والترحال"، وتذكرت كيف كنت متحمسا للسفر، وأنه عندما يسألني الأساتذة ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ كنت أقول وبسرعة شديدة: أريد أن أكون وزيرا للخارجية، ليس حبا لمهام الوزارة الفخمة ولا لثروتها ولا لسجلها التاريخي المعبأ بالإخفاقات تلو الإخفاقات إلا في زمن الوزير النبيل عمر عرته غالب (1969-1976م)، بل اختياري كان يعتمد على حبي الكبير للتنقل وشغفي الشديد بالسفر والترحال، ولم يكن اختياري ومضة عابرة بل إلى يومنا هذا أمتع أيامي هي الأيام التي أجدني مسافرا فوق سيارة تتهادى فوق الجبال والسهول والبراري، أو على متن باخرة تلهث عباب البحر وفوق الأمواج المتلاطمة، أو فوق صهوة الطائرات التي تقطع الأميال والفلوات في دقائق وتطوى الأرض طيّا تقرب البلدان وتجعل المستحيل ممكنا.

وعندما كبرت وجدتُ نفسي محاطا بالنوى وعصا الترحال تلازمني، حتى أصبح عمري مقسما بالتساوى على عدة دول وعشرات المدن ومئآت القرى!، وقطعت الأميال والفراسخ، وتسللت عبر الحدود وأنا أتهرب من عيون الشرطة ورجال الأمن أو سياج الحدود، وتدثرت لباس الخوف والمتاعب وأنا أبحث عن الأفضل، أو أنشد متعة السفر، أو منهمكا في العمل، أو تقودني الرحلات العلمية إلى متاهات التنقلات الإجبارية، والسير على الأقدام وبمسافات طويلة بعدما أصبح تخصصي صنواً للرحلة وشقيقا حقيقيا للسفر والترحال.

تغيرت المدينة جغرافيا واتسعت هندسيا، وتبدّلت الأحياء وتمايزت الحارات، ومعها تغيّر السكان والجيران والمعالم!، كنت متحمسا جدا لملاقاة الأحبة ومعانقة الخلّان، فتجولت في الجيران وكلي أمل أن أجد من شاركنا معهم شجار الطفولة وابتسامتها البرئية، أوجمعتنا الساحرة المستديرة في داخل المستطيل الأغبر، وركضت نحو المرابع وأنا أردّد النكات الطفولية الساذجة التي كانت تضحكنا من الشدق إلى الشدق والأحاديث التي كنا نتسامر على طيفها.وفي عز نشوة العودة كنت أتذكر أسامي الذين كنت أشتاق إليهم ويسوقني الحنين إليهم، فلم أجد إلا بضعة أشخاص متفرقين على أحياء المدينة، لأنّ

الأحباب والخلان إما رحلوا عن البسيطة، أو هاجروا عن المدينة، أو فارقوا الحيّ والمنازل الذين كانوا نورها الوهاج في يوم من الأيام.

أتفقد البيوت بيتا بيتا، وأتردد على الطرقات التي كانت تحوي آثارنا وبصماتنا الطفولية وقت العودة من المدرسة، والأزقّة التي كنا نلعب فيها فلا أجد سوى وجوه جديدة حالكة، وأطفال شكلتهم الحروب وجعلتهم كائنات غريبة وأشباح مخيفة، فأشتاق للأيام التي خلت حين كان الرفقاء يتسامرون أمام بيتنا وفي فنائه المعروف ب (أنفيلد) لكثرة ما كان الشباب يتحدثون عن الرياضة وجمالها وعن ليفربول العريق الذي كنت ومازلت أشجعه رغم غيابه عن منصات التتويج.

كنت أتذكر الأيام الخوالي في رحاب الأهل وأحضان الأمهات الدافئة، والزمن الجميل، والوجوه النابضة حبا وجمالا، والطرق الترابية لحارتنا الذي يحكي قصة أجيال وأجيال، هنا مرت القوافل الأولي للساكنين جنوبِ الجنوب، وهنا سكن الأجداد بعد رحلة طويلة وشاقة من الهضاب إلى السهوب، وهنا جلسنا الليالي الطوال وقصصنا حكايات أغرب من الخيال، حكايات طفولية مضحكة، وأحاديث صبيانية ملهية، هنا نسجنا روايات المراهقة بإتقان، وهناك تعلمنا عن الحب ومبادئه، عن الهجر والوصال، والعيون الدعج والتغنج العجيب، وتبادلنا النظرات الحاملة للحب والعشق السرمدي، والأجفان الناعسة بطول السهر وسهام الهوى، وفوق جبين الطريق المعفر أسهبنا في تحليل المباريات وتشجيع الفرق.

لا أنسي التفاصيل الصغيرة لحارتنا الواقعة في جنوب حيّ فرجنة، أمام بيتنا وعلى بعد مسافة قصيرة يقع منزل عبد الناصر صديقي الذي هاجر إلي أمريكا بعد سنوات الصداقة الممتدة بامتداد الوطن، أصبح فاقعا وكأنه يحاكي مشاعر صديقي في منفاه هناك في بلاد عم سام أمريكا أو أرض الفرص كما يقولون. وكان عبد الناصر قاصا مثاليا قلما يجود الزمن بمثله في الحفظ والسلاسة والتفنن والحرفية العالية من الانتقال الأنيق من قصة مضحكة إلى قصة مبكية، ومن حكاية موجعة إلى حكاية مفرحة، ومن الأفلام الرومانسية إلى أفلام الرعب والحروب، كان يحفظ ملايين القصص وآلاف الحكايات ومئات الأساطير المستوحاة من الأفلام والخيال، ومن الواقع، أو من الميثولوجيا الصومالية المليئة بمثل هذه القصص.

وعلى شمال بيتهم يقع منزل سياسي محنك عزف على جميع الأوتار السياسية الممكنة في القرن الإفريقي لديناميكيته السريعة وعقليته المبنية على "السياسة هي الفن الممكن" في صغرنا كنا نقول هو ممثل لدولة

معيّنة في كسمايو، لم يكن ظننا صحيحا أبدا، بل كان من إنتاج الخيال الصومالي المؤمن بنظريات المؤامرة والعدو الخارجي المتربص، رغم أن المعول الصومالي يهدم كل شيء ولم يترك ما يهدمه الغريب.

وفي جوار بيته يقف شامخا مبنى أول مدرسة قمت بالتدريس فيها عام2005م مدرسة إفتين الإبتدائية، ولا أنسى المسجد الصغير الذي قام الأحمدان الشابان الصديقان بترميمه وتجديده، وجابر المؤذن الخلوق والقارئ الصامت، صوته المميز يهز جنبات الحارة ويوقظ النائمين عن الصلاة فجرا، في مقتبل العمر وعلى رحاب هذا المسجد كنت أصلي بالناس صلاتي الفجر والعشاء، الأحمدان عاشا في الدنيا كريمين جسدا الأخوة الصادقة والزمالة الحقيقية وانتقلا سوياً إلي الرفيق الأعلى وإلى الفردوس إن شاء الله .

عندما كنت في المنفى الاختياري وبعد يوم جامعي طويل، كنت أتمدد فوق سريري واضعا رأسي المثقول بآلام الغربة وصعوبة الحياة على الوسادة متحملقا في سقف البيت والمروحة العتيقة التي تدور كبندول مهترئ، كانت الدراسة تأخذ الحيز الأكبر من وقتي ومحادثة الأصدقاء كانت المتنفس الوحيد في ظل غربة تختنفني، ورغم ذلك كنت أفتح من قلبي نافذة مطلة على بلدي، خاصة كسمايو المترنحة تحت عبء الحروب الأهلية، والحركات المهووسة بالقتل والدمار، وقبائل تائهة في موجات متقاطعة من حرب لا ينتهي. في غمرة الحنين كنت أطالع جمال المدينة وبهاء الإنسان، والحنين الشارد إلى ضفائر السمراوات، وعيون البسطاء، وأحلام الكادحين، والشوارع الترابية، والسواحل الخلابة، والبيوت المتلاصقة العامرة بصخب الأطفال وهمسات المحبين وقصص الحروب وأحاديث الحزانى.

ومن الأماكن الملتصقة في ذاكرتي الطريق إلى ميناء كسمايو وشاطئ ليدو الذهبي، ويحمل هذا الشارع الذي يعد أجمل ما بقي للأمة وللوطن بعد انهيار الحكومة الصومالية أشجانا وأحزانا، ويضم في داخل طيات إسفلته الباهت مئات القصص والمشاهد.

يعد هذا الشارع الذي بني في أواخر حقبة الاستعمار وباكورة أيام الدولة الصومالية من أهم شوارع كسمايو، حيث يربط المدينة بالميناء الرئيس القلب النابض إذ تمنح عليها البضائع والسلع وجميع ضروريات الحياة القادمة من بلاد ما وراء البحار. في صغري تعودت أن أمر عليه ذهايا وإيابا وأنا أتجه إلي الساحل لأمارس هوايتي المفضلة مداعبة الكرة في الهواء الطلق والرمال الناعمة، أو التفرج على جمال الميناء والجلاميد المتناثرة التي تشكل حاجزا منيعا بين الميناء والمحيط، والثكنات العسكرية للبحرية الصومالية الواقعة في الأنفاق داخل الجبال المحاذية للمحيط الهندي .

كنا نعد الأيام والساعات ونحن ننتظر يوم الخميس عنوان السعادة والحبور في عقل طفل حرمته الحروب جميع الألعاب الطفولية، ما أبسط أمنيات الطفولة! لعبة وتجوال، فضفضة ونقل الأساطير وسرد الحكايات الموغلة في القدم، كبرنا وذهبنا إلى أصقاع العالم نحمل هموم الوطن، وأحلاما برئية تنتظر التحقيق، وتغيّرت الملامح واقتربنا شيئا فشيا نحو الكهولة، ورحل البعض الى سكون القبور وغمرت الغربة بعضنا، وما زال هذا الشارع يخزن ذكريات تأبى النسيان، وآثار أقدامنا الطرية مرسومة على جبينه المضحاك.

أما بيني وبين شاطئ كسمايو الخلاب بروعة منظرة وجمال مياهه وزرقة أفقه الصافية علاقة حب لا تنتهي منذ أن كنت يافعا لا أفكر سوى في الدراسة في الصباح والكرة والتسلل إلى الأفلام والسينما التي كانت تبهرنا بعرضها الخلاب وتمثيلها الساحر المصحوب بترجمة لأفلامها الأجنبية إلى اللغة الصومالية في المساء، برفقة الطيبين، أمثال أخي الشهيد حسن نور، وصديقي المغترب إبراهيم، ومحمد عرمالي، وعبدالكريم باخا، وطوح عبدي يوسف، وعبدالرحمن معلم، ومحمد مصطفى، وآخرون دافعنا معا عن ألوان فريق مدرستنا في الصغر، وشكلنا مجموعة قوية في العراك والشجار في مرحلة المراهقة، وفي الكبر بعضهم رحلوا عن البسيطة وأعبائها، وبعضهم غيبتهم الغربة وابتلعتهم المنافي الشاحبة، وبعضهم مازال قابعا في سجون المستبدين والزنزانات الانفرادية لمصادري الحقوق ومكبلي الحريات.

إلى يومنا هذا الذي كبرتُ وزاد طولي وعرضي، مازال شاطئ ليدو يسحرني برماله الحريري وذكرياته المليئة دفءاً وشوقا ومحبة وبرآءة افتقدناها في زخات الرصاص، وزخات المدافع، ووقع التشريد، والغربة، وكأس المنون الذي شرب منه من كنا نتقاسم معهم الشجار الطفولي الساذج وحكاية الجدات والأمثال الشعبية، أو الحكاوي المترعة بالخيال الجامح والخوف والشر والقهر والمعاناة، والأبطال الذين يخرجون أخيرا لإزاحة الظلم ونشر العدالة.

جنوباً.. نحو الجزر الصومالية المنسية

جلست على الشاطئ أمعن النظر صوب الجنوب وفي تلَ يبدو وحيدا وباهتا في عمق الأفق البعيد، كانت الطبيعة تعزف ألحان الشجن ومياه المحيط تتلألأ تحت شمس ضحى الاستوائية، وكنت أحادث نفسي السفر نحو جزيرة خلابة يكتنفها الغموض وتحيطها الأحداث منذ أن سقطت فريسة للتجاهل.

كنت أخشى أن تكون نظرتي للجزيرة من المثالية الخيالية وأنها مقفرة تقابل المارين باللعنات وكثير من النسيان، وليس فيها سوى بيوت متربة تسودها الغبار والذكريات، وصيادون ينامون في منازل لم تنج من عاديات الزمن وفي جنح الظلام يغدون إلى سحيق المياه، وأرواح شريرة تهاجم تحت جناح الليل، وفي الصباح وقبل أن تشرق شمس أفريقيا الدافئة تتسلل إلى المعابر والمنافذ وتذوب في السراب وفي متاهات البحار الجارفة .

ولكن كان اكتشاف الجنوب والتوغل في البحر وما وراء الشاطئ يدغدغ مشاعري منذ أمد ليس بالقليل، لذا في مساء صافي الجبين من أمسيات كسمايو ذهبت أنا وأصدقائي إلى جولة بحرية صوب الجزر الممتدة في عمق المحيط الهندي.

من ميناء كسمايو وشريانها الاقتصادي والتجاري انطلقنا جنوبا واستقلنا زورقا يشق عباب الماء بزهو رغم عتاقته الواضحة والآثار التي تركت أصداء السنين على ملامحه. كانت معرفة جزيرة كانريبا المليئة بألوان التاريخ وخزينة الحكايات المنتظرة يزيح عنا كل الأخطار في بلد أصبح بؤرة للسفاحين ومصادري الحقوق منذ أن ولغ الصوماليون في مستنقع الحروب الأهلية في بداية العقد الأخير من القرن من المنصرم.

ابتعدنا عن المدينة، وتدريجيا ابتلعتنا المياه وتلاعبت بنا التيارات نصعد فوق هامة موج ونهبط لنصعد صهوة موج آخر يسد الأفق لضخامته، بدأ الزورق يرقص ويتمايل يمنة ويسرة في وسط المحيط العاتي، الزرقة ممتدة في رحاب المكان والسفن الشراعية المتجهة صوب الجنوب والمدن الساحلية تذكرني بالعصور الذهبية للمالك القديمة في المشرق الأفريقي، حيث كانت السواحل الصومالية من أكثر المناطق زحمة وموانؤها تساهم في التجارة العالمية منذ أن عرف العالم الملاحة البحرية.

سألني صديقي هل تعرف أول من أبحر من هنا صوب الجنوب؟ سؤاله أرجعني آلافاً من القرون واستجمعت معرفتي التاريخية والتراثية لكشف السدول عن عراقة هذه المنطقة حيث كان القرن الإفريقي معروفا منذ القدم، ودلّت كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ القديم وصول بعثات إغريقية

ورومانية وعربية إلى الصومال عبر البحر الأحمر وخليج عدن، أو جنوبا نحو المحيط الهندي قادمة من الممالك والحضارات الأفريقية المحاذية للساحل.

ومنذ ذلك التاريخ كانت الملاحة البحرية والرحلات الاستكشافية تتواصل نحو القرن الإفريقي عموما وبلاد الصومال خصوصا، إلى أن وصلت ذروتها في العصور الوسطى حيث شهدت تلك الحقبة الهجرات العربية والفارسية الكثيرة نحو الساحل الصومالي ومنه إلى أحراش أفريقيا، وتبع تلك الفترة الكشوفات الأوروبية واحتلال المنطقة وتمزيقها حسب المصلحة الإمبريالية.

صعوبة التنقل والمخاطر الكثيرة في الرحلات الطويلة في ظل بدائية الوسائل والجهل المسيطر على القارة شعبا وأرضا لم تثن الأطماع الأوروبية ولم تكبح جماح الرحالة الغربيين أمثال جيمس بروس وفاسكوديجاما وبيرتون وليفنجستون، بل قطعوا آلاف الأميال وتحملوا المشاكل من أجل معرفة أفريقيا واستكشافها لتكون القارة سوقا جديدا ترسل إليه أوروبا بضائعها ومنتجاتها إضافة إلى تأمين المادة الخام بعد أن دخلت عصر الصناعة، ولم يخل من بال الغزاة احتلال مراكز الثروة واستعباد الشعب من أجل تكريس هيمنتهم على العالم.

الجزر الساحلية للصومال وإن كانت تتمتع بمقومات اقتصادية وأثرية واستراتيجية إلا أنها تعاني من الخمول وأسدل عليها ستار كثيف من التجاهل، وخرجتْ عن الاهتمام الثقافي بل تشبه الجزر مدنا منفصلة عن بقية الوطن، وبات الشعب الساكن في تلك الجزر يبتعد شيئا فشيئا من محيطه الصومالي.

في السفينة المجاورة كان القبطان يشرب السجائر ويتحاورون بالسواحلية بينما كان موقد الشاي يضيء تجاعيد مسن ينشد قصائد مدحية للقبائل الباجونية توارثتها الأجيال منذ أن وصلوا إلى المنطقة. يطلق سكان الجزر على الأشعار والمدائح "بالمشاييري" وهي تحريف لكلمة المشاعر.

كانت قبيلة الباجون الساكنة في المدن الساحلية لشرق افريقيا من ضمن الهجرات العربية الكثيرة صوب البر الأفريقي منذ انهيار سد مأرب عام120م والعصور اللاحقة له. ومنذ ذلك التاريخ عرف القرن الأفريقي وصول أمواج بشرية عبرت البحر نحو افريقيا إلى أن حكموا الصومال أمثال دولة البو سعيد التي بسطت نفوذها جنوبا حتى وصلت السواحل الجنوبية الشرقية.

واصلنا السير نحو الأراضي المرتبطة بتاريخ الأسلاف وغزو الاستعمار الأبيض، حيث كانت الجزر الصومالية في المحيط الهندي الدفاعات المتقدمة للمحتل لحفظ المدن الساحلية والمصالح الاستعمارية،

كما كانت سجونا سرية منذ أن استولت شركة شرق إفريقيا الإمبريالية جنوب الصومال عام1835م قبل أن تتنازل لإيطاليا عام1924م.

شريط ساحلي منوع الأشكال والأجواء، وأسماك زاهية تلعب وتمارس هوايتها المفضلة الرقص على وتر الأمواج والقفزات السريعة وكأنها في مهرجان للرشاقة والوثبات العالية، الأسماك تزهو وتختال من أجل الحياة والمتعة الخاصة ونحن نشق عباب المياه من أجل المعرفة وحب الاستطلاع. كان منظرا يطربنا وينسينا الرحلة البحرية ومآسي مدن الأطلال الصومالية التي تحولت منذ عقود أوكارا للخوف والهمجية بعد أن كانت واحات وارفة الظلال .

وبعد أن أميالاً تراءت لنا الجزيرة من بعيد وهي شامخة في وسط هدير المحيط، كانت هضبة خلابة تحيطها المروج والصخور ولكنها خالية من السكان إلا قوارب الصيد وأصوات تخترق الزمان عكسيا، الملامح باقية رغم التغيرات الجيوسياسية والمناخية، والتربة مازالت تحوى بصمات الماضي ومآسي الحاضر.

هنا للتاريخ صدى يتموج في أذني وأنا أتجول في داخل جزيرة تحمل في طياتها أخبار وآثار الحقب القديمة، المباني السكنية والآثار العمرانية بادية رغم مرور عقود لم يسكن فيها أحد إلا العابرين نحو الضفة الأخرى للمحيط. هنا مدافع قديمة كانت تستخدمها البحرية الإيطالية قبل الحرب العالمية الثانية، وهنا أبراج للمراقبة ومباني عتيقة لا أعرف بالدقة أعمارها ومتي بنيت، ولكن أعتقد أنها كانت في العهد العثماني أو العماني حينما كان السلطان سعيد برقش يسيطر ويحكم المنطقة.

في السنوات القليلة الماضية بدأ الصيادون ينامون الليالي الباردة أو الماطرة في المباني القديمة للجزيرة، والمباني القديمة هي أنفاق وبيوت متلاصقة مؤلفة من غرف تربطها ممرات ضيقة بنيت تحت الأرض، وغرف صغيرة ليس لها شباك ولا تهوئة قيل لي أنها كانت سجنا ومنفى في زمن الكولونيالية الأوروبية، وبعد خروج المستعمر غمرتها النسيان وتحولت من مكان يسخدم لتعذيب المعتقلين السياسيين والمناضلين الأحرار إلى جزيرة منسية تترنم في وسط المحيط.

جلست على قمت جبل حزين أكتب ملاحظاتي فرأيت من بعيد مسجدا تفوح منه رائحة الإسلام الخالدة، كان يتربع فوق تلة بارزة تواجه المياه بشموخ، تجولت داخل الجزيرة وأنا أبحث عن نواة التاريخ ورحلة الجزيرة عبر الزمان والمكان. حقا كانت منبعا تاريخيا وجزيرة خلابة تفوح منها أريج مميز كأنها تأبى الاندثار، أشجار معطرة وأحجار احتوت حكايات ومبانِ تؤرخ للمنطقة، وروضة طبيعة ترقص فيها

الأعشاب وتتمايل الأزهار. كانت جزيرة تحمل بصمات الصومال في الزمن الجميل وعالما من العبق والجمال.

جنوباً: ما وراء السّافانا

"اجعله خيرا يارب" كنت أردد هذه الجملة وأنا في طريقي إلى مطار مدينة كسمايو في مستهل سفر يمتد من الشواطئ الغربية للمحيط الهندي إلى المشارف الشمالية لبحيرة فيكتوريا العظيمة، لم تكن رحلتي هذه هى الأولى من نوعها كي يصيبني الخوف والهلع المعروف عند الرحلة الأولى، بل منذ أن أصبحت عنوانا للتبعثر الجغرافي وأنا متمسك بعصا الترحال وأبيت في المدن البعيدة في انتظار رحلة قادمة إلى مجاهيل العالم أو أوبة مرتقبة إلى الديار. كانت الكلمة الحاملة لتضرع الدعاء وشجن الشوق تأتي من أعماقي ونابعة من خواطري وتصوراتي للقاء المرتقب مع من انتظرناهم طويلا في دروب الحياة وفي متاهات الحب، وكنت أدرك أن هذه الرحلة ستكون الأهم في حياتي لكونها ستشكل ملامح حياتي القادمة وترسم خريطة مستقبلي وتخطط لمآلاتي وتجعلني إنسانا مختلفا عن الحقبة الماضية من حياتي المليئة بالتنقلات والرحلات.

وصلتُ إلى مطار كسمايو عند العاشرة صباحا، كان الجو مشمسا حارا وأزيز الطائرات التابعة للقوات الإفريقية لحفظ السلام وآلياتهم تملأ المكان ضجيجا وعجيجا، جلست في الصالة المتواضعة أنتظر الطائرة القادمة من العاصمة مقديشو في رحلة تستغرق 50 دقيقة، وبعد حوالي ربع ساعة من الانتظار هبطت الطائرة التابعة لشركة كينية استأجرها صوماليون للنقل الداخلي إضافة إلى نيروبي وبعض المدن القريبة، وفي غضون دقائق كنت على متنها متوجها إلى نيروبي.

أقلعت الطائرة المتجهة إلى لندن إفريقيا (نيروبي) وبعد غفوة عابرة فتحت حقيبتي فبدأت قراءة "الحب في المنفى" تلك الرواية السلسة التي فازت عام1995م بجائزة أفضل رواية عربية، وبما أنني من أولئك الذين مارسوا الحب في المنفى أعرف السبب الذي جعل الكتاب يفوز بهذه الجائزة فالحب في المنفي كئيب ومرعب وموحش. حلقت الطائرة بعيدا في أعماق الفضاء وكبد السماء وتهادت بين السحب والغيوم، وهنا تذكرت بيتا من القصيدة الجميلة (في طائرة) للشاعر الدبلوماسي السوري عمر أوريشة:

وثبت تستقرب النجم مجالا ***وتهادت تسحب الذيل اختيالا.

كانت الرحلة رائعة، والمشاعر عتيقة ولم أرفع رأسي من القراءة والمطالعة إلا والطائرة تحاول خرق ومقاومة المطبات الهوائية فوق مدينة وجِير الواقعة في قلب الإقليم الصومالي في كينيا (إنفدي) الذي منحه الإنجليز لكينيا في منتصف القرن المنصرم. "وجير" تعتبر من أهم القواعد العسكرية لكينيا مدينة تتعالي أبنيتها بين التلال والصحراء، وتقع في الطرف الجنوبي لوطني التاريخي، انتابتني قشعريرة تأتي من عمق التفكك الذي أصاب أمتي وتنهال عليَّ التساؤلات وتهاجمني الاستفهامات التي لا أجد لها إجابة

واضحة رغم مرور أكثر من نصف قرن منذ أن منح الاستعمار أجزاء بلدي إلى دول لم تجمعنا يوما أية روابط سواء كانت تاريخية، أو تراثية، أو دينية، أو لغوية، أو عرقية، أو حتى وجدانية!.

هبطت الطائرة على مدرج المطار أو بالأحرى على مدرج فؤادي السارح بالأحداث والتغيرات والمواقف وأصوات تؤنب الضمير، نزلت من الطائرة ونزلت معي الأحاسيس المدفونة في داخلي والذكريات القديمة والخواطر الملهبة، عَلَم مزركش بألوان متنوعة يرفرف فوق الجميع، ولغة إفريقية يتكلمها الجميع لم تكن تشبه لغتي ولم تكن مفهومة بالنسبة إلى بدوي صومالي لا يتقن لغة غير لغته الصومالية، استنشقت هواء طلقا وعانقت الفضاء المفتوح على الجروح الزمنية العميقة، في هذه المدينة كل ما تبقى من إرث الماضي وتاريخ الأجداد هو اللغة الصومالية والهواء العذب، والفضاء الرحب، والسحنات المتشابهة بين الموظفة الحكومية في هذا المطار وبين بائعات الشاي في مدينة جُودي في الإقليم الصومالي الذي يرزح هو الآخر تحت الاحتلال الإثيوبي، أو بائعات الفواكهة والخضروات في مدينة علي صبيح أقصى الشمال الصومالي أو جيبوتي حالياً، وسمرة قمحية يزينها الحجاب لصاحبة دكان كانت تجلس بهدوء عند الطرف الجنوبي لمدخل صالة الانتظار.

التفكيك القصري لأجزاء دولتي لم يستطع أن يغير الانتماء والديموغرافيا، ولا أن يزوّر الملامح والمطالب، هناك وخلف الأشجار الخضراء والأعشاب التي تتراقص على وقع الرياح وجوه صومالية تشبه القصائد، وهنا وتحت عجلات الطائرة تراب أنتمي إليه وينتمي إليّ رغم جور الاستعمار الأوروبي البغيض وجحود الدول الإفريقية المجاورة.

على مشارف تلك المدينة كنت بعيدا عن العائلة والأصدقاء والوطن، وإن كنت أعيش في داخل وطن كان الأجداد يعتبرونه ملكا لهم، ووطنهم الأصلي منذ أن تمازجت القوميات وتباعدت الأمم، واتضحت الحدود بين الشعوب القاطنة في الشرق الإفريقي المتميز بتعدد القوميات، وتنوع الإثنيات، وتباين الحضارات، واختلاف السحنات، وكثرة اللغات، وعراقة العادات، والتقاليد المتكئة على تراث غني وتاريخ موغل في سحيق الأزمان .

على مقاعد الانتظار جلست وفي يدي "الحب في المنفى" الكتاب الذي كان أنيسي في رحلتي، لم نمكث كثيرا في المطار حيث واصلنا السير نحو نيروبي التي كنا في مطارها عند الواحدة ظهراً. كانت نيروبي كما عهدتها مدينة المتناقضات حيث يشكل الفقر، والحرمان، والقمامة، والوحل، والفساد، والشوارع

الترابية، إلى جانب الترف، والثراء الفاحش، والبيوت العريقة، والعمارات الطويلة، والمنظمات العالمية، والفنادق الأنيقة، والشوارع الواسعة، والطبيعة الجميلة لوحة نيروبي الشهيرة.

في السنوات العشر الأخيرة أصبحت كينيا محطة لا أغيب عنها كثيرا بسبب التاريخ والجغرافيا، فبعد تقسيم الأراضي التاريخية للقومية الصومالية إلى خمسة أجزاء وإيجاد كينيا نصيبها من الكيك الصومالي أصبح الصوماليون من المكون الأساسي للشعوب الكينية المختلفة ويشكل الإقليم الصومالي نصف خريطة جمهورية كينيا تقريبا، فكينيا التي تتكون من 48 قومية مختلفة الألسن والانتماءات والملامح باتت وطنا حقيقيا للصوماليين بعدما فصل الإنجليز المقاطعة الحدودية الشمالية إنفدي (N.F.D) عن الجسم الصومالي الكبير وضمها إلى الجمهورية الكينية الوليدة في حينها.

قبل وصول الإنجليز إلى الأراضي الإفريقية لم تكن كينيا دولة أو كيانًا معروفًا، بل كانت مقاطعات قبلية ومدن منفصلة عن بعضها يجمعها التجاور والأفريقيانية، وبعد الرحلات الأوروبية والبعثات الاستكشافية وفي مقدمتهم إنجلترا التي كان لها قصب السبق في الوصول إلى شرق أفريقيا جمعت الكيانات الجهوية والقبائل الإفريقية تحت مظلة محمية شرق أفريقيا الإمبريالية وكان ذلك عام 1920م، وبعد سنوات من الاستعباد والمهانة تمردت القوميات وبدأت الحركات الثورية وفي مقدمتها جبهة ماوماو وأخرى السعي الى الحرية واستعادة الكرامة والأرض، وكان لهم ما أرادوه ولو صوريا حيث اختفت الصيغة الكلاسيكية للاستعمار وبدأ احتلال من نوع آخر وبات الإنجليز يسيطرون على شريان الحياة في كينيا حتى بعد رحيلهم إذ ذهب المحتل وبقيت أيديولوجيته ولغته وفكره.

نالت جمهورية كينيا استقلالها وعمت الزغاريد والفرحة ارجاء الجمهورية الوليدة، ولكن لم تدم زغاريد الفرحة كثيرا ولم تكن السنوات اللاحقة للجمهورية الوليدة مليئةً بالتطور والانسجام السياسي كما كان الشعب يحلم، بل تغلغل الفساد في أوساط الحكومة والامتيازات وصلت الى ذروتها وتقاتل الرفاق وافترقوا، وفي نبرة استياء وخنق واضحين لأدء الحكومة التالية للاستعمار كتب الزعيم أودينعا والد رئس المعارضة الكينية الحالية رايلا أودينغا كتابه الشهير "لم نتحرر بعد"(Not yet Uhuru)وهو الكتاب الذي أصبح لاحقا أيقونة سياسية وفكرية لأفريقيا جنوب الصحراء.

وهكذا أصبح الصوماليون جزءًا أصيلًا من المكون الكيني ولايجد الفرد منهم صعوبة كبيرة في التأقلم مع الأجواء الكينية ولايشعر بالغربة أو الاختلاف بسبب القومية الصومالية البارزة في كل النواحي والمحاور

المهمة للدولة من السياسة إلى الاقتصاد والجيش إلى المجتمع المدني، وأصبحوا من صناع القرار بعد سنوات من الإقصاء والتهميش السياسي والتمثيلي في الهئيات الحكومية.

نيروبي ... تأملات مسافر

(إن ذلك المكان له طعم حرية من نوع خاص ويجد فيه المرء أحلامه) كارين بليكسن

كان ليل نيروبي البهيم الذي يبدو فيه الأفق صديقا للظلام يداعب مخيلتي مداعبة خصبة تحمل في طياتها بصمات التاريخ والحاضر، وانثالت عليّ. وأنا أتأمل تفاصيل الحياة في نيروبي. أفكار متعددة الألوان مختلفة الأذواق، ومتباينة المواضيع ولاغرو في ذلك فالمدينة التي تعتبر نبض إفريقيا ومن أكثر مدن القارة نشاطا وحيوية وجمالا تلتقي فوقها آلاف من السحنات والمصالح والمؤسسات، وتطبخ في فنادقها ومكاتبها التابعة للمجتمع الدولي. الذي هو وجه ناعم للاستعمار. السياسات وبنار هادئة وحارقة أحيانا، وخاصة السياسة الغربية والإفريقية الموجهة للصومال. ومنذ انهيار الحكومة الصومالية المركزية عام1991م تعتبر الأمم المتحدة الحاكم الفعلي للصومال عبر مقر الأمم المتحدة لإفريقيا والشرق الأوسط.

نيروبي(مكان المياه الباردة) بلغة الماساي، كانت قبل1889م منطقة جبلية وغابة كثيفة تقطنها قبيلة الماساي المنتشرة في عدة دول إفريقية منها كينيا وتنزانيا، وهي من أعرق القبائل الكينية ومن أكثرها تمسكا بالعادات والتقاليد؛ مما جعل منطقتهم قبلة السياح والزوار الذين يجدون متعتهم في ديار تلك القبيلة الإفريقية العاشقة للثياب الملونة والرماح والركض بمسافات طويلة جدًا.

ذاع صيت نيروبي أو المدينة الخضراء تحت الشمس (Green City in the Sun) بعد أن أصبحت عاصمة محمية شرق إفريقيا البريطانية في السنوات اللاحقة لإنشائها، واليوم لندن إفريقيا تبدو مدينة عصرية نظرا لمظاهر الحياة والمرافق الأساسية والتطور السريع عمرانيا وبشريا حيث تتمتع ببنية تحتية متميزة ومرافق سياحية بارزة وثقل بشري إضافة إلى موقع طبيعي خلاب، كما تحتوي على عشرات من الأحياء الراقية والحدآئق التاريخية والمباني الأثرية والمقرات السياسية والجامعات العريقة وفي مقدمتهم جامعة نيروبي التي تحتل دائما المراكز المتقدمة حسب التقييم العالمي للجامعات الأفريقية، ومئآت من الأزقة التي تفوح منها رآئحة الفقر والحرمان وبيوت الصفائح وتضم بين دفتيها قرابة ثلاثة ملايين ونصف مليون من كافة الأعراق والأجناس الكينية مما انعكس على كثير من ملامح نيروبي التي حفظت تاريخها الإفريقي وتراثها أمام التيارات الجارفة من الثقافات الوافدة.

وبعد مرور أكثر من130عاما على إنشائها تأملت على نيروبي وأنا في حيِّ" إسلي " المزدحم طينا وناسا! ومن لايعرف إسلي فهو حيّ تسكنه الجالية الصومالية ويعج بالمتناقضات، وشظايا الأحلام الضائعة، وانكسارات الحياة التي تنتهي دائما بين أمل الهجرة وألم الغربة. ذلك لأن نيروبي تعني محطة الانتظار أو مدينة العبور إلى الغرب بالنسبة للشعب الصومالي المهاجر منذ تاريخه الطويل، ويبدو أنهم أخذوا هذه الصفة من المدينة التي كانت في بدايتها محطة إمداد لسكة الحديد التي كانت تربط منطقة البحيرات العظمى والدول الواقعة في حوض بحيرة فيكتوريا بالتجارة العالمية عبر موانئ المحيط الهندي.

نيروبي ذات الهندسة الإنجليزية الواضحة تختنقها الزحمة في النهار ويهاجمها البرد في الليل، في ظل الطبقية الفاضحة في كينيا يرى المرء وراء الطرق السريعة والحياة الغربية الواضحة والبهرجة الحضارية الصارخة أنين يتعالي ومعاناة تنهش مخالبها أجسادَ البسطاء والمشردين الذين يملؤون الطرقات في النهار وينامون على الأرصفة الباردة ليلا وطيور المجاعة تزقزق في بطونهم الخاوية، الأرض فراشهم والسماء لحافهم وإبر البرد تغرس في أجسادهم النحيلة ألما ومرضا وبؤسا.

نيروبي جميلة ولكن لمن ينظر إليها من بعيد! أما من يراقب حياتها عن كثب فيرى وجهها الحقيقي المتستر وراء المباني الشاهقة التي معظمها ملك للبيض وبقايا المستعمرين؛ وحل وطين، وقمامات متراكمة إلا وسط نيروبي الذي يشبه المدن الأوروبية قلبا وقالبا، وفساد منتشر في كل مكان من المطار إلى الفنادق، ومن الأزقة إلى المكاتب الرسمية، الفواجع منتشرة هنا، والمآسي متناثرة على تربتها.

في جولة سريعة لأحياء مدينة المتناقضات تصادفك ابتسامة رومانسية عذبة تشوبها ملامح متخمة بالفقر والمعاناة، ووجوه سمراء شكلتها الفاقة، وطبيعة باذخة تحتضن رائحة البالوعات وبيوت الصفائح، وأجواء شاعرية ختنقتها الزحمة وغلاء الأسعار، وأحياء ثرية غافية في وسط الفقر والحرمان، وليالي مترعة بالانتظار والغد الأجمل الذي لايأتي غالبا، وأصوات البيانو والطبول التي تخرج عن الملاهي الليلة على وقع أنين المرضى وصراخ الجياع.

أمامي وعلى بعد أمتار قليلة يتمدد رجل مسن كثّ الشوارب، ضامر البطن، عيناه الجاحظتان تحملقان في الأفق، وكأنهما تراقبان الآمال التي تتوارى عن الأنظار يوما بعد يوم، والمسرات الهاربة من الكادحين الذين لاتفوح منهم سوى القهر والضنى، وعلى رصيف الشارع تنام امرأة منهكة تحتضن ولدها الصغير وقلبها معلق في مرافئ الحياة البعيدة. دموع القلب تذرف عن مقلتيها المجهدتين، وتخفي ألمها وعبراتها المدرارة تحت مياه السماء التي تدف بالأمطار الخفيفة، وتضع على جسدها أسمالها البالية التي لا

تقيها الحر ولا البرد القارس في نيروبي، وحالتهما المبكية تجسد هموم الحزانى الذين يتأبطون أحلامهم الكئيبة وهم منسيون على هامش الحياة.

العالم من حولي يجلس في هدوء عميق وتطل الذكريات وراء ثقوب الحياة، وتعذبني نيروبي في الخلجات المؤلمة والماضي المتناقض.وللعلم فنيروبي ترتبط بذهني مع ذكريات متناقضة فالأيام الغوابر التي عشت فيها اختلطت إبتسامة الفرحة فيها، ودموع الفقد، حيث تتوسد أمي– رحمة الله عليها– تحت ترابها دفينة، ومرت علىّ فيها الليالي الملاح ولحظات السعادة، وأيام هانئة كنت أتمنى أن تعود ولو كانت هذه الأمنية من ثامن المستحيلات ونقوشا على كف السحاب حسب التعبير الشائع.

في هذه اللحظة يأتي سحر غامض ليبدد الصوت الذي يصدح في داخلي، وتمنحني فجوات الليل وترنيمات الغناء الشعبي ابتسامة متسامحة، ويقودني الحنين لرعشات الغامضة والضوء الخافت المنبعث من ثقوب ذاكرتي ومن نفسي الظامئة إلى مومباسا. ملاقات الأحبة ولمّ شمل الأسرة من جديد بعد سنوات الغربة يلمع بريق القلم شزرا في فؤادي، وتشرئب أعناق الأوراق إلى الكتابة وأنا أقلب صفحات مدينة الموضة والذكريات والمتاحف، فتخرج الجُمَل من أناملي مفعمة بالأمل.

جلست وحيدا في غرفتي أكتب وأتأمل، وأسطر تناقضات المدينة والفرق الشاسع الذي يفصل بين الطبقات والأحزاب السياسية التي تنتظر انتخابات يرى البعض أنها قد تكون دامية ومؤلمة في بلد اشتهر بالفساد الانتخابي والتزوير، صوت البرق ودمدمة الرعد المخيفة قطعا تفكيري فقمت من سريري إلى الكرسي، فجلست فوقه متنهدا وساندا خدي على يدي اليسري أمام ليل "نيروبي" الذي تشابكت الخطوط فيه، وتتعبنى كتابة الخواطر في هذه الأثناء يصدح من بعيد صوت يداوي الجراح في قلب دولة عسْكرَ على شاطئها الفقر والفساد والدولة الغنية والشعب المقهور.

ورغم ذلك لاينتهي الجمال من لندن أفريقيا حيث المتنزهات تشكل متنفسا مهمّا للشعب، والحسناوات يتغنجن في طرقاتها ويملأن المقاهي والساحات العامة، وفي "إسلي" بالذات حيث السمراوات الصوماليات يعشن غمازات الخدود والتمايل العجيب يسببان لي اهتزازا مشاعريا من الدرجة الخامسة بمقياس الهوى.

على وقع الثقافات المتداخلة في المشرق الإفريقي هنا أمسيات السمر لا تنتهي أبدا، فهناك وفي داخل نادِ ليلي كانت أصوات الموسيقى الإفريقية الصاخبة تصدح منه وكأنها تئن وتشتكي، وهنا وفي داخل المبنى المجاور للفندق الذي تسكنه أسرة صومالية تقليدية على مايبدو كان صوت الرقصات الشعبية الصومالية تملأ الأركان وتبث في الهواء الطلق موجات من الحنين.

المساء الشاحب.. وصوت الشقراء

لم تكن تلك الليلة من ليالي نيروبي المعبأة بالشجن لتمر دون أن أتذكر سنواتي الأولى لها والقصص التي لم نحكها من قبل. في تلك الليلة الطاؤوسية بدأ قلبي يعزف لحن الذكريات، لم أتفاجأ من ترحالي السريع لكوني جلستُ أمام الذكريات وجها لوجه، وأوردني قطار الوقائع الماضية كل مورد، مرت الذكريات أمامي كأسراب الطيور، فهالني بين ألبومها صورة تحمل الحزن الإفريقي وشبح الحروب ولاتخلو من المظاهر التراجيدية لمشاعر طوباوية.

كانت الصورة مزيجا من قبح الحروب وسلبية الأحاسيس، وتعود لعام2008م، انهمرتْ السماء على نيروبي الحزينة وأبتْ أن تكتحل عينيها النعاس. قطرات المطر لا تكف عن المدرار، وصخب الطبيعة ورعدها إمتزجا بلون الدم وصوت الملاهي والرصاص. وموسيقى الجاز إنسجمت مع نغمات الهيب هوب والصوت المتدفق من حناجر السمراوات وهن يغنين أناشيد الحب والحياة.

بدأ المطر يهطل وكأنه يغسل الدماء من تربة نيروبي المبللة بدموع الثكالى وآهات الحزانى، وكستْ الطبيعة لونها على صفحات الكون في حين كانت أنوار المدينة تومض ولهاً في وسط العمارات، وبدت المباني رغم جمالها أكواما من رماد وآهات من الألم!، وأصبحت الحدائق المنتشرة في نيروبي مجرد أعشاب تهزها الأعاصير.

بعد رحلة برية من غاريسا حاضرة الإقليم الصومالي في كينيا كان الخيال الفنتازي يقودني إلى البيت قبل ظلام، كان جبين نيروبي باهتا ممزوجا بالضجر والألم!، الناس مسرعون باتجاهات مختلفة وبحواجب معقودة!، والحياة ملطخة بالدموع واللون القاني والأماني والتضرع، الحركة تجري بتروي شديد يشوبها الحذر، كل شيء يخبرك عن التغير الذي طرأ على حياة الناس والمدينة.

الانتخابات الرئاسية والبرلمانية وما شابها من غموض وتزوير على أعلى المستويات لم ترضي نتيجتها أطراف الصراع الانتخابي الذي سرعان ما تحول من الاقتراع إلى الاحتراب، ومن تنافس شريف إلى تناحر بغيض ومن صناديق الاقتراع إلى بنادق الاقتتال!، وفقدت المدينة بريقها وزخمها المعروف، ولعلعت الرصاص في الشوارع وعاش الناس في هلع وفي هرج ومرج، الناس حائرون، واللصوص منتشرون، والدولة نائمة، وبائعو الكرامة ينتظرون القريب قبل الغريب على الرصيف، والشرطي يتسابق مع العصابات والمجرمين ويدخل معهم حرب كر وفر في شوارع نيروبي الرئيسة والجانبية. الأبراج العاجية تتحول في زمن

الخوف إلى أشباح تصب لعنتها على الإنسان الذي أبدع في البناء والتشييد وأخفق في السلام والمحافظة على المكتسبات الحضارية والروحية والتاريخية، وأفني نفسه وأهدر ماله في مواجهات عبثية دامية لا ناقة له فيها ولاجمل.

في ذلك المساء الشاحب لم تكن المدينة كما عهدنا جميلة وكما تغني لها الشعراء والأدباء قريبة إلى الجنة، بل كانت خافتة المنارات، الدم يفور من كل بقعة من جسدها، القتلى أكثر من ألف شخص خلال أقل من شهر وعدد الجرحى لا يعد ولا يحصى، مما كوّن الإحباط وفقدان الأمل وهدم جسر التواصل بين أبناء المجتمع الواحد، وعمّق الشرخ بين الطبقات والكيانات والأعراق.

النواقيس والأجراس تدق الخطر الداهم في كل لحظة، والوطن يسير نحو الهاوية بكل جنوح!، لم أفكر سوي في إيجاد مواصلات آمنة تقلني من إيتسلي إلى وسط المدينة لأركب مرة أخري من الوسط التجاري لنيروبي إلى حي سوث سي (South C) الذي أسكنه، ولكن ندرة المواصلات تجبرني أن أقف في المحطة أكثر من ساعة كان الخوف والترقب سيّدا الموقف، وأخيرا أدركت باصا مكتظا بالركاب والخوف، لم يكن عندي ترف الخيار ولا فسحة الانتظار فقزت فيه، وبعد خمسة وعشرون دقيقة من الخوف نزلت عن الباص على رصيف هيلاسيلاسي إيفنيو" أو شارع هيلاسيلاسي" المكتظ بالمارة والسيارات والباعة المتجولين وأطفال الشوارع، وشبح الخوف في الثامنة مساء .

كانت الصورة هذه المرة أبلغ من ألف كلمة ومليون حكاية !.... رمال السياسة المتحركة أثرت في كل شيء!، الحياة معدومة ورائحة البارود تزكم الأنوف والشرطة أرهقتها المطاردات، أما الشعب فقد أصبح ضحية لمزايدات سياسية، وأجندات جهنمية خططتها أنامل الحقد والحسد على غرة، ودفن الجميع روؤسهم في تراب التجاهل والاستخفاف بمصائر الشعوب، السياسيون غمرتهم شهوة الكراسي، والحكومة تدور في المربعات العبثية، والمعارضة لا تقدم سوى اراقة الدماء ولا شيء يبدد الأسى وينهى القتال يبدو في الأفق! إلهي ماهذا الجنون؟ وماذا أصاب كينيا جنة القرن الإفريقي والحديقة الجميلة في وسط الحقول الملتهبة؟.

ترجلت قليلا نحو منعرج الطريق القريب من محطة البنزين التي تطل على طريق مومباسا من الجهة اليسرى، وتحت الجسر أو سكة الحديد التي تربط كينيا بوسط وجنوب إفريقيا عبر أوغندا، كانت رائحة الصندل المنعشة حول التربة السوداء التي تحتضن آلاف الجرحى ومئات القتلى تدخل أشياء غريبة في قلوبنا وتغتال الأمل، بينما أبواق السيارات الهاربة والطلقات النارية للشرطة تؤنس الوحشة للخآئفين! ،

نعم الطلقات النارية للشرطة في عز الظلام والخوف يعني وجود الجهات الأمنية وإن تدثرت بالخذلان والترهيب.

وقفت وحيدا في قلب الترقب حينما أدلى الليل سدوله أنتظر المواصلات العامة وطال الترقب وبدأت البرودة تدق مسمارها المؤلم في لحمي وعظامي، وبدأ الوجل يتسلل إلى قلبي، وتأخر الزمن كثيرا وعقارب الساعة تشير إلى التاسعة والنصف بتوقيت شرق أفريقيا.

كنتُ حاملا قنينة ماء وبقايا أمل وخوف ملأت قصبات الضلوع، وأحتضن حيرة أنفثها بشكل زفرات، وأردد هل تحولت مدينة الجمال إلى سرداب للصوص وأكوام من الجثث والركام؟ أم أن العاصفة ستكون سحابة صيف عن قريب ستنقشع، السياسة أم الداء في أفريقيا المنكوبة والتداول السلمي للسلطة ضرب من الخيال في قارة تنتج الثروة والاستبداد وبكميات هائلة جدا؟.

وقفت وسط الجميع جنبا إلى جنب مع فتاة شقراء ممشوقة نظرتها على عجل، وفي تلك اللحظة الحرجة لم أكن أفكر سوى في وسيلة سهلة للوصول إلى البيت، ولأني لم أكن يوما ضمن الآثمين بالهوى، وممن يتسترون بقبعة الإزدحام ويرسلون سهام عيونهم وجماح مشاعرهم في وسط جحافل الخوف وفي وحي سكون الليل، لم أرد اختلاس النظر أو التقرب إلى الفرنجية الجميلة.

في أول وهلة سمعت همسة وخطوات وئيدة نحوي ولم أعر لها أي اهتمام، بل كنت مشغولا بإيجاد المواصلات التي أصبحت نادرة بسبب الخوف والقتل المتفشي في المدينة، وبقي الشك والصرخ عنوانا للشعب، لذا تماديت في التجاهل حينما لاحقني الصوت وأنا مضطرب من شدة البرد والخوف ومتهاوٍ من التعب والإرهاق.

"المسطور في القدر لا مفر منه"،! تبعني الصوت الذي طوع المسافة لصالحه وطوي البعد ليصل إلى طبلة أذني الباردة تحت صقيع نيروبي، نظرت إليها فإذا هي شقراء أوروبية، ويبدو على محياها الكدمات وآثار التعدي أو التعذيب لا أدري، الخوف والوجل طمس معالم وجهها، ومظاهر الحيرة رسمت عليه هالة دموية، أشفقتُ عليها وأحزنني موقفها كثيرا لأني لم أتكيّف ولم أر في حياتي شخصا أبيضا يعاني بينما سواد البشرة مقترنون بالحرمان والمعاناة.

ماذا تريد؟ وماذا تفعل امرأة شقراء فارعة الطول على شارع هيلاسيلاسي في هذا الزمن المتأخر وفي ظل الخوف الذي أجبر المواطنين على اللزوم في بيوتهم؟، ولكن سرعان ما تذكرت أن المنطقة هي وسط نيروبي

المعروفة بقلب العاصمة النابض، حيث التنوع العرقي والسحني واللوني هو الأبرز، ويؤمها إليها السياح الذين ترنوا قلوبهم إلى جمالها، ويزيد شغفهم تحت سماء الحرية والإبداع الذي بات عنوانا لنيروبي.

كان الإصغاء إجباريا لأجل الإنسانية، وربما حب الفضول والتطلع قادني إلى ذلك رغم الخوف الذي يسيطر على الحياة. كانت مثقلة بشيء ربما بالهموم أو المعاناة أو الخوف أو رعشة البرد أو زقزقة عصافير البطن من أجل الجوع أو الحزن والأسى أو التيه لا أدري!، وقفتْ بجانبي ترمقني النظر وأنا أتحاشي النظر إليها وأتهرب من أسئلتها المحيرة، قفزتُ بضع مترات وخلست النظر إلى بريق عينها الشاحب فإذا هي قطعة من القمر أو حورية أخطأت طريقها.

كانت أصوات الرصاص تخرج من كل الشوارع ودبدبة اللصوص والشرطة تنتهي إلى مسامعي وأنا مقبوع بزاوية بعيدة في قلب الحدث، اقتربت مني وهمهمت ببعض الكلمات المبهمة باللغة الإنكليزية بصوت مبحوح وكأنها شكسبير أو الأمير وليم!، فهمت بعض الكلمات وبعضها لم أفهم، ولكن بحكم السن والتجربة عرفت أنها تريد معرفة شيء ما لم يخطر في بالي قط.

لم يكن الزمن مناسبا لمواصلة الكلمات وانتظار ما تبوح به الشقراء فقلت لها باللغة الإنكليزية بصوت ركيك مكسر الأوصال ومقطع الحروف والكلمات: لا أستطيع مواصلة الحديث وأنتظر المواصلاة لا غير!.

متحف كارين بليكسن

منذ أمد بعيد كنت أبحث عن فرصة سانحة لزيارة ذلك المكان الذي تفوح من جنباته أريج الحرية وترسو سفينة الأحلام على ومرابعه دون أن أحظى برؤية هذا الصرح الشامخ إلى أن تلقيت دعوة كريمة من صديق سوداني جاء إلى نيروبي مؤخراً ، لزيارة الميدان الأدبي الذي يعتبر شكلاً من أهم جسور التلاقح الثقافي الأفريقي الأوروبي عبر العصور. كانت الشمس الخجولة تدفئ البيت الغارق في الجنان والمروج عندما وصلنا ضاحية كارين بعد منتصف الظهيرة بقليل، دخلت بعمق الزمان والمكان ووقفت على مسرح الأحداث وأنا أعيد شريط الحياة إلى بداية العقد الثاني من القرن العشرين، لوهلة لم أصدق أن هذه الخضرة والبذخ الطبيعي وراءة ثقافة دفينة ونصوص حية وصور عتيقة وأدوات لم تتغير رغم مرور قرن من الزمن.

زرت مع السوداني المهتم بالقضايا الإفريقية وأدبها متحف كارين بليكسن الشهير الذي أصبح بمرور الوقت معلماً سياحياً وأثرياً ووجهة مفضلة لدى زوار كينيا من هواة التراث والأدب الإنساني، إذ يحتوي المتحف تاريخاً حياً وحقلاً خصباً يؤرخ لحقبة مهمة من تاريخ كينيا خاصة وعموم إفريقيا التي كانت تترنح من أجل سطوة الرجل الأبيض وإن كانت تعيش في بداية التململ والنضال من أجل التحرر ونفض القيود الكولونيالية المكبلة، إضافة إلى الصراعات الفكرية والأدبية والتصادمات الكونية التي عاشتها الكاتبة سواء في فترة وجودها في كينيا، أو الأحداث التي هزت العالم بعد رحيلها إلى القارة العجوز بعدما شبعت من الثقافة الإفريقية حيث أتاح لها التفاعل والانسجام مع محيطها الإيغال في عمق الجغرافيا والتحليق نحو التاريخ وكتابة قصص شائقة تدور حول إفريقيا أرضاً وشعباً.

المتحف التراثي المفتوح على الحضارة الإفريقية القديمة والفاخر بآثاره وصوره وكتاباته وعنايته وعدد زواره هو منزل الكاتبة الدنماركية العالمية "كارين بليكسن" التي ولدت في رونجستد الدنمارك عام1885م من أم تنتمي إلى العوائل البرجوازية في القرن التاسع عشر وأب امتهن الكتابة وهو في السلك العسكري، مارست كارين الكتابة في بلدها الأصلي ونشرت عدة كتب تحت اسماء مستعارة قبل أن يخطر في بالها الهجرة إلى إفريقيا التي كانت مرتعاً خصباً للبيض منذ التدفق الأوروبي نحو القارة السمراء بعد القرن الخامس عشر الميلادي.

انتقلت الكاتبة إلى شرق إفريقيا وهي في نهاية عقدها الثالث، تحمل حساً أدبياً وعيوناً فضولية وحكايات وأساطير منقولة من أرض الوحوش الكاسرة والسافانا. وصلت الشقراء الأوروبية إلى المحميات البريطانية

في الشرق الإفريقي عام 1914م وعاشت في ضاحية كارين بنيروبي التي كانت قرية لم تصل إليها السيارات والتمدن ، بل كانت غارقة في ظلالها وأنغامها الطبيعية لكونها تبعد عن نيروبي12 ميلاً حسب ما ذكرت الكاتبة في سطور روايتها، وعلى وقع ألحان ريف القارة السمراء والسماء الناعسة على سفوح تلال نغونغ التاريخية قضت الكاتبة أنضر سنوات عمرها (1914-1931م) تلك الفترة المليئة بالتأملات الكونية والتلذذ بالمشاهدة الحية للحيوانات واللمسات الجمالية للإنسان والمكان والتعمق في الأدب الإفريقي الشفهي عبر الألغاز والحكم والأمثال والحكاوي المنسابة من ذاكرة المعمّرين والضيوف والعمّال مما صقل موهبتها الكتابية وأضاف إلى نصها نكهة إفريقية مميزة تجذبك وتجبرك على قراءة نصوصها، أما الصعيد العالمي فكان العالم في مخاض عسير وكانت الدنيا تمور وتموج بالتقلبات السياسية والفكرية والحروب والركود الاقتصادي والتحالفات والصحوة الإفريقية المتأخرة من أجل الحرية والنهضة والسلام.

كان الأفكار تتماوج في ذهنها وهي تتجه إلى قارة المستقبل والثروات والإمكانيات الهائلة (إفريقيا) وفور وصولها إلى الأرض البكر والفرص المذهلة استثمرت في القطاع الزراعي في كينيا وأنشأت مزارع البُن (16 ألف هيكتار) في تلك المنطقة الساحرة التي يتداخل فيها الجمال مع الاقتصاد والشعوب الإفريقية الراقصة، ولكن للأسف لم ينجح المشروع، بل تعرضت بليكسن لإفلاسٍ اقتصاديٍ تزامن مع بداية الركود الاقتصادي الكبير الذي ضرب العالم الغربي.

تزوجت الكاتبة ابن عمها برور فون بليكسن قبل مجيئها إلى أفريقيا بسنة، وربما ألهمها هذا الزواج دخول مغامرة جديدة إلى القارة المجهولة بالنسبة للإنسان الأوروبي ، ولكن لم يدم هذا الزواج طويلاً فتم الطلاق بسبب المزاجية والتباين الفكري بينهما ؛ فتزوجت كارين البريطاني المغامر دنس فنش هاتون عام1925م بعد انفصالها من زوجها الأول وبعد خمس سنوات وفي عام 1931م مات دنس في إحدى مغامراته حيث تحطمت طائرته.

ورغم تقلب حياتها في إفريقيا وإخفاقها الكبير في الحب والحياة الزوجية ومرورها بحالات متنوعة من الإحباط والمرض والفشل الإنتاجي إلا أن الكاتبة تركت إرثاً ثقافياً متميزاً وصورة ناطقة في طيات يومياتها في إفريقيا الخضراء مما أعجب النقاد وأشهر الروائيين في القرن العشرين أمثال الكاتب والروائي الأمريكي الشهير أرنست همنغوي الحائز على جائزة نوبل للأداب عام 1955م الذي زار إفريقيا عدة مرات وكتب روايته تلال إفريقيا الخضراء (Green Hills Of Africa) وتحت كلمنجارو (Under Kilimanjaro) إبان تجواله في المحميات البريطانية في شرق إفريقيا.

من الإطلالة البهية لتلال نغونغ المتربعة على هامة الوادي المتصدع كان يبهرها لقاء الثقافات وتداخل الحضارات وتعايش الأديان، وتعمقت في معرفة الروابط القبلية والثقافية في كينيا، واستنشقت هواء إفريقيا المنعشة، واستمتعت بالأجواء الخلابة والطبيعة العذراء وسامرت النجوم المتلألئة في كبد السماء واستجممت بسهام الشمس الغاربة وجذور القبائل والأغاني الدافئة لرعاة المواشي.

أعجبها الفرّادة القبلية وخاصة القبائل القاطنة في المنطقة فاقتربت الكاتبة كثيراً إلى الكيكويو أعرق وأكبر قبيلة في كينيا بحكم المنطقة الجغرافية إضافة إلى الماساي تلك القبيلة المتمسكة بتاريخها وتقاليدها ورماحها، وتعتبر القبيلتان من أكثر المكونات الكينية تأثيراً من حيث الثقافة والاقتصاد والسياسية والموروثات الاجتماعية، ولم تخلو فترة وجودها المعايشة مع الصوماليين كما ذكرت كثيراً في كتابها حيث تناولت حياة الصوماليين وخاصة النساء الصوماليات الأنيقات ، كما ذكرت الكاتبة كثيراً في طيات كتابها فارح الصومالي رفيقها في الحل والترحال إبان وجودها في إفريقيا، وإسماعيل الصياد الماهر.

ومن الصدف الجميلة أني لاحظتُ وأنا أتجول في الأقسام المتنوعة للمتحف الغطاء الرأسي للكاتبة الدنماركية في كثير من صورها ولوحاتها الفنية فقال لي الشاب الخلوق إفرام مونيا المرشد السياحي المثقف إن كارين كانت شديدة الاحترام للثقافات والأديان والتنوع الأيديولوجي ، وكان من ضمن العمال نساء صوماليات شديدات التمسك بدينهن وعاداتهن فكانت تغطي رأسها بوجود الصوماليات احتراماً لهن حيث كانت تعامل الإنسان الإفريقي الموظف في مزرعتها أو في المنطقة كندٍ مساو لها من حيث الحقوق والحريات خلافاً للكولونيالية الغربية التي كانت تستعبد البشر وتطمس الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب المحتلة باسم الاستكشاف والتمدن في حقبة الإمبريالية الجديدة.

وبما أن بلكسين لم تنجب بسبب مضاعفات مرض الزهري الذي أصابها اهتمت بالأطفال وأثقلت كاهلها بتعليمهم وتثقيفهم وحسب المرشد السياحي فإن عبدالله الشاب الصومالي صاحب النظرات الحادة الذي زُيّنت صورته على الجدران والمتجر السياحي للمتحف كان طفلاً نجيباً حاد الذكاء فأرسلته كارين إلى مومباسا من أجل الدراسة وبعد أن تخرج من القانون أرسلته إلى الصومال ليكون أول قاض في الصومال ، هذه المعلومة أكدها مشرف المتحف ولكن لم أتأكد من المصادر الصومالية وتلك المعلومة كانت جديدة عليّ.

ولقد كتبت بلمستها الأدبية الحكايات والطقوسات الإفريقية ونظرتها للحياة والتصادم الثقافي والتباين الطبيعي في بطون كتبها وروايتها الكلاسيكية وأحبت العفوية والبراءة المطبوعة على جبين الإنسان

الإفريقي، كما عاصرت بليكسن الحقبة الاستعمارية وراقبتها عن كثب حيث مجيئها تزامن مع النصف الأخير للكولونيالية الإنجليزية وبداية نهاية شمس المملكة البريطانية في المشرق الإفريقي.

وأعتقد جازماً أن القبول الإفريقي والترحيب الذي لقيته الكاتبة كان نابعاً أنها لم تكن تنتمي إلى دولة لها سوابق استعمارية في المنطقة، ولم تكن من ضمن البعثات التبشيرية "الذراع الناعمة للإمبريالية"، بل كان المبشرون المسيحيون أنكى في بعض المرات من بطش المستعمر لأنهم يستخدمون الدين من أجل السيطرة ونهب الثروات، ولقد وصفهم الرئيس الأسبق ومؤسس كينيا "جومو كينياتا" بكلامه المعبر:

"When the missionaries arrived, the Africans had the land and the Missionaries had the Bible. They taught how to pray with our eyes closed. When we opened them, they had the land and we had the Bible"

(عندما جاء المبشرون المسيحيون كنا نمتلك الأرض وكانوا يمتلكون الأناجيل ، علمونا أن نغلق أعيننا ونصلي لله وعندما فتحنا أعيننا وجدناهم يمتلكون الأرض ونحن نمتلك الأناجيل.)

وكذلك لم تكن تنتمي إلى الصحافة الصفراء والأقلام الكولونيالية، تلك الأقلام التي تفننت في إذلال الإنسان واستعباده، وسخرت إمكانياتها وإبداعها وتميزها الصحفي من أجل النكاية وكتابة تاريخ مزيف وبطولات كاذبة وتجميل وجه المحتل على أساس تقزيم ودونية السكان الأصليين.

ولكن كارين بنظرتها المغايرة وحبها للقارة كتبت عن إفريقيا بكل صدق وشفافية، بل توغل حب الحضارة الإفريقيانية والملامح السمراء للسكان في مشاعرها واهتماماتها وحسها الكتابي والسردي فكتبت عن افريقيا وجمالها وغنائها وتاريخها وسحر فلكورها في رسائلها وانطباعاتها وكتابها "الخروج من إفريقيا" الذي حوّل إلى فيلم ناجح بكل المقاييس عام 1985م ببطولة روبرت ريدفورد وميريل ستريب. وفاز الفيلم جوائز عالمية أهمها جائزة أوسكار في تلك السنة وتم ترشيحه لجوائز كثيرة في السنوات اللاحقة.

اعتبر البعض كتابها (Out Of Africa) أنشودة حب حالمة لإفريقيا ومذكرات تقطر عنها دموع الحنين لأيامها في القارة السمراء حيث التربة الذكية والرقصات المتميزة ورائحة القهوة والدخان المتصاعد مع قطرات الندى في الصباح الموشح بهديل الطيور وصخب الغابات المطيرة، ولقد أنصفت الكاتبة كثيراً حول الإنسان الإفريقي الذي وصفه المحتل وأقلامه الإمبريالية بأسوأ الصفات وأقبح الطباع العالقة في أذهان الشعوب البعيدة عن الميحط الإفريقي منذ عدة قرون، حيث وصفوه بالفساد الأخلاقي والكسل والهمجية

والسحر والشعوذة، وكأن الإنسان الإفريقي بما فيه من قوة وصلابة وتحمّل وسمرة نبيلة كائن غارق في الجنس والحياة البهائمية وليس له مساهمات فعالة وواضحة في مسيرة الحضارة العالمية، ولا غرو فنظرة المستعمر المسيئة للشرق تعتمد على المبدأ الاستعلائي الشوفيني الذي ينص على نهب الثروات والتنكيل بالشعب ومصادرة الحقوق والحريات وقتل الكرامة والزحف نحو إفريقيا.

واختيار الاسم الذي لا أعرفه أكان مصادفة أم علم ومعرفة كان موفقاً حيث يدل الاسم الرنان "الخروج من إفريقيا" إرثاً حضارياً إفريقياً له زخمه إذ يشكل هذا الاسم نبضاً حياً لأصل البشر، فالاسم له علاقة وثيقة وصلة وطيدة بالنظرية العالمية (Out Of Africa) وهي نظرية علمية متينة في علم تطور الإنسان تعيد أصل البشرية إلى إفريقيا مستدلة بأدلة أثرية وأحفورية وجيولوجية إضافة إلى التحليلات الجينية.

وبعد مرور أكثر من 50 عاماً من الرحيل النهائي لكارين عن شرق إفريقيا وتاريخها الكامن في الأكواخ الريفية والأزقات الترابية وبين الحقول والقرى، وبعد أن ضرب النسيان أطنابه على مساهماتها الثقافية والأدبية واللمسات التراثية لهذه الكاتبة أنصفت السينما العالمية لها بعدما حقق الفيلم الهوليودي إيرادات كبيرة اقتصادياً وإعلامياً فاستعادت ابنة الأكاديميات الفنية في العواصم الأوروبية العريقة (كوبنهاغن، باريس، روما) جزءاً من بريقها الذي كاد أن تطويه الأيام في دجى نسيانها ، وقد جذب الضوء الهوليودي الساطع الانتباه الكيني بعد نجاح الفيلم فحولت الحكومة الكينية البيت الذي يضم مزارع بليكسن إلى متحف للعامة والسياح وأصبحت الكاتبة بطلة إفريقية وكينية بامتياز.

رحلت الكاتبة إلى موطنها الأصلي الدنمارك بدون رجعة رغم أنها كانت تنوي العودة مجدداً إلى إفريقيا ولكن المرض والموت لم يمهلاها طويلاً حيث توفيت عام1962م بعمر ناهز77ربيعاً بعدما تركت إرثاً ثقافياً وكتباً أدبية خلدت اسمها في ذاكرة التاريخ.

غرباً.. نحو المدن الكينية

من نيروبي انطلقت غربا عبر رحلة برية ومفعمة بالتجارب والمشاهدات والانطباعات، وفي مروج الليل وفي وسط الإيقاعات الإفريقية المعهودة سارت بنا الحافلة نحو المدن الكينية الواقعة بين نيروبي والحدود الكينية الأوغندية، كانت الطبيعة باذخة، والمشاعر دافئة، والمدن جميلة، والشوارع معبدة يداهمها الندى والظلام الدامس في الأمسيات الربيعية الماطرة، وأصوات الحيوانات الصادحة من بعيد تعزف ألحان الحنين، ورغم بصمات المعاناة والرغبة العارمة للمدن والمجتمع في خروج شرنقة البؤس والشقاء والحرمان إلى الاكتفاء الذاتي والإنتاج إلا أن المدن كانت مضئية، ومدارسها مفتوحة، وكان الشعب يتزاحم على درب النهضة والتطور العمراني والتحسن الاقتصادي.

نيفاشا .. وعرس الطبيعة

توغلت في الأفق نحو الغرب الجغرافي حتى وصلت إلى نيفاشا عروس الجمال والخيال الجامح، تطل المدينة على بحيرة نيفاشا واشتهرت منذ القدم بالزهور والورود التي تصدرها كينيا إلى الخارج. على متن الحافلة وعلى مشارف نيفاشا يتراءى لي من بعيد سرب من الطيور، وقطعان من الجاموس الإفريقي المتميز، وأسود رابضة قرب الجداول والترعات، وزرافات تعبر الطرقات بزهو وخيلاء، وتسابق ظريف للحمير الوحشية نحو الأشجار الباسقات، وجبال كساها الربيع حلله، وهضاب خضراء، وحقول من الورود تتراقص على وقع الرذاذ وصوت الطبيعة المتموج.

في غابات نيفاشا يعيش جميع أنواع الحيوانات والطيور والزواحف البرية، ويتجلى فيها التناقض الكبير بين الطبيعة والشعب، الشعب غارق في وحل الفقر وأوكار الفاقة، ورغم طول مأساة الإنسان الإفريقي الذي لم يجد منذ خروج الاستعمار إرادة حقيقة من أجل القضاء على الجوع والمرض والجهل، وأدمغة وطنية لا تهمها ملء الجيوب، بل تهمها انتهاء المعاناة وتغيير نمط الحياة من الكد والمشقة وإذابة عرق الجبين إلى حياة الرفاهية والعيش الكريم والحرية وعدم الكبت ومصادرة الحقوق، إلا أن سطور العزيمة كان تقرأ بوضوح على الجبين الأسمر وفجر الأمل بدأ يلوح في الأفق القريب.

ناكورو.. مدينة على جبين وادي المتصدع

لم نمكث في نيفاشا كثيرا حيث اتجهت الحافلة المسرعة إلى المدينة العريقة ناكورو، كنا نشق غابات طبيعية وحدائق ممتدة على سفوح الجبال، والهواء الطلق الذي ينعش الجسد والحافلة العصرية ذات المقاعد المريحة جعلا الأجواء رائعة بكل المقاييس. وبعد برهة من الزمن كنا قد وصلنا إلى الضواحي الجميلة لناكورو معقل السياسة الكينية إذ تعود إليها جذور معظم الرؤساء الذين حكموا كينيا منذ الاستقلال عام 1963م.

كثيرا ما درست في الجيولوجيا وخاصة "التراكيب الجيولوجية" و "جيولوجيا الإفريقية" و "التكتونية" الوادي المتصدع أو أخدود إفريقيا العظيم كأبرز المظاهر الجيولوجية في العالم، ورغم أن الصدع يمر بقارتي آسيا وإفريقيا إلا أن كينيا لها مزية خاصة حيث ينقسم الصدع على أراضيها إلى قسمين يصل امتدادهما إلى الحدود الجنوبية لإفريقيا وخاصة زيمبابوي، ولذلك كنت أهتم بزيارة المنطقة ومشاهدة الطبيعة الجيولوجية الخلابة ومعاينة العمليات والمظاهر العامة وأنواع الصخور والتربة والبراكين الخامدة والسجل الزلزالي للمنطقة، ونظرا لضيق الوقت وكثرة العوائق كانت لي مشاهدات بسيطة في الصخور والمعادن المكونة لها.

ناكورو مدينة سياحية حيث يزورها سنويا آلاف السياح نظرا لموقعها المتميز والأماكن السياحية الجذابة مثل البركان الخامد الذي يعتبر فوهته ثاني أكبر فوهة بركانية في العالم، إضافة إلى الحدائق العامة التي يعيش فيها الطيور والحيوانات، وتشكل البحيرات والوادي المتصدع رافدا سياحيا أيضا.

وتضم المدينة معظم القبائل والقوميات الكينية وتتمتع باهتمام كبير مما جعلها معقل السياسة والسياحة ومدينة نظيفة وفائقة الجمال،حيث الشوارع نظيفة، والمرافق العامة تقدم خدمات معقولة إلى حد ما، والبنية التحتية متكاملة، وفي وسطها يتربع المسجد الجامع الذي بني بطريقة أفروعربية معروفة في الشرق الإفريقي، وبعد أن تجولت في معظم أحيائها أستطيع أن أقول: ناكورو لم تكن مدينة الأضواء والعمران والناطحات، بل كانت مدينة تبدو في وسط الضباب قناديل معلقة يزينها أريج التاريخ، حيث دلت الاكتشافات الأثرية والجيولوجية وجود المدينة ما قبل التاريخ.

كيسومو..المدينة الخضراء

في وسط إفريقيا الخضراء كان القمر ينير دربي ويسعد وجداني ويهمس في أذني كلمات تثير في نفسي زوابع الأحاسيس العتيقة، قبل منتصف الليل وصلت مبللا بالشوق إلى مدينة كيسومو عاصمة الغرب الكيني والمدينة التي تعد الأكبر من حيث الأهمية في حوض فيكتوريا بعد كمبالا، وحسب ما قال لي خميس وهو ستيني من كيسومو تأسست المدينة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كميناء مهم ومحطة تجارية تربط أجزاء بحيرة فيكتوريا أو هكذا أراد المحتل البريطاني، ومن الظريف أن اسم المدينة يعني "التجارة" حسب اللغة المحلية. وبما أن المدينة تلتقي فيها الطرقات والقوافل وتتداخل فيها الشعوب والقوميات إضافة إلى الموقع المتميز .تقع على حوض بحيرة فيكتوريا .كان في خاطر الإنجليزعند تأسيسها أن تكون محطة السكك الحديدية الأكبر في شرق إفريقيا وربما قد تصبح محطة بديلة لمحطة كمبالا لاحقا.

كيسومو مدينة متميزة معماريا حيث المباني الفخمة والشوارع الواسعة والساحات العامة تزين أرجائها وأحيائها، وتستمد المدينة هندستها المعمارية من الطراز الأوروبي نظرا لكونهم مؤسسي المدينة الحديثة، ولكن تاريخيا تعتبر المدينة أقدم من الاستعمار الأوروبي، بل تعتبر من أعرق المدن في كينيا وتعاقب على حكم منطقتها قبائل كثيرة وقوميات متعددة.

في قلب المدينة تجولت وأنا أبحث عن فنجان قهوة في وسط الغيوم الكثيفة والأمطار الغزيرة التي لا تتوقف أبدا، وعلى مقاعد رخامية في مقهى مطل على الشارع كنت أقرأ كتاب "أفريقيا الخضراء" للدكتور محمد بن ناصر العبودي فرأيت كل التعابير والأوصاف التي ذكرها الشيخ في كتابه ومنها (انهمرت السماء كأفواه القرب) وهو تعبير بليغ للأمطار الغزيرة التي تهطل كالشلالات على مدينة كيسومو وضواحيها السياحية حيث التراث والحيوانات والسفانا الإفريقية.

بوسيا وإهانة الصوماليين

من "كسومو" وتحت أنغام الأجواء الحالمة غادرت صوب الحدود وخاصة مدينة بوسيا، كانت مدينة نابضة بالحركة والنشاط البشري والتبادل التجاري، وصلت بوسيا قبل أن يبزغ الفجر وفي كبينة الجوازات في الحدود وقفت في طابور بالجانب الكيني، كانت الإجراءت في غاية الدقة والسهولة ولم أواجه أية صعوبة أو مشاكل خاصة وأن الصومالي مهما كان جوازه يعتبر صيدا ثمينا لا يمكن أن يمر بالنقاط

التفتيشية بسلام، ولا يستطيع أن يعبر الحدود والمطارات إلا برشاوى ودفع أموال غير شرعية خاصة في الدول الإفريقية التي تجذر فيها الفساد والنهب والسطو الناعم أو المسلح، وبعد انتهاء الإجراءات ذهبت إلى الجانب الأوغندي وهنا رأيت التمييز العنصري الإفريقي بأبشع صوره.

في المبنى القديم الذي تستخدمه أوغندا كدار للهجرة والجوازات يوجد غرفة جانبية مخصصة للصوماليين مهما كانت جنسيتهم (الصومال، إثيوبيا، كينيا، جيبوتي، دول المهجر) وبعد أن وقفت أمام رجل الجوازات قال لي بنبرة مستعلية: أنت صومالي اذهب إلى الغرفة المجاورة!، في الغرفة الصغيرة المجاورة يوجد رجل خمسيني كث الشوارب، فارع الطول، فاحم اللون، أجعد الشعر، أفطس الأنف يتعامل مع الصوماليين باستعلاء وانتهازية كبيرة وبعد مناقشات طويلة وردّ وجذب دفعت له أموالا غير شرعية وهكذا فعل الصوماليون بمختلف جنسياتهم وجوازاتهم حتى أولئك الذين يحملون الجنسية الكينية كانوا مثلنا رغم أنهم موجودون على مرمى الحجر عن وطنهم!.

ما أقبح العنصرية والتمييز المبني على العرق والجنس واللون والثقافة،خاصة إذا كان المجتمع الذي يعاني من العنصرية والابتزاز شعب أنهكته الصراعات وأقعدته الحروب الأهلية، أين الأخوة الإفريقية والقومية الإفريقية التي يتشدقون بها؟، وخلاصة القول ما رأيت في بوسيا كان مأساويا بكل المقاييس.

وبعد انتهاء الإجراءات المهينة غادرت المبنى وأنا أختنق من شدة الغضب وفي الفناء وفي وسط الحافلات المتجهة نحو المدن الأوغندية المختلفة، كان المتنفس الوحيد لي الرفقة الطيبة والأجواء الرومانسية، وبعد أن هدأت سألت كمساريا كان يرتدي طاقية إسلامية أين المسجد يا أخي؟ كان كريما باسما فدلني على المسجد ورغم أن المسجد كان بعيدا نوعا ما في مدينة تنشط فيها العصابات الإجرامية واللصوص إلا أنني شعرت بطمانينة كبيرة وأنا أؤدي صلاة الفجر في مسجد صغير في قلب مدينة بوسيا الحدودية.

جِنجَا منبع النيل

واصلت سيري نحو العمق الأوغندي، هنا كل شيء يحمل عبق الطبيعة، وملامح البراءة والسمرة القمحية، ونظرات تحمل ألف استفهام واستفهام، في لحظات الشروق وساعات الصباح الأولى تذبل المآسي على عتبات الجمال وتتحول الأشجار إلى شذرات من العبق والأريج، وتشبه زقزقة الطيور وقهقة القرود السيمفونية الخامسة لبيتهوفن أو الصوت الأوبرالي الشجي لملكة الطرب الزنجبارية بي كيدودي.

في "جنجا" منبع النيل حكايات وروايات وأساطير وآهات، هنا تتداخل الطبيعة مع السياسة، وتتقاطع المصالح، وتتصادم الأفكار والرؤى، وترسم الاستراتيجيات والمخططات، وعلى وقع الينابيع الإفريقية والمرتفعات الشاهقة في أحراش إفريقيا وأدغالها يمتد النيل هادرا وفيا كريما عبر تلال إفريقيا وصحرائها وغاباتها.

على ضفاف الترع والتلال وفي بهجة إفريقيا يكاد المرء أن يذوب جمالا وبهاء وألقا، وتتراكم الذكريات في عز السفر، ولا أدري لماذا كنت أتمنى أن أرمي نفسي في السهول الواسعة والخضرة الجميلة وأنا أمر في وسط جِنجا منبع النيل ولكن من يبصر الطبيعة الإفريقية يعشق إفريقيا أرضا وشعبا وتراثا وتاريخا.

توغلت في العمق الأوغندي فرأيت حياة برية فريدة، وأكواخا منتشرة في العشوائيات ومدن الصفائح، وجوامع عتيقة، وكاتدرائيات مزخرفة، وفي القرى المتناثرة على أكتاف البساط الأخضر أجسام عارية، ووجنات بارزة، وهدير الشاحنات القادمة من المرافئ الكينية، وأساطير متداولة بين الشعوب الإفريقية، وأغاني مترعة بالحيوية والعذوبة، ومسحة غامضة من الحزن الإفريقي، وجلسات شعرية، وأطفال غمرهم الفقر وأنهكهم التعب والترقب الذي طال وتمدد، وهم في انتظار الوعود الكاذبة والكلمات المعسولة في الحملات الانتخابية ومواسم الاستحقاقات الوطنية.

عنتيبي.. وإطلالة فيكتورية

في لحظات الغربة وساعات الوحشة تنهمر علينا الأحاسيس، وتهاجمنا الخواطر، وسكون الليل يحرك مشاعرنا، وتثير الوحدة آهات الشجن في أجسادنا، ويجدد الترحال جراحات المنافي، بل وينكوها بشدة لنعود إلى ذمة الماضي الذي هو حيلة المفلسين، أو قل إن شئت الحضن الوحيد لمن ابتلعته الغربة وهو متقلب على فراش الشوق وأسرّة الحنين.

في خضم ليل أوغندا الجبار، وفي غرفة دافئة تعلوها أنوار بديعة، أتمدد فوق سريري وأتململ على مخدتي في فندق Lake Heights، وأنظر من شرفتي المطلة على بحيرة فيكتوريا إلى تعرجات الأخاديد، ونضارة المياه، وأشكال الطيور التي تزهو وتلعب، والطين الأسود، وعمالا صينيين يتصبب العرق من جبينهم.

في مدينة عنتيبي التي هي بوابة أوغندا إلى العالم الخارجي لكونها المنفذ الجوي الأكبر في البلد واشتهرت عربيا في عملية عنتيبي الشهيرة عام1976م عندما اختطف فلسطينيون وألمانيون مناصرون للقضية الفلسطينية العادلة طائرة من طراز إيرباص تابعة للخطوط الجوية الفرنسية وعلى متنها يهود وجنسيات أخرى، وبعد أسابيع نفذت الكوماندز الإسرائيلة عملية إنزال جوية وأنقذوا الرهائن بعد اشتباكات عنيفة مع الخاطفين، وكادت هذه العملية أن تتحول إلى أزمة سياسية عالمية بسبب إهمال واستخفاف اليهود بالأوغنديين وعدم إخطارهم بالعملية العسكرية مسبقا مما أدى إلى نشوب معركة غير متكافئة على أرضية المطار وانسحاب أوغندا من المعركة خشية التفاقم ووصوله إلى مستويات لاتحمد عقباها لاسيما وأن الدول المجاورة لأوغندا كانت تساعد الكوماندز الإسرائيلية .

هنا تتنافس الأشجار مع التربة كثرة ووفرة، كنت أتأمل على شفق المغيب الذي ترك صورته المبهرة على جبين السماء المحجبة بالغيوم، وأتعمق في روافد الخلجان، وجداول احتوت التاريخ والتراث، وحقول زراعية ضمت الحكايات الإفريقية، وبداية النيل الذي يحمل إكسير الحياة إلى عشرة دول إفريقية يمر على أراضيها بطريقة أو بأخرى، وأكثر من350 مليون نسمة يعتمدون على النيل في حياتهم.

في المساء وحين كنت أسيراً على ضفاف البحيرة الهادئة تذكرت كيف تشبه الطبيعة الإفريقية الإنسان الإفريقي القابع في أحراشه المنزوي في مرابعه، مع أنه ينضح بالقوة والإصرار والتغلب على المعاناة وشبح الفقر المخيف، حيث الخطوط المرسومة على جبهة البحيرة تشبه الخطوط الطبيعية التي تفصل الشعر

الإفريقي المجعد عن بعضه البعض، هذا الشبه اللافت أعتقد أنه يجسد الحب الكبير بين المظاهر الطبيعية لإفريقيا وأهلها.

لا أصدق أنني أتربع على ربوة مطلة على منبع النيل العظيم الذي يفيض حبا وحنانا!، وحيث تبدأ قطراته الأولى بالجريان وشق الأراضي الإفريقية إلى الشمال لتروي عطش الأجيال، وتحيي الأرض الجدباء، وتحول الصحراء إلى واحات وارفة.

إذاً يبدأ النيل رحلته الألفية من هنا وعلى شمالي ليكون معلما تاريخيا، ورمزا أثريا، ونهرا سياحيا عالميا، نُظم من أجله أعذب الأغاني وأحلى الكلمات، وأشجى الروايات في الفن العالمي، النيل العظيم كان ومازال في تاريخه نافذة يطّلع منها الشعراء على جمال الكون، ونضارة الأزمنة، يحبه الأدباء، ويتفاني في إخلاصه الكتّاب، ويتغني بعشقه المغنون، وتؤلف حوله الكتب، والقصص، والأساطير، والحكاوي المليئة بالحب والعشق تارة، والخوف والظلام تارة أخرى.النيل كان .ومازال .يشق الأرض وينساب نحو الشمال ليؤسس منارات لاتخبو لحضارات خالدة، ومدن باقية، وآثارا عمرانية بادية للعيان لمماليك تركوا بصمتهم الواضحة على جبين الأرض.

تحت قبة الليل بدأت تثور كوامن الغربة في داخلي وأنا وحيد في جزيرة الذكرياتوبدأت السماء تبكي وتحن وتذرف الدموع على المدينة الساحرة، وارتفع ترمومتر الشوق في وجداني المتلهف إلى الحكايات وأنا أحبو وسط الظلام، وكنت أعاني على تراكمات كتابة المشاهدات ومثلث السواد (الليل،الغربة،المطر).

هاجمني شجن الغربة، وألم الترحال، وشعور المطر المسكوب بالليل، وأنا لم أبعد عن وطني سوى مئات الكيلومترات، فألهبني هذا الشعور، وآلمتني الغربة، ومنحني المطر بردا دخل في كل شبر من جسمي، فتذكرت الفنان السوداني العملاق مصطفى سيد أحمد، وأغنيته الشهيرة ذات النغمات الشجية:

الدنيا ليل غربة ومطر.. غربة ومطر

وطرب حزين.. رجع تقاسيم الوتر

شرب الزمن فرح السنين.. والباقي هداه السهر

يا روح غناي.. الغربة ملت من شقاي

وغربتي وبقيت براي .. حاضن أساي

الوحشة ملت من أساي .. ووحدتي

قولى للنيل ضفة ضفة والعشيات لما تصفى

والنسيمات البتاخد من عفاف ريدتنا عفة

إنو شوقي شوق إنسان معذب.

كان ليلا دامسا ومبلولا بالغربة والشجن عشته في كامل تفاصيله، وفي الصباح كان السرور والفرحة ينتظراني على عتبة الشروق، حيث زميلي في الدراسة عباس إسما الذي درسنا معا في جامعة إفريقيا العالمية زارني وبريق عيونه يحمل صورة لأزمنة مضت قضيناها في قسم الجيولوجيا، ملامحه الآنسة بددت لحظات التوحد مع الخلاء، ونسيت الغربة والمطر عندما تحدثت مع صديقي الأوغندي وتطرقنا إلى ليالي السمر في الخرطوم ومباهج العلم والمعرفة ومواجع الغربة.

كمبالا.. جوهرة إفريقيا

ذهبنا معا إلى العاصمة الأوغندية كمبالا والضحكة تملؤ قلوبنا قبل جبيننا، وأحاديث الماضي والجيولوجيا والنيل، عنوان همساتنا التي تتحول بعض المرات إلى صراخ وضجيج، ونحن نتهادى ونمر من أزقة ترابية إلى أزقة طينية، ومن حارة بسيطة إلى رحاب منازل يبدو عليها الترف ونعومة الحياة، ومن شارع رئيسي إلى طريق معبد، ومن عشوائيات المدن إلى الحدائق العامة، ومن المباني والوزارات الباذخة إلى الأكواخ المتناثرة على جنبات الطريق، وكأنّها تذكر المارة أيام إفريقيا الخوالي وتاريخها الموغل في القدم والبؤس والانقلابات العسكرية مما جعل أفريقيا قارة غارقة في المشاكل والقمع والفقر المدقع في كثير من الأحيان .

وصلت كمبالا التي كنت أتشوق لرؤيتها، فهالتني بساطة الحياة فيها، وأذهلتني الزحمة الشديدة التي تعانيها كمبالا، حيث الطرقات مغلقة، والشوارع مكتظة بالمارة والسيارات، وفي وسط كمبالا الذي يقف فيه البشر وكأنهم أكوام مكدسة، أو الأشجار الكثيفة للغابات الأمازونية ركبت الدراجة النارية "المتنفس الوحيد للشعب"، وتعتبر الدراجة النارية أهم المواصلات في مدينة تئن على وقع النزوح والهجرات الجماعية من الريف والبوادي إلى خدماتها وبريقها ووظائفها.

كمبالا بنيت على أنقاض مملكة يوغندا العريقة التي حكمت المنطقة المحيطة بالبحيرة وحتي الأعماق البعيدة لأفريقيا، وفي عهد الكشوفات الجغرافية الأوروبية التي مهدت لأوروبا غزو أفريقيا المجهولة بالنسبة لها كانت مملكة يوغندا تزدهر وتنمو وتسيطر على آلاف الأميال من الأراضي الواقعة على ضفاف فيكتوريا والعمق الأفريقي، وكانت الرعية تبجل الملوك وتكنّ لهم التقدير والاحترام، ومن الذين زاروا المنطقة وكتبوا عن أفريقيا وملوكها وأنماط الحياة فيها الرحالة والصحفي الإنجليزي ستانلي الذي تحدث في كتابه: خلال القارة المظلمة (Throug the dark continent) عن الملك ميتسا الذي وصفه بالملك المسلم والذكي والمرموق، وله سلطة مطلقة وشاسعة في قطاع من أفريقيا وكان محبوبا ومبجلاً وسط رعيته الساكنة في منبع النيل وما ورائها من المدن والقرى والحقول الزراعية.

حمى الانتخابات

في طول الطريق الممتد ما بين المدن الأوغندية كانت حمى الانتخابات واضحة للعيان، اللافتات السياسية والشعارات الحزبية ودغدغة المشاعر عنوان المناخ الانتخابي التي لايجني فيها المواطن في أفريقيا سوى الدماء والمزيد من الفساد والقبضة الحديدية للمستبدين الذين لايخرجون من القصور إلا إلى القبور.

الاعتقال المتكرر للمعارضة والقمع المصاحب للانتخابات التي كانت من المفترض أن تكون عرسا ديمقراطيا كان حديث الشارع ونبضه، "كمبالا" كانت تشهد في هذه الفترة هزة عنيفة من الاحتجاجات والشغب بسبب الانتخابات الرئاسية التي فاز بها الرئيس الحالي يوري موسيفيني الذي حكم البلاد منذ1986م، ورغم ثلاثة عقود من الاستبداد والحكم العسكري والقبضة الحديدية إلا أن العقيد السبعيني مازال متمسكا بالكرسي، وشهوة السلطة تقوده نحو التسلط والتزوير وتكميم الأفواه، وبعد إعلان النتيجة وفوز رجل الغرب في المنطقة موسيفيني وبنسبة متفوقة تعرفها الدول الإفريقية والعربية فقط النتيجة لم ترضي المعارضة، بل وصفتها بالاحتيالية والخداعية.

تاريخياً المعارضة الأفريقية الهشة التي لاتحمل غالبا بديلا جاهزا عن سلطة المستبد وفكرا استراتيجيا وسياسيا يقود القارة نحو السلام ومحاربة الفقر والحد من الأوبئة الفتاكة. الأحزاب الانتهازية والدولة البوليسية وجهان لعملة واحدة في القارة السمراء، مشاريع الأحزاب الميكروبية الأفريقية في معظمها فارغة المضمون والمحتوى ولاتحمل سوى المعارضة من أجل المعارضة والرغبة الجامحة نحو التربع على الهرم السياسي ونهب الثروات مهما كان الثمن، وهذه مراهقة سياسية وقصر في النظر للنخب الحاكمة والمعارضة التي تنتسب إلى المدارس الغربية في الفكر السياسي والمبادئ الموجهة، ولو اعتمدوا على الفكر السياسي الأفريقي والتقاليد العريقة لكانت القارة تتمتع اليوم برخاء اقتصادي وانسجام حسب رأيي.

وبسبب التأخير الشديد والإفراط في استخدام القوة أعلنت المعارضة بقيادة الطبيب الخاص السابق لموسيفيني كيزا بيسيجي رئيس حزب "المنتدى من أجل التغيير الديمقراطي" الذي تم اعتقاله واحتجازه عدة مرات قبل وأثناء الانتخابات، أن الانتخابات غير نزيهة وشهدت تجاوزات خطيرة وشابها أعمال غير قانونية، وفي خضم المعركة الانتخابية الشرسة أعربت بعثة الاتحاد الأوروبي لمراقبة الانتخابات حدوث خروقات خطيره وأعربت عن قلقها بسبب غياب (الشفافية والاستقلالية) مما ألهب الضمير وأثار الرأي العام للمعارضة التي قامت بمظاهرات عنيفة وحرب كر وفر في وسط العاصمة.

كانت المدينة التي أطلق عليها القائد البريطاني تشرشل اسم"جوهرة إفريقيا" أو كما يحلو لعشاقها عاصمة التلال السبعة قاتمة كئيبة هذه المرة وقد أحاطها الخوف والترقب والدخان والغاز المسيل للدموع في كل جانب، ولم تكن المدينة المطلة على الشواطئ الأخاذة لبحيرة فيكتوريا نابضة بالسمرة والحياة، بل كانت مدينة المواجهات الدامية بين سلطة الاستبداد والشعب التواق إلى الحرية والتغيير والكرامة.

على متن الدراجة النارية أو Boda-Boda كما يسمونها في اللغة المحلية، شعرت بلحظة من الصفاء، وشعورا يطفح على وجهي ويجعلني أترنم وأردد الأبيات المشهورة في وصف المدن والأمصار تارة، وأغني الأغاني الصومالية الشجية تارة أخرى، لوهلة بدا لي وكأني أتقلب في حلم سريالي لا يتكرر على الأقل في المنظور القادم، فطلبت من صديقي عباس أن يلتقط صورة للذكرى وللتاريخ، وكنت أريد أن أخلد في سجلات الأرشيف لحظات البهاء على صهوة الدراجة النارية التي تطقطق وتطلق صوتا ضعيفا في وسط "كمبالا".

توغلت في عمق كمبالا وأسواقها الشعبية، كنت أريد التعرف عليها عن كثب ومعرفة أحوال الناس والمعيشة والعمران ومظاهر الحياة بعد الانتخابات الدامية، تجولت في معظم أحياء كمبالا وحاراتها ورأيت من بعيد القصر المنيف للملك كاباكا ومملكته. وأدركت أن المدينة ورغم الحذر والخوف مازالت تعاني في النهار من الاكتظاظ السكاني وأزمة المرور والزحمة القاتلة، وفي الليل أضواء تنبض في كل مكان وهضاب ترسل ألحانا من الغناء الأوغندي إلى الساهرين تحت وقع صخب المواجهة والليالي الحمراء. وتعد كمبالا من المدن الإفريقية الواعدة حيث تنتصب المدينة شامخة فوق منطقة جبلية ذات مظاهر فاتنة تغطيها السحب في معظم السنة، وتشكل الطقس الدافئ والهضاب والتلال والتربة الحمراء منظرا رائعا في جوهرة أفريقيا.

وفي تقديري هي أقل مساحة من المدن والعواصم الإفريقية التي زرتها، وبما أن أعناق النساء في المنافي تعد أجمل شيء تقدمه الغربة للغريب كما يقولون، راقبت عن كثب سمراوات كمبالا وقارنتها بحسناوات نيروبي وكيجالي فكانت المقارنة بعيدة حيث نساء كمبالا أقصر قامة وأكثر بدانة من نساء نيروبي وجميلات كيجالي وأديس أبابا النحيفات الطوال، ومقياس الجمال للمرأة في مخيلة الأوغندي كغيره في معظم الشعوب الإفريقية هو انتفاخ العجز والأرداف مما ذكرني أبيات الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم

ومتنى لدنة سمقت وطالت*** روادفها تنوء بما ولينا

ومأكمة يضيق الباب عنها*** وكشحا قد جننت به جنونا

الجالية الصومالية في كمبالا

على وقع الحنين إلى أمتي الصومالية ذهبت إلى الحي الصومالي في كمبالا كسيني (Kisenyi)، للحظة بدا لي وكأني في كسمايو توغلت في الحيّ فيبدو الطريق وكأنه شارع الثلاثين في وسط العاصمة الصومالية مقديشو.أحببت الصوماليات وحجابهن المميز وهن يتبخترن في وسط حيِّ كسيني، كنت أشتاق لرؤيتهن، وكان الشعور يتدفق من قلبي وأنا أمشي وأراقب الحركات والسير في هذا الحي الشبية بحارتنا، وأقرأ واجهات المحلات ولافتات الدكاكين التي تشبه المدن الصومالية في القرن الإفريقي، كل شيء في كسيني يذكرك بهناك، هنا تجد الشعب الصومالي بكافة شرائحه من مقديشو، وهرجيسا، وكسمايو، ودردوا، وجيبوتي، وبوصاصو، وبرعو، وجكجكا، وبيدوا، وغاريسا،وهرر، ملامح صومالية أصيلة، وجموع لايشعر فيها المرء أنه يتنقل في العمق الإفريقي المختلف عن الصومال سحنة وملامحا.

ما أجمل الألفة بعد الغربة والوحدة القاتلة!، شعرت بطمأنينة وأنا أرتشف الشاي الصومالي على مقعد شبيه بالمقاعد المحلية الموجودة في بيتنا هناك في كسمايو، ولكي تكتمل الصورة في ذهني، ولأجرب مدى التطابق الوجداني والذوق بين الصومالي العائش في كمبالا، والصومالي الذي لم يزل يمارس الحياة ويرعى الإبل في مرابع قومه، طلبت لبن الإبل في دكان كان الصوماليون يتجاذبون أمامه أطراف الحديث.

كان حديثهم يدور حول أداء الحكومة الصومالية، وعلاقة الوزير الأول بالرئيس، بعضهم يؤكد أن الوزير الأول ماهو إلا دمية في أيدي الرئيس ولايستطيع أن يمثل قبيلته في وطن مبنى على المحاصصة القبلية ونظام غريب لايعرفه العالم اسمه 4.5 ومعناها بالتبسيط، في الصومال هناك قبائل أربعة كبيرة لها نصيب الأسد في الحكم والسلطة والثروة، ونصف قبيلة أو قبيلة غير مكتملة الأركان ! وهي عبارة عن الأقليات والقبائل المهمشة وآخرون وجدوا أنفسهم في خانة واحدة رغم اختلاف أنسابهم وأعراقهم وخلفياتهم، الأقلية تجمعهم والحيف يشملهم، بينما الآخرون يدافعون عن الرجل ويؤكدون أنه داهية العصر ورجل دولة لا يأبه كثيرا بالحماسة الصومالية بكونه أكاديمياً عاش عقودا في المهجر مما أتاح له أن يتسم بالهدوء السياسي والرزانة في اختيار المواقف.

قلت لصديقي الأوغندي عباس إسما: إن الصوماليين يعشقون الإبل ويحبون السياسة، وذكرت لصديقي أنه لا يمكن أن تخلوا مجالس الصوماليين من تحليل السياسة وعشق الإبل، كما لا يمكن الّانجد لبن الإبل في مكان يعيش فيه الصوماليون ولو كانت في زمهرير سيبيريا، أو أعماق اللاتين، أو بلاد العم سام، لأن حب الإبل والتعلق بها مكتوب في شغاف قلوبنا، وإن وُلد الصوماليّ في لندن، أو أبيدجان،

أو ريو دي جانيرو أو دمشق، أو حتى كمبالا التي أجزم أن أجد فيها اللبن وبأنواع مختلفة، فإنه يفتخر بالإبل ومحاسن قومه، ويمارس السياسة ولو في الهواء الطلق مثل أصدقائنا هنا.

وجدت اللبن بعد عناء البحث وكان شعوري لا يوصف وأنا أشرب اللبن والطريف في الأمر أن زميلي قال لي والرغوة تنساب على شدقيه أنه لم يشرب لبن الإبل في حياته!، وهنا اشتريت له اللبن وقلت له: ليكن هذا تذكارا أو هدية مني.

نزلت في فندق القدس المتواضع الذي يقع في حي "كِسيني" الذي تسكنه الجالية الصومالية في أوغندا، في هذا الحي القديم كانت تكثر اللصوص والقمامات قبل أن تسكن الجالية الصومالة فيه، وبعد مجئيهم أصبحت البطالة عنوان الحي في مجتمع ينتظر الهجرة واللجوء إلى الدول الغربية، ومن الغريب أن الصوماليين في كمبالا غادروا الصومال ومعهم القبلية وارتفاع منسوب اليأس والإحباط والتشريد، ولم ينسوا القبلية النتنة وإن شردتهم إلى المنافي الأفريقية !

مسجد القذافي

شبعت من الألفة والمظاهر الأفريقية أيضا، فذهبت إلى المسجد على صهوة الدراجة النارية "صديقة الكادحين"، وعندما تجاوزنا التقاطع الرئيس للحي بدا المسجد الكبير يومض فوق تل عال، صليت الجمعة في مسجد القذافي الذي بات معلما بارزا من معالم كمبالا التي يشكل المسلمون فيها نسبة لا بأس بها، دخلت المسجد فقال لي بعض رواده أنه أكبر مسجد في وسط وشرق أفريقيا، لم أكذب هذه المقولة ولم أصدق! لأننا كنا نردد منذ الطفولة أن مسجد التضامن الإسلامي في مقديشو الذي بني في عهد الرئيس الراحل آدم عبدالله عثمان رحمه الله وبتمويل سعودي من الملك فيصل رحمه الله هو أكبر مسجد في الشرق والوسط الإفريقي، ولا أدري أي المقولتين أصدق!.

وصلتْ بصمات ومنح الرئيس الليبي السابق معمر القذافي إلى أواسط أفريقيا ومجاهيلها مما ساعد الأفارقة على أن يخرجوا من كبوتهم الاقتصادية وأن يجدوا مرافق أساسية لحياتهم المادية والروحية، بينما كانت الشعوب العربية وفي مقدمتها ليبيا تعاني من بصماته الاستعبادية ونهب الخيرات وتأسيس دولة بوليسية تصادر الحقوق وتقيد الحريات وتكمم الأفواه وتغتال قيم التسامح واختلاف الأفكار والآراء، العقيد الذي كان ينشر الخوف ويزرع الرهبة في بلده حتى بات الوطن في زمنه معلما من معالم الاستبداد والغطرسة وسجنا مفتوحا كان يوزع الأموال على أغنياء أفريقيا وينصب لهم الملوك والسلاطين ويبني المرافق والبنية التحتية بغية الزعامة الأفريقية وطلبا للكلمة المحببة إلى أسماعه " الأخ القائد" بعدما سئم قيادة العرب بسبب الاختلاف الفطري للعرب في كل شيء وعن كل شيء تقريبا.

كان المسجد مبنيا فوق تل رفيع، وتكون كمبالا تحتك وأنت تصلي، أو تجلس، أو تتجاذب مع أصدقائك أطراف الحديث في بهوه، هندسة المسجد جميلة وبني على النمط الزائد في إفريقيا، حيث المئذنة الطويلة، والأعمدة القوية، والسماكة الواضحة، والآيات القرآنية المزركشة على الجدران، ولا تلاحظ فرقا جوهريا بينه وبين المسجد الجامع أو Jamia Mousque في العاصمة الكينية نيروبي.

وفي عقر المسجد المليء بالمصلين من كل الأجناس تجلت عظمة الإسلام الخالد، حيث الصومالي، والهندي، واليمني، والسوداني، والباكستاني، والأوغندي، والإرتري، واللبناني، وسائر المسلمين، يقفون صفا واحدا ليعبدوا إلهاواحدا، دون تمييز ودون تحقير أو ازدراء، لافرق بين أسود وأبيض، وبين غني وفقير،وبين رئيس ومروؤس، وبين طويل وقصير، "إن أكرمكم عندالله أتقاكم" الكل يرفع أكف الضراعة

إلى الخالق جل جلاه، الجباه خاشعة، والقلوب خاضعة، والعيون منخفضة، والجوارح ساكنة (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاهمسا)

صلينا على وقع الشعور الإيماني القوي ورجعنا من الصلاة في وقت الغذاء فذهبنا إلى مطعم القدس الذي يملكه صوماليون أسسوا تجارة مرموقة في كمبالا، أكلت مع صديقي عباس إسما لحما مطبوخا بالطريقة الصومالية أعرفها جيدا، وحقيقة لم آكل منذ مدة لحما لذيذا إلى هذه الدرجة خاصة وأن الوجبة الأساسية في أوغندا هو الموز المطبوخ بطريقة لاتثير شهيتي إطلاقا.

راقت لي كمبالا كثيرا، وفي المساء إلتقيت بأصدقائي الصوماليين الذين تعرفت عليهم في السودان، معظمهم جاؤوا هنا لإكمال دراستهم وتخصصاتهم وتقوية مهاراتهم، بعضهم يتعلمون الإنجليزية ويجتهدون في إتقانها، وبعضهم يواصلون الدراسات العليا، التقيت بالأصدقاء في جافا كافي Java Coffe الراقي، والنسائم تلامس جباهنا ومن المفارقات أن هذا المقهي الأنيق تعود ملكيته لصوماليين قيل إنهم من الأسرة الملكية في يوغندا!. قضيت وقتا ماتعا مع رفقتي في حين كان نصف القمر مضيئا ونصفه الآخر غطته السحب والغيوم الإفريقية السوداء، وقبل العشاء رجعت إلى فندقي، وتركت الأحبة وأنا ألوح يدي من النافذة الغارقة في العتمة، ورحلت عنهم ولكن بأمل اللقاء في الوطن الحبيب "الصومال".

وبعد شهر كانت مليئا بالتجربة والإثارة غادرت كمبالا التي تشبه في الخارج مدينة الركود وعاصمة السكون، ولكن في الداخل عاصمة تنافس عواصم إفريقيا من حيث العمران والسكان والخدمات المدنية. ونفضت عن كاهلها غبار السنين والانقلابات العسكرية، واتجهتْ أخيرا نحو التقدم والاستقرار ولكن بخطى ثقيلة كبلتها أفكار زعيم إمبراطورية توتسي العظمى التي لم ترى النور بل تعيش في خيال العقيد موسيفيني فقط.

أفريقيا من خلال فيلم "الألماس الدموي"

خطر على بالي وأنا على تلال كمبالا أراقب الأوغنديين المسرعين نحو العمل والأسواق وربما إلى أحضان البطالة كيف أرسلت أوغندا جنودا وقوات بالآلاف إلى وطني الصومال، من أجل إعادة الأمن والاستقرار وهي غارقة بالديكتاتورية والكبت الإعلامي ومصادرة الحريات والحقوق والفقر المدقع! حيث وصلت نسبة العطالة إلى حدود50% في عام 2012م، وكيف يعيد لوطني الأمن واحترام القانون من لم يستطع أن يحكم بلاده بالديمقراطية والتداول السلمي للسلطة ولم يقدم لشعبه حياة الرفاهية والتقدم والمساواة طيلة ثلاثة عقود تربعت المؤسسة العسكرية على رأس الهرم السياسي لأوغندا؟!

بعد مضي ثلاثة عقود لم ينس الأوغنديون الخطبة الأولى لرئيسهم مسيفيني وهو يخطب بعد سيطرة قواته على مفاصل الدولة ومقاليد الأمور" نريد محاربة الديكتاتورية وانتهاء التربع على الكرسي إلى الأبد، نريد أن نوفر للمواطن أن يختار ممثله بحرية تامة، كيف يمكن أن يمكث سياسي على الكرسي عشرات السنين وكأن الكرسي ملك لأبيه؟" .

ورغم حضارة أفريقيا العريقة وتاريخها الضارب في القدم منذ آلاف السنين حيث ساهمت القارة في المعرفة الإنسانية وصنعت أعتى الحضارات إلا أنها تعاني نزيفا حادا وتمر بأحلك الظروف، حيث الشعوب الأفريقية تعاني من الجهل والتخلف وتسلط الدول ما بعد الكولونيالية الذين أصبحوا أسوأ من المحتل في معظم الأحوال، فبعد إفاقة الشعب من سيطرة الأوروربيين ونهب ثروتهم واستعباد شعبهم وبيعهم وبأبخس الثمن إلى سماسرة الدماء حتى أصبحت تجارة الرقيق أسوأ صفحة وأصعب فصل من فصول المعاناة الأفريقية وجدوا أنفسهم في أحضان العنف والكراهية ودولة الرجل الواحد.

ورغم خروج المحتل الأوروبي مازالت المفاهيم الاستعمارية تسيطر على أفريقيا أرضا وشعبا، ولا أدري ما الذي جمع تفكيري عن معاناة القارة والفيلم المؤلم الذي يجسد القارة وكيف أصبحت الموارد الطبيعية منبع ألم دائم لأفريقيا، في خضم أمواج التفكير المتلاطم كنت أشاهد الفيلم "الهوليودي" المثير "الألماس الدموي "Blood Diamond" "الذي صدر عام 2006م للمنتج "إدوارد زويك"، وبطولة الممثل "ليوناردو دي كابريو" والممثل الأمريكي ذو الأصول البنينية "دجيمون هونسو."، وبما أن أوغندا ومعظم الدول الأفريقية تأثروا بالصراعات المحمومة حول السلطة والنفوذ تارة وحول تقسيم الثروة وكعكعة الحكم تارة أخرى سألت نفسي هل تحولت النعمة إلى نقمة؟ وكم تحتاج أفريقيا لتتعافي من آثار الحروب والدمار؟

يستعرض الفيلم المليء بالمغامرات والجريمة بطريقة دراماتيكية متقنة قارة المستقبل "أفريقيا" الحافلة بالأزمات والموارد، وشعوب مقهورة تحمل عبء الحروب وتشكّل الضحية في كل الصراعات الدامية، ويتناول واحدة من أصعب المشاكل التي تواجه القارة السمراء وهي الاحتراب الأهلي الناتج عن الخيرات الطبيعية ولعنة الثروة والسلطة في أفريقيا.

أفريقيا الخضراء الزاخرة بالثروات والكفاءات والموارد قدرها ألا تخلو من الحروب العبثية والمشانق والانقلابات والرصاص التي جعلت البلاد ميادين مقفرة وأوطاناً خالية، وأمواجاً من المتسولين شكّلتهم الحرب وفقدوا أملهم وحبهم وانتمائهم للوطن، وأسواقاً مفتوحة يجني العالم منها المال، ونحن السلاح والتخلف الذي يكرس الانقسام والهشاشة والانشطار والموت جوعاً فوق أرض تنوء وتطفح بمقومات اقتصادية كبيرة، ومواقع استراتيجية مذهلة وقوة بدنية جبارة، ومن هنا أصبحت كلمة " أفريقيا قارة غنية يسكنها شعوب فقيرة " مشهورة يرددها العالم.

من أوغندا شرقاً إلى ليبيريا غرباً ومن أنغولا جنوباً إلى ليبيا شمالاً تمتد معاناة أفريقيا وخارطتها المأساوية، حيث طبول الحروب تقرع وموسيقى الصراعات تعزف على وقع الألم والدموع وعلى ضفاف الجمال والمدن والثروات، لتكون النعمة في ظل الانغماس بالعنف والجنوح نحو طمس معالم الوطن وسفك الدماء لعنة تطارد القارة أرضاً وشعباً.

الموارد الاقتصادية الأفريقية فرضت على السكان المحليين متاعب اجتماعية واقتصادية وبيئية جمّة، ومن المفارقات أن الشعوب الأكثر فقراً وبؤساً في أفريقيا يعيشون في دول غنية بمصادرها الاقتصادية وبمواقعها المتميزة، لأن الأموال العائدة من الموارد تذهب كلياً إلى جيوب الحكام الفاسدين ولا تذهب في القطاعات الحيوية للشعب ولا تساهم في محاربة البطالة والبحث عن الرفاهية والحياة الكريمة، مما يتطلب أن يتقاتل القادة الفاسدون من أجل المال واستحواذ مراكز القوة والنفوذ، وهكذا تنشأ الحركات المسلحة وتحدث الانقلابات في أفريقيا الثرية بخاماتها وأراضيها البكر.

يصور الفيلم لحظات أفريقيا الفانتازية، بين دياجير الظلام وسطوع الضياء وأحراش الغابات العذراء يعيش الصياد "سولومون" "دجيمون هونسو" وأسرته، الأسرة سعيدة والأجواء شاعرية دافئة والطبيعة تزخر بالحب والجمال، في الصباح الباكر تمتزج ترانيم الرعاة وصفير الفلاحين مع دخان يتصاعد من البيوت الغافية في أحضان القرية، وفي الأمسيات المبللة بمرح الحكايات والنكت تغرد الطيور في الجداول المائية وينساب نهر الأغاني على وقع الشواطئ اللؤلؤية.

تسير الحياة وكأنها حديقة حافلة بالورود والحبور، وفجأة وفي وسط الحقول تظهر الجبهة الثورية المتحدة المهووسة بالقتل الجماعي، والاغتصاب، وبتر الأطراف، تزهق الأرواح، وتنهب الأموال، فتعيث فساداً في القرية، وتحدث المجازر، وتعم النكبة على سكانها، في هذه الأثناء يهرول البطل من المزرعة يمني النفس بانتشال أسرته من براثن الردى، ولكن يقع في أيدي العصابات، ويفقد أسرته التي نزحت إلى دولة مجاورة بحثا عن أمان لتنتهي بها المطاف إلى ثاني أكبر مخيم في العالم.كنتُ أحس بمرارة الغربة واللجوء لأنني أنتمي إلى شعب يعرف جيداً معنى التشريد والتبعثر الجغرافي، حيث انقسم الصوماليون إلى دول الجوار تأويهم المخيمات المهينة تحت رحمة القسوة والترقب لقادم طال انتظاره.

من هنا بدأ "سولومون" أصعب فصل في حياته، النضال والكفاح من أجل استعادة أسرته ولم شملها من جديد، ولكن لسوء الحظ المليشيات المعارضة تقود "ديا" ابنه البكر إلى معاقلها من أجل التجنيد الإجباري، وتستمر المعاناة في ظل وطن تسوده الكراهية وجبهات تهدف إلى النهب والتنكيل وتحارب من أجل الانتقام والانتصار العرقي، لا من أجل التغيير إلى الأفضل والتنمية المستدامة والعدالة الاجتماعية والمساواة.

تحوّل "سولومون" ما بين وليلة وضحاها إلى أسير لا يعرف مصير أسرته، انضم إلى الأسرى العبيد عمال البحث عن الماسة الدامية، وفي يوم من الأيام ابتسم له الحظ ووجد ماسة وردية مميزة تستطيع أن تنهي سنوات الفقر والحرمان إن وصلت إلى الأسواق العالمية، وبطريقة مثالية حفر الأرض للماسة متستراً بدخان الحروب وعتمة الصواريخ، وبعد استيلاء القوات الحكومية في تلك المنطقة وقع الأب المكلوم في أيدي القوات الحكومية لترسله إلى السجن، وفي غياهيب سجن "فريتاون" تعارف مع الانتهازي والجندي السابق لزيمبابوي "داني أرتشر" "ليوناردو دي كابريو."

المعرفة الشخصية للمغامر الإفريقي الأبيض ولُجة الحروب ووجود الماسة النقية أصبحت له حبل النجاة من السجن، حيث أخرجه تاجر الألماس من أجل البحث عن الكنز المدفون في أحراش "سيراليون" الغنية بمواردها والفقيرة بغباء السياسة التي جعلت الشعب بائسا ينتظر المساعدات وينتج الأماني.

انتشر الخوف والرعب على أيدي حفاري القبور فتحولت نعمة الثروة إلى نقمة حقيقية في "سيراليون" وكافة إفريقيا منذ بداية الاستعمار إلى يومنا هذا، وتسببت الحقب المفعمة بالدماء والثورات الانتهازية من أجل الحكم وسيطرة مناجم "الألماس والذهب والبوكسيت" في عدة انقلابات لم تكن كفيلة بترجيح الكفة لصالح مستبد معين فتطورت الحالة إلى حرب أهلية شاملة.

"ديا" الجميل البارع في كرة القدم والمدرسة كان من ضمن الأطفال الذين اختُطِفوا من أجل التجنيد والحروب، واجه الطفل مأساة حقيقية وتحولات كثيرة في شخصيته وموروس ضده العنف الجسدي والنفسي ليكون جلاداً لا يرحم، وفي غضون سنوات قليلة اختفت البراءة وبات الطفل قاتلاً يتلذذ بتعذيب الضحية ومصاصاً صغيراً للدماء، جسده نحيل وملامحه مثقلة بالخوف وعيونه غامرة بالشر والكراهية والمخدرات، فَقدَ طفولته وإنسانيته وأصبح وحشاً كاسراً واختفى المرح المطبوع على جبينه الأسمر.

"آتشر" مهرب الثروات من البلاد المنتجة إلى البلاد المجاورة لتصديرها كان يحاول استغلال الإفريقي البسيط نظراً للظروف الأسرية الحرجة التي يمر بها، وهذا أسلوب شائع في أفريقيا حيث الأشخاص ذوو النفوذ الواسع، والشركات العابرة للقارات الطامعة غالباً في الاستيلاء على قطاعي النفط والتعدين، والدول المجاورة للدولة المنكوبة يحاولون السيطرة على الوضع وإثارة الحروب والنعرات وإبعاد الحلول، ففي مأساة "سيراليون" كانت ليبيريا ورئيسها السابق عبئا على استقرارها، وكذلك تشكل دول جوار الصومال عقبة كأداء حالت دون الخروج من الوضع المزري، وإن تظاهرت أنها أرسلت قوات حفظ السلام وعقدت مؤتمرات مصالحة بين الفرقاء الصوماليين، ولكن الحقيقية الماثلة هي أن هذه الدول تعمل على إضعاف الصومال وتطبق القاعدة الاستعمارية الشهيرة "فرق تسد" مستغلة ضعف الأطراف المتصارعة على أطلال الوطن.

ورغم وجود أسباب أخرى فإن مخرجات مؤتمر برلين 1884-1885 مازالت باعثاً رئيساً على الحروب والتشريد في أفريقيا التي أرادتها "الكولونيالية" أن تكون بقرة حلوباَ وقارة تنهب ثروتها ويقتل أبناؤها، وبعد رحيل الاستعمار لم يكن معظم الحكام على مستوى الطموحات والتطلعات، بل كانوا عملاء لأسيادهم، وإن برز فيهم قائد وطني شريف يتم اغتياله (توماس سانكارا ، باتريس لومبا).

وعموماً إفريقيا تعاني على مستوى القادة حيث برز فيها حكام انتهازيون همهم ملء الجيوب ونهب الأموال والاستجمام في الغرب بعيداً عن أنين المرضى وبكاء الأرامل وعويل الجياع .

تجوّل البطل في مناطق الأزمات بحثاً عن أسرته وكنزه، ويموت صيّاد الثروة على تخوم مناطق التعدين وتجتمع الأسرة من جديد، ولكن المأساة لم تنته وفجائع الحروب مازالت تتجدد في أفريقيا.

مومباسا ... عبق الطبيعة وعر اقة التاريخ

كان الجو غائما، وأشعة الشمس الكسولة تحاول اختراق الغيوم الكثيفة على سماء نيروبي، حينما أقلعت الطائرة من مطار جومو كينياتا الدولي متوجهة إلى مطار مُوي في مومباسا، لم تكن رحلة عادية بل كانت تنقلنا من عالم ماتت فيه المشاعر الإنسانية وتحجرت فيه المناظر، إلى عالم إنساني الطابع حيث التراث والحضارة، ومومباسا المحيرة بين الواقع الأفريقي والأصول العربية المتجذرة في الملامح والفن والعمارة والتاريخ في مدينة أسسها تجار العرب حتى صارت من المدن الشهيرة في الساحل الشرقي لأفريقيا منذ عصور.

جلستُ على مقعدي في مقدمة الطائرة العتيقة التي كانت تبدو وكأنها من مخلفات السوفيت المنهار، أو من بقايا الطائرات المشاركة في الحرب العالمية الثانية، ألقيت نظرة على الركاب المشغولين بأخذ مقاعدهم وإغلاق هواتفهم وأحاديث جانبية لبعضهم، همسات خجولة يتخللها أزيز قوي للطائرة، وأصوات المايكرفون الآتية من مساعد الطيّار، أو المضيفة الأنيقة بمظهرها وبلغتها السواحلية ولكنتها المميزة عند التحدث بالإنكليزية.

سريعا حلقت الطائرة فوق نيروبي المكتظة بالمناظر الرائعة، وارتفعت نحو عنان السماء مصحوبة بأزيز وحركات متزنة صعودا وهبوطا، كأنها تتردد في منحنى رياضي مرسوم بدقة فائقة، وأرست الغيوم الكثيفة سدولها على الفضاء الرحب، وتجلى الجوّ القارس تحت الطائرة المرتعشة بردا وضبابا.

على نافذة الطائرة تتشكل السحب بمظاهر غريبة، جبال شاهقة وبحيرات متلاطمة، وأشجار كثيفة، وأغرب منظر تشكلته كان عندما بدت السحب وكأنها آدمي معقوف الشوارب جاء من عمق الفضاء، وعيونه تؤرّخ أصداء الزمان الذي قطعه في طريقه إلى التشّكل، وفي عقر الفضاء تتبخر السحب وتتغيّر الأشكال بسرعة مذهلة كأن أزيز الطائرة يوقظ الكائنات العائشة في السماء بدون أنيس ولا جليس.

كنا نتهادى على هامات أمواج من البرد والضباب، الأرض محاطة برداء أخضر، وتبدو الأعشاب الراقصة وكأنها سجادة فاخرة فرشت فوق بلاط من الحرير والزبرجد، وبدت البنايات الشاهقة كما لو كانت المباني الرملية التي يلعبها الأطفال في صغرهم على ضفاف الأنهار والمحيطات، والطائرة ترقص وتتحرك كلما اعترتها موجة من البرد، أو سلسلة من السحب، أو طيف يسري من شوق كان يحدو بي إلى ملاقاة أشقائي الذين كان صوتهم يداوي جراحي منذ أن فارقتهم.

تذكرت الجيولوجيا، والصخور، والجبال، والوديان، والأخاديد، وأجهزة تصريف المياه، وجميع المظاهر التي كان الدكتور تلب أستاذ الهندسة الجيولوجية يدرسنا إياها في الفصول الدراسية، والحقول العملية

في السبلوكة والسّليتات، والأشكال التي كان يشرحها بإسهاب، وأنا أسبح على ذرى السّحاب الذي يشبه جسرا طبيعيا يربط الأرض بالسماء.

على متن الطائرة أفاض الشوق على وجداني، وكانت في قبضتي بقايا الأيام الخوالي، وشذرات قديمة، وذكريات عن أشقائي الذين أسكنهم التبعثر الجغرافي في مومباسا، وحملت لحظات من الصفاء على حنجرتي التي تزأر عشقا دافئا كموسيقى عمر طولي أو كأوبرالية مريم مرسل الكلاسيكية، وتمايلت مع أوتار الأحاسيس التي تطير فاردة أجنحتها إلى مراتع الصبا هناك في المدن الصومالية الوادعة على جنبات نهر شبيللي الفياض خيرا ومياه وزرعاً، ثم ترجع ليخمد نبضها وراء الغربة والترحال فتكون دموعا أوفتورا أو عتابا، أو هكذا خُيّل إليّ وأنا أسرع الخطى نحو مدينة ألهمت الرحالة والكتاب وهواة السفر كفاسكو دي جاما وباربوسا والرحالة العربي المسلم ابن بطوطة، وتنافس على السيطرة عليها الإمبراطوريات العالمية والممالك القديمة أمثال البرتغال والإنجليز والعرب والألمان.

كان يجلس إلى جنبي رجل مسن يبدو على ملامحه ولكنته الإنجليزية الواضحة أن أصوله ترجع إلى شبه الجزيرة الهندية، متحف القوميات والأديان واللغات، كنت أفهم لغته الإنجليزية بصعوبة بالغة. وصلت إلى منبع الجمال والمدينة التي يتحدث بتراثها الركبان، ويتسامر بحضارتها الخلّان، وأصبحتْ عنوانا للعراقة واسما لامعا بين المدن التراثية المسجلة لدى المنظمات الأثرية والهيئات السياحية، وروحي تعانق الظلال الوارفة لأشجار النخيل والباباي والجوز الهندي، والشواطئ الخازنة لأخبار الماضي والإمبراطوريات التي سادت ثم بادت.

هبطت الطائرة على مدرج مطار آرب موي، المطار يحمل اسم الرئيس الكيني الأسبق الذي حكم البلاد منذ28ربيعاً بقبضة من حديد لا تخلو من حكمة إفريقية قديمة، كان يحارب التعددية الحزبية وحرية الرأي والإعلام إلا في الحدود الهامشي المسموح به، وعاصر أحداثا جساما أرهقت المنطقة وأحدثت تغيرات جذرية في السياسة والجغرافيا، ففي عصره انهارت الحكومة المركزية الصومالية بعد أن كانت خصما أرعب كينيا كثيرا بسبب ملكية إقليم إنفدي الصومالي الذي منحه الإنجليز لكينيا قبل رحيلهم عن إفريقيا، وكان الإنجليز مستائين من سياسة وحدة الشباب الصومالي (S.Y.L) الذي اختار عام1949م وصية إيطاليا عليهم عوضا عن إنجلترا، ومن أجل النكاية أعطت إنجلترا أوغادين لإثيوبيا والمقاطعة الحدودوية الشمالية لكينيا، كما عاصر سيطرة الجبهة الثورة الديمقراطية لمقاليد الحكم في إثيوبيا وبزوغ نجم إثيوبيا كدولة محورية في المنطقة والعالم، وشاهد التحرر الأرتري من المحتل الحبشي عام1993م ورغم ذلك قاد كينيا نحو الأمن والسلام الداخلي والابتعاد عن النزاعات والحروب الأفريقية

العبثية، المطار رغم صغر حجمه أنيق ويجري فيه العمل بسلاسة حيث المطارات الكينية معروفة بالزحمة والتعقيد، الأجواء خلابة وتشبه أجواء مدينة كسمايو إذ لا فرق بين مدينة تغفو على كبد خط الإستواء ومدينة إفريقية ناعسة في وسط الأدغال على بعد4 درجات جنوبًا. في المدينة الحسناء وفوق هذه الأرض الرطبة بأمطار العراقة عزمت على أن أدون كل شيء عن مومباسا منذ اللحظة التي وطئت فيها عجلات الطائرة مطار مُوي الدولي، لأني كنت أحاول استيعاب هذا الجمال، وفهم لغز التاريخ، وسبر غور ثقافة مومباسا، واستكشاف بصمات الماضي وحضارة العرب وإرث الإسلام.

الطقس معتدل يميل إلى الحرارة، والرطوبة مرتفعة هنا، وسحر الشروق يبث نورا هادئا نحو مدينة تعيش فيها جميع السحنات، والملامح، والعادات، والتقاليد، والثقافات المتعايشة جنبا إلى جنب، والأديان المتسامحة. رأيت مدينة إسلامية بامتياز حيث الآذان يصدح في كل جهة وصوب، مآذن قديمة، ومنابر تاريخية، ومدارس دينية ضاربة في جذور التاريخ، ولياليِ إفريقية ذات نكهة ثقافية إسلامية، وحسناوات ينبض الدم العربي في عروقهن الممزوج بالقامة الإفريقية الفرعاء. ورأيت مدينة متفردة!، حيث يعيش على تربتها كتفا مع القدم الهندي، والعربي، والزنجي، والبريطاني،والمولدون، والفسيفساء الجميلة من الأعراق والنسل المختلف جعلها متحف القوميات ومستودع الثقافات في كينيا.

وهنا رأيت ولأول مرة في حياتي هنديا يتكلم الصومالية وكأنه بدوي صومالي أصيل!، وللمعلومية كانت الجالية الهندية ساكنة وبكثرة في المدن الصومالية مثل مركا، ومقديشو، وبراوة، وكسمايو، وهرر، وجكجكا قبل الاستقلال وتسليم الصومالين زمام السلطة والتجارة، تضاءل عددهم تدريجيا في السنوات اللاحقة للاستقلال، وبعد الحرب الأهلية هاجرت الجالية الهندية إلى الدول المجاورة في شرق أفريقيا أو إلى الهند حيث الانتماء والأصل، وقد يرفع القارئ حاجب الدهشة عندما يعرف أن الهنود كان لهم عضو في أول برلمان صومالي عام 1960م!.

تعدّ مدينة مومباسا من أجمل المدن الساحلية في شرق أفريقيا وتلقّب بمومباسا راحة .أو (راها) حسب اللغة المحلية . ، لكثرة مرافقها السياحية، وتعدد أنواعها التراثية، ويرجع عمر مومباسا إلى آلاف السنين، حيث كانت مدينة مهمة ومرتعا خصبا للقبائل، ومرفأ إستراتيجيا لكل القوى التي حكمت العالم في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، وحتى بداية القرن العشرين، واشتهرت المدينة بمعالمها وثرائها، ومساجدها العتيقة، إضافة إلى الحيوانات الموجودة في محمياتها الطبيعية، كما أنها مدينة تعج بالمناطق الأثرية السياحية، ويبدو على جبينها آثار الاستعمار البرتغالي والإنجليزي، وبصمات حكم المسلمين من العمانيين واليمنيين والشيرازيين، ومن أشهر معالمها مسجد المندري، وقلعة المسيح التي بناها الاستعمار

البرتغالي عام 1593م على شكل صليب ليحفظ نفسه من الهجمات الإسلامية القادمة من شبه الجزيرة العربية، وبعد سيطرة الإنجليز على القلعة جعلوها سجنا عاما يشهد جور التاج البريطاني على المشرق الإفريقي، وبعد استقلال كينيا أصبحت القلعة متحفا قوميا يؤرخ لحقبة ماضية وتقلبات سياسية مرت عليها المدينة منذ تأسيسها.

الأطلال التاريخية تطل من كل مكان، الأعمدة الرخامية الضخمة للمباني العتيقة والاستراحات المميزة مازالت تعني بصمات العرب ومعمارهم إبان فترة حكمهم ، كما أن الميناء الجديد إرث إنجليزي بعد أن نقلوا الميناء إلى مكان أعمق مياهاً وأكثر فسحة، والميناء الجديد أو كليندیني (مكان المياه العميق) بعد التوسعة أصبح مرفأ مهما في الملاحة الدولية وميناء تعتمد عليه الدول الأفريقية المغلقة مثل رواندا وبوروندي و أوغندا وجنوب السودان حتى الكونغو والدول الأفريقية الواقعة في عمق القارة.

ميناء مومباسا من أكثر المراسي حيوية وزحمة في شرق إفريقيا، لا تتوقف عمليات الشحن والإرساء والانطلاق فيه؛ إذ هو المنفذ البحري لعدة دول حبيسة في أفريقيا لذا فهو يشكل شريان الحياة والعمود الفقري لحياة ملايين الإفريقيين وكذلك كانت المدينة منذ تاريخها الطويل. الميناء القديم للمدينة ناله الإهمال كثيرًا وغرق في طي النسيان والأمواج، واليوم تستخدمه المراكب الشراعية وسفن الصيد والقوارب الصغيرة وبقي رمز الحضارة والتاريخ لـ"مومبسا".

في عهد الكولونيالية الغربية وتحديدا عام1895م وقعت مومباسا تحت الإدارة البريطانية الغازية كغيرها من المدن الأفريقية المهمة في السواحل الأفريقية، ومنذ وصول السفينة الشهيرةHMS إلى تربة مومباسا وما تبعها من إنشاء السكك الحديدية بين أوغندا ومومباسا أصبحت المدينة عاصمة لحمية شرق أفريقيا البريطانية إلى أن تحولت العاصمة إلى نيروبي عام 1907م.

كما بقي في المدينة أثار البرتغال وبصماتهم ولعل قلعة المسيح تعتبر الإرث الأبرز لسكان شبه جزيرة إيبيريا في مومباسا الذين احتلوها بعد أن قُدم للملك البرتغالي تقرير حول القرن الإفريقي وضرورة السيطرة عليه فوراً عام 1485مفهاجموا المنطقة وأصبحت مومباسا عاصمة للمحميات البرتغالية في شرق أفريقيا منذ 1593م، وبعد معركة "ديو" زاد النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي وضَعُف الأسطول العربي وقوتهم مما سمح للبرتغال أن تسيطر على المنطقة تجاريا وإداريا لعقود.

من ميناء مومباسا ترسل كينيا صادراتها إلى الخارج، ومن أهم صادرات كينيا الورود والقطن، والشاي الكيني الذي يزرع في المرتفعات الكينية، وإنتاج الورود وإصداره إلى أوروبا فيه رومانسية كثيرة واعتبار

لطيف سياسيا، فكينيا المستعمرة الإنجليزية السابقة حرص الاحتلال الأوروبي أن تكون دولة بعيدة عن الاحتكاكات والصراعات منذ تأسيسها، وخير دليل على ذلك كيف حركت الدبلوماسية الغربية وحسمت الموقف والاضطرابات الإثنية في انتخابات 2007م بعد انتشار العنف والكراهية والمواجهات الدامية بين التيارين مؤيدي الحزب الحاكم وأنصار المعارضة.

ولولا التدخل الغربي الحاسم لكانت كينيا تتربع على عرش الدماء والحروب الأهلية، ولكن نظرا للسياسة العالمية ومركزية كينيا للدول الإمبريالية التي تسيطر على المنطقة ولو بالاستعمار الناعم حالت دون الولوغ في الدماء وشرخ المجتمع الكيني المسالم في الظاهر والمليء بالطاقات السلبية بسبب عقود من الفساد وعدم إيجاد العدالة الاجتماعية في السلطة والنفوذ، حيث بعض القبائل المؤثرة تعاني من إزاحة وتهميش مقصود من السلطة والثروة منذ تأسيس الدولة الكينية على أيدي الإنجليز، لأن كينيا لم تكن دولة معروفة أو شعوبا متماسكة، بل كانت قبائل أفريقية منتشرة في المنطقة لا يجمعها اللغة ولا التاريخ ولا أي رابط آخر.

في السنوات الأخيرة احتضنت المدينة سجالا عنيفا قانونيا وسياسيا بين المسلمين المناوئين لقوات مكافحة الإرهاب في كينيا، وهو جيش سري فوق المسائلة القانونية حسب نظرة الشعب مما أنتج نقاشا حادا على المستوي الرسمي والشعبي حول شرعيته وصلاحياته وأعماله المرعبة حيث يقتل المواطنين بالاشتباه في وضح النهار وفي عمق المدن والأسواق المأهولة .

الجدال الشرس كان بين الحكومة الكينية والمنظمات الحقوقية ووصل إلى ذروته بعد إنتاج قناة الجزيرة القطرية فلما وثائقيا عن الأعمال غير القانونية لعملاء مكافحة الإرهاب في كينيا خاصة بعد مقتل علماء وشبان وفقدان آخرين في الإقليم الساحلي في كينيا ولكن الحكومة الكينية والأجهزة الأمنية يؤكدان أن المستهدفين هم الإرهابيون الذين يشكلون تهديدا أمنيا للدولة وينتمون إلى حركة "الشباب" الصومالية التي تحارب الحكومة والشعب الصومالي بعد أن أصبحت حركة إجرامية تكره الحياة وتحارب التقدم.

خرجت إلى المدينة أمشي في شوارعها، وأصلى في مساجدها، وأتمعن في حياة أهلها، وأجلس في ساحاتها المفتوحة للجمال، وأزور أماكنها الأثرية، وأسبح في مياهها، وأمارس هوايتي المفضلة (كرة القدم) على سواحلها، وفي أول وهلة اكتشفت أن مومباسا تشبه المدن الفانتازية التي كانت تعيش في خيالي. توغلت في المدينة لأشبع فضولي ولأتعمق في تراث "مومباسا" الممتد عبر التاريخ، فرأيت فيها ما يذهل اللب ويخرس

اللسان، في كل زقاق عراقة تطفح، وعلى كل جدار تأريخ يتكئ على الصدأ الواضح على جبينه، وفي كل شارع حكاية مروية وفصول تراجيدية من الحروب مرت عليها، في المدينة القديمة منحوتات صخرية، ونقوش تاريخية كتبت على الجدران، ومكتبات عامرة بالكتب والمخطوطات الثقافية، ومدافع حيّة تؤرخ لحقبة الكولونيالية الاستعمارية.

هنا تتكلم التاريخ وتتحرش بك الجغرافيا، وفي خضم سرحاننا الذهني يدلنا المرشد السياحي على المقار الرسمية للاستعمار البرتغالي والمحاكم المدنية للإنكليز، وتكايا العرب، ومجالس الشعر والأدب والقهوة وآثارهم الباقية إلى يومنا هذا، وأول مكتب للبريد في شرق ووسط أفريقيا. حسب رواية المرشد السياحي حسين. وهناك بركة للسباحة بناها الإنجليز على شواطئ مومباسا، وهنا مصنع البواخر والسفن الحربية والتجارية، وهذا المبنى هو المخزن العام للأسماك، كما أن هذا الصرح هو المقر الرسمي للحاكم الإنجليزي.

كانت مومباسا قبلة السيّاح والمؤرخين معا، ومدينة خصبة للهواة ولمحبي السفر والترحال، ولقد زارها الرحالة العربي ابن بطوطة عام 1330م، وفي هذا الزمن البعيد كانت من أجمل المدن الواقعة على الضفة الغربية للمحيط الهندي، وكتب مذكراته الشهيرة عنها وعن أنماط حياتها وسلاطينها، وفي عام1840م خضعت المدينة للحكم العماني الذي حرر المدينة من الحامية البرتقالية بعد ضربه حصارا خانقا عليها مما أدي إلى لجوء البرتغال إلى حصن القلعة، ولم تسقط المدينة على أيدي العمانيين إلا بعد سنة وبعد أن مات معظم من دخلو القلعة جوعا وعطشا.

وفي عز التنقل في سجلات التاريخ تنهد المرشد وأحدق عينيه صوب البحر الذي علاه الضباب في تلك الأمسية، فقال بصوت خافت ذي نبرات حزينة لا تخلو منه النوستالجيا إلى الهوية الإسلامية للمدينة التي تكاد أن تضيع أو أن تندثر بسبب العولمة والزحف السكاني القادم من عموم كينيا: ومن هناك - وأشار بيده إلى المشرق - جاءت النجدة العمانية والجيوش الإسلامية الذين أعادوا للمدينة هيبتها ونضارتها وللإسلام عزته وكرامته، وأردف قائلا: كانت الممالك الإسلامية بقيادة العمانيين تنشر تعاليم الإسلام في أوساط القبائل الإفريقية الذين تأثّروا بسماحة الإسلام وخلق المسلمين وتواضعهم وامتزاجهم الطبيعي بالسكان الأصليين، وكانت المساجد مراكز علمية وصروحا معرفية تنطلق منها نور الإيمان.

في ظلال الأشجار وعلى منتجع مومباسا السياحي جلست أتامّل بقايا السحب العابرة والأفق المعانق للمياه والكنوز التراثية المدفونة في باطن هذه المدينة التي كانت يوما من الأيام مركزا اقتصاديا حيويا وسوقا للتوابل والعاج والبهارات والعبيد. أردت أن أكتب عنها شيئا فلم أزد أن كررت ما قاله القدماء عن

هذه الحسناء "مدينة رائدة في شرق أفريقيا، والمتنفس الأهم للقارة لربطها بين إفريقيا والعالم الخارجي لاسيما شبه الجزيرة الهندية، والجزيرة العربية، والصين، ومنها إلى طريق الحرير والذهب".

وفي قمّة التّفاعل مع أنغام المدينة قابلت مومباسا بزهو وحب شديدين، وبما أنني من هواة رشف قهوة المساء على الهواء المشحون بالغناء والمرح، ذهبت إلى المقاهي الواقفة على أكتاف نوافذ البهجة، والمطاعم والكافتيريات الواقعة على الواجهة البحرية لمومباسا. المقاهي مزدهرة ومكتظة، وتقدم المطاعم الوجبات الشعبية على وقع الأوراد الإسلامية، أو على الأنغام الشرقية الكلاسيكية التي تداعب الوجدان، وربما الموسيقى الإفريقية الشبيهة بغضب الأعاصير رجفة وصخبا.